البراهين العلمية

على صحة العقيدة الإسلامية

يتضمن الكتاب بحثاً موسعاً في إعجاز القرآن العلمي
وبحثاً موسعاً في بشائر الإسلام في الكتب المتقدمة

تأليف

عبد المجيد العرجاوي

دار وحي القلم

دمشق

بسم الله الرحمن الرحيم

البراهين العلمية

على صحة العقيدة الإسلامية

الكتاب

البراهين العلمية على صحة العقيدة الإسلامية

المؤلف

الدكتور عبد المجيد العرجاوي

الطبعة

الأولى 2003

عدد الصفحات: 240

القياس: 17X24

الناشر

دار وحي القلم

دمشق ـــ سورية

ص.ب: 30297 هاتف 93396818 (00963)

بيروت ـــ لبنان ص.ب: 113/6501

هاتف: 3925886 (00961) تليفاكس: (009611653655)

أشرف على الطبع والإخراج الفني

سليم محمد دولة

الإهداء

إلى كلِّ حُرٍّ كرَّم إنسانيته بإعتاقها من عبودية الهوى والتقليد، ففتَّش عن الحق ليعتقده، ولم يعتقد بلا دليل ثم يحاول الاستدلال.

أهدي هذا الكتاب

عبد المجيد العرجاوي

المقدمة

الحمد لله الذي تنطق الأكوان بآيات عظمته ووحدانيته، والذي فطر القلوب على معرفة بارئها ومحبته، سبحانه من إلـه ليس كمثله شيء ولا كُفء له، وهو السميع البصير، ولا تدركه الأبصار وهو المدرك لها وهو اللطيف الخبير.

والصلاة والسلام على الرحمة المهداة من رب العباد إلى العباد رسول الهداية سيدنا محمد، وعلى كافة أنبياء الله والمرسلين، وآلهم وصحبهم، ومن سار على هديهم إلى يوم الدين وبعد.

فإن قضية الألوهية ومعنى الحياة الإنسانية، هي القضية المحورية الكبرى في حياة الإنسان، لأن النظرية الصحيحة عن الكون والحياة هي التي تلقي بالضوء على مصير الإنسـان الذي ينتظره، ولهذا وجب على الإنسان الحر أن يفتش عن المعتقد الصحيح بتجرد، ويتحرر من عبودية الأهواء وتقليد الآباء عن غير هدى.

وهذا كتاب يعالج القضايـا الأساسـية في الاعتقاد، دون أن يعتمد على التعسف والافتراض، لذلك هو ينطلق في البحث بدءاً من القضايا الأولية التي يتفق عليها سائر العقلاء، ويستفيد من الثوابت العلمية ليأخذ بيد القارئ ويوصله بحق وبـالدليل إلى الاعتقـاد الصحيح الذي يجب على المرء المتبع للدليل تبنيه.

ولقد كتبت هذا الكتاب بحيث يلائم الإنسان المثقف الذي يقف في مهب التيارات الفكرية المختلفة، ويبحث عن المعتقد الصحيح الذي يشهد له العلم والمنطق، ويهدأ له القلب والوجدان، والذي يجيب على التساؤلات الملحّة التي تطرح نفسها في هذا الباب.

هذا ولم استمر على الأسلوب والنهج التقليدي الذي تنهجه كتب علم الكلام في بيان العقيدة الإسلامية، لأن لكل عصر لغته وأسلوبه وبراهينه، وله مواضيعه الخاصة المطروحة، ويتميز عصرنا بالثورة العلمية التي أثْرَتْ معارفنا في

الباب الأول

مقدمة في دراسة العقائد

﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾

[النحل: 78]

- 1 -

طرق حصول المعرفة

سؤال: ما هي طرق حصول المعرفة الإنسانية التي يصح الاعتماد عليها في الاحتجاج أمام الآخرين؟

الجواب: تعود أصول المعرفة الصحيحة عند الإنسان إلى أصول ثلاثة:

1 - **الأوليات العقلية:** في العقل البشري أوليات مطلقة الصحة تكون نقاط الارتكاز الأولى للمحاكمات العقلية، كالبدهية القائلة: لكل فعل فاعل. والبدهية التي تقول: لا يصدق النفي والإثبات على قضية بسيطة واحدة في آن واحد.

هذه الأوليات العقلية لا يمكن أن تُرَدّ إلى ما هو أبسط منها، لذلك لا يمكن البرهان على صحتها، لكن جميع العقلاء يجدون ضرورة للتسليم بها، ولولاها لا يستقيم المنطق البشري.

2 - **الإدراك المباشر بالحواس في ضوء تمحيص العقل:** عندما يدرك الإنسان بحواسه شيئاً ويحكم العقل بأن ما وصله ليس إلا وهماً ولا خداع حواس يكون الإنسان قد حصل على معرفة.

3 - **الاستنتاج العقلي:** يستنتج العقل من المقدمات التي تكونت لديه نتائج أخرى وحقائق أعقد، وذلك عن طريق الاحتكام إلى المبادئ العقلية الأولية التي تمثّل قواعد صحيحة دوماً.

وهنالك استدلالات لا تفيد علماً مقطوعاً به ولكنها تحرك الظن ويميل الإنسان إلى التصديق بها بدرجات متفاوتة تبعاً لدرجة قوتها.

ويمكن للمرء أن يحصل على معرفة أكيدة عن طريق الخبر الصادق. وذلك إذا قام الدليل لدى العقل بأن الخبر الذي وصله لا يمكن أن يكون كذباً، كأن تواتر الخبر لديه من طرق شتى كخبر الحرب العالمية الأولى؛ ففي مثل هذا الحال

يحكم العقل بمنع طواطؤ المخبرين جميعاً على الكذب ويكون الإنسان قد حصل على معرفة.

وقد كانت التجربة تعطي علماً لأنها تعتمد على الإدراك المباشر بالحواس، ثم التحليل العقلي للمدركات، والتحليل هو تلمُّس الأسباب أي: هو معتمد على الأولية العقلية التي تقول لكل نتيجة سبب. وكثيراً ما يعمم العقل نتيجة التجربة، والتعميم من عمل العقل.

سؤال: هنالك من يقول: إن الأوليات العقلية ليست صحيحة دوماً بل هي أمور اصطلاحية لذلك لا توصف بأنها صحيحة ولا خاطئة. وبناءً على ذلك تكون المفاهيم المبنية عليها نسبية. وذلك كهندسة (ريمن) التي تعتبر زوايا المثلث لا تساوي قائمتين، فهل هذا صحيح؟ وهل سائر الأوليات العقلية كذلك؟

الجواب: من الممكن أن نبني مفاهيم رياضية مجردة بناءً على اصطلاحات خاصة كاصطلاح وجود عدد مركب مربعه (1-)، لكن هذا الاصطلاح الرياضي الجديد والذي يعتبر نقطة ارتكاز أولى لبناء فرع جديد في الرياضيات إنما يُبنى على مفاهيم مجرّدة لا واقعية، فليس هو إذن كالأوليات العقلية التي تحكم الواقع المشاهد، والتي هي مركوزة في عقول كل العقلاء كالأولية القائلة لكل فعل فاعل. والذي يهمنا في بحثنا هو الأوليات العقلية العامة الموجودة في الواقع لا الأوليات الخاصة بالمفاهيم الرياضية المجردة.

ثم إن زوايا المثلث تساوي قائمتين بشرط أن ينسب سطحه إلى مستو كما هو الحال في هندسة إقليدس، أما إذا نُسب إلى سطح محدَّب أو مقعَّر كما هو الحال في بعض الهندسات الجديدة فلا يساوي عندئذٍ قائمتين.

فسبب الاختلاف بين معطيات هندسة إقليدس وغيرها هو الاختلاف في وصف الشروط العامة الخاصة لكلٍّ منها، فلا يشكل ذلك تمرّداً على المفاهيم القديمة، وإنما هو إضافة مفاهيم وقضايا جديدة لا تصدق إلا ضمن شروط خاصة.

* * *

- 2 -

مناقشة التجريبيين والوضعيين

سؤال: يقول أرباب المذهب التجريبي: إنَّ التجربة هي السبيل الوحيد للحصول على المعرفة الإنسانية لأن الإنسان يولد وعقله صفحة بيضاء جرداء خالية من أية معلومات، وإنما تصله المعلومات من خلال الحواس التي هي المنافذ الوحيدة للمعرفة، حيث يتجمع في العقل نتائج التجارب وتتكون المعرفة، حتى الأوليات العقلية تشكلت كذلك من استقراء التجارب، وبناءً على ذلك قالوا: إنّ المعرفة في ما وراء الطبيعة كمسألة وجود الله غير ممكنة لأن الحس والتجربة لا يمتدان إليها، فهل هذا صحيح؟

الجواب: في البداية نقول: إنَّ ولادة الإنسان جاهلاً لكل شيء لا يعني أنَّ العقل مجرَّد مخزن لما يرده من الحواس، فمن الممكن أن يكون فيه قوة فاعلة ذاتية تتفتح مع نمو الإنسان، ويمكن أن يكون للتجارب أثر في تفتيحها وإيقاظها كما قرر ذلك بعض الفلاسفة، لكن على كل حال ليست ولادة الإنسان جاهلاً لكل شيء دليلاً على أن العقل مجرد مخزن للمعلومات التي ترده من الحواس.

ثم إن قصر سبيل المعرفة على التجربة غير صحيح ونعترض عليه بما يلي:

1 - نقول لهم: تقولون إن المعرفة البشرية لا تأتي إلا من تجربة، فمن أين علمتم هذه الحقيقة؟ هل علمتموها من تجربة أم من غير تجربة؟ إن قالوا: من غير تجربة فقد أثبتوا إمكانية التوصل إلى حقائق معرفية من دون تجربة وهدموا بذلك مذهبهم؛ وإن قالوا: من تجربة. قلنا: أين هي التجربة التي شملت جميع معارف الإنسان الحاضرة والمستقبلية؟

2 - لو كانت التجربة هي سبيل المعرفة الأوحد لما استطاع الإنسان أن يصل إلى حقائق عامة لأن التعميم من عمل العقل ولا ينازع عاقل في أن تعميمات العقل صحيحة في أحيان كثيرة ولا غنى للإنسان عنها.

3 - لو كانت التجربة هي السبيل الوحيد للمعرفة لما تسنّى للمرء أن يحكم باستحالة شيء أبداً، لأنَّ ما تعطيه التجربة هو هل الشيء المدروس موجود أم لا، ولكن ليس كل ما هو غير موجود مستحيل الوجود؛ فالإنسان يفرّق بوضوح بين اصطدام القمر بالأرض ووجود القمر حال انعدامه.

إنَّ المثالين السابقين لم يحدث أيٌّ منهما ولم تعطِ التجربة علماً عنهما، لكن العقل يحكم بأنَّ الأول ممكن والثاني مستحيل، فكيف أعطى العقل حكمين مختلفين لأمرين يقفان على حد سواء في مقام التجربة؟.

4 - فرض المذهب التجريبي على أصحابه أن يقولوا: إنَّ اعتقاد الإنسان بعنصر الضرورة في ترابط العلة بالمعلول نتج من كثرة التجارب التي تظهر تعاقبهما فاقترنا في الذهن اقتران المتضايفين. وهذا ليس بصحيح؛ فالإنسان يرى ظواهر كثيرة متعاقبة ولا يجعل إحداها علة للأخرى كالليل والنهار، ويرى ظاهرة لمرة واحدة، فيعرف سببها ويستخلصه من بين مقارنات كثيرة، ويرى ظواهر كثيرة لا يعرف سببها لكنه يجزم بوجود السبب ولو لم يعلمه، ولا يتطرق إلى ذهنه أن تكون هذه الظواهر بلا سبب ولو لم يكن العقل يوجب ضرورة لا استقراء ترابط العلة بالمعلول لكان هذا الاحتمال وارداً.

5 - قاد المذهب التجريبي أربابه إلى المذهب المثالي الذي ينكر أن يكون هنالك موجود ما لم يُدرَك أو يُدرِك! وما ذاك إلاّ لأن التجربة والحس لا يعطيان علماً عن المادة حال انفكاك إحساساتنا عنها، وإنما يعطي علماً عن ذلك العقل. وجميع العقلاء يعلمون أنَّ المادة الصماء تبقى موجودة عندما نغمض أعيننا عنها، وقد كانت الأرض موجودة قبل ظهور الأحياء عليها. وهذا يهدم المذهب المثالي الإلحادي، ويهدم معه المذهب التجريبي الذي أدى إليه.

ـ إن معرفتنا بوجود الخالق تعالى ليس أمراً ممنوعاً ومستنكَراً إذا ما قدمنا الدليل العقلي عليه، لأن الاستدلال العقلي القائم على التلازم العقلي البيّن طريق صحيح للحصول على المعرفة.

سؤال: يرى (كانْت) وآخرون أنَّ المعرفة فيما وراء الطبيعة غير ممكنة، لأن الحس لا يمتد إليها ولا بد للمعرفة من مواد أولية هي الأحاسيس، والعقل ينظِّمها ويرتِّبها لا غير.. فهل هذا صحيح؟

الجواب: إنَّ معرفتنا بوجود الخالق تعالى هي معرفة مستقاة من الواقع المشاهد لا الواقع الغيبي، لأن الاستنتاج مبني على محاكمة الواقع المادي الموجود بيننا وإثبات أنه يحتاج إلى خالق خارج عنه، وطالما أن مبادئ العقل صحيحة فالاسترسال فيها صحيح. ولنضرب على ذلك بمثال: إذا رأينا بقعةً مضيئة وجانبها بقعة مظلمة، وفي البقعة المضيئة أشياء بوضعية مائلة تمتد إلى حافة البقعة المظلمة. فنحن في هذه الحالة نجزم بوجود شيء يسندها في البقعة المظلمة، وهذه معرفة استقيت من المحاكمة العقلية لموجودات البقعة المضيئة، وليست هي معرفة باطلة أو غير ذات معنى، وإن كنا نحن لا نستطيع أن نسبر ابتداء غور البقعة المظلمة.

فكذلك نحن لا نستطيع بعقلنا أن نسبر غور عالم الغيب، ولكن نستطيع أن نثبت وجود الخالق ابتداءً من محاكمة الواقع المادي.

ثم إن قول (كانْتْ): «إن مهمة العقل فقط تنظيم الإدراكات الحسية» غير صحيح، بل للعقل دور أكبر من ذلك، ونقول للمخالف إن الحكم الذي أعطيته للعقل ليس هو من معطيات الحواس ولا هو تنظيم إدراكات حسية فأنت قد ناقضت نفسك.

سؤال: يرى أرباب المدرسة الوضعية أن كل قضية كان من الممكن نظرياً إجراء تجربة عليها فهي جديرة بالمعرفة، وإن لم نملك التجربة أصلاً، لذلك هم يعترفون بصحة المحاكمة العقلية التي تثبت موجوداً مادياً كالاستنتاج العقلي الذي يثبت ما يسمى بالنترينو الذي لم يكشفه جهاز ولم يقفوا له على أثر لأنه موجود مادي، ولا يعترفون بصحة الاستدلال العقلي إن أثبت وجود الله تعالى، لأنه موجود غير مادي. . فما الجواب على هذا؟

الجواب: نقول لهم: إن كان الاستدلال العقلي قد استمدَّ مصداقيته من التجربة التي لم توجد بعد فكيف أثّرت التجربة قبل وجودها؟ أيقول عاقل: إنَّ مؤثراً يؤثّر قبل وجوده؟

ومن أين لكم أن هذه التجربة التي لم توجد بعد لو وجدت فسوف تؤكد هذا الاستدلال ولا تنفيه؟

إننا نقول: طالما أنَّ مبادئ العقل صحيحة فما أوصلنا إليه العقل صحيح

وواجب الاحترام، ولكي يكون الاستدلال العقلي صحيحاً يجب أن تكون المقدّمات المنطلق منها صحيحة، والتلازمات العقلية بيّنة وأكيدة، أما النتائج فلا يشترط فيها أي شرط، لأن من يقول للعقل: إن أوصلتني إلى نتيجة كذا وكذا فأنا أومن بنتائجك، وإن أوصلتني إلى غيرها فأنا أرفض نتائجك. . هو امرؤ متعسف على العقل وذرائعي.

إذن لا فرق بين أن نثبت بالعقل وجود شيء مادي أو غير مادي. وليس لما قالوه أي مسوِّغ سوى أسباب ذرائعية يريدون من ورائها إنكار وجود الخالق تعالى.

سؤال: يرى بعضهم أنَّ الحقائق في الكون نسبية وليس هنالك حقيقة مطلقة، وبعضهم يعمم الشك على كل شيء. . فما الجواب على هذا؟

الجواب: نقول للشُّكاك: هل تعلمون بيقين أنه لا توجد حقيقة مطلقة؟ إن قالوا: نعم. فقد هدموا مذهبهم وأثبتوا وجود حقيقة مطلقة. وإن قالوا: لا. قلنا: فأنتم تدَّعون أمراً أنتم لا تعلمون صحته.

ونقول: إن هنالك حقائق مطلقة لا نسبية، فلا ينازع العقلاء أن مبدأ العلية وقضية وجود المادة حقيقتان مطلقتان لا نسبيتان، فكذلك مسألة وجود الخالق تعالى بعد إثباتها لا يمكن أن تكون حقيقة نسبية، كذلك مسألة البعث بعد الموت لا يمكن أن تكون نسبية، لأنها قضية بسيطة لا تقبل التفصيل.

* * *

الجواب: إنَّ معرفتنا بوجود الخالق تعالى هي معرفة مستقاة من الواقع المشاهد لا الواقع الغيبي، لأن الاستنتاج مبني على محاكمة الواقع المادي الموجود بيننا وإثبات أنه يحتاج إلى خالق خارج عنه، وطالما أن مبادئ العقل صحيحة فالاسترسال فيها صحيح. ولنضرب على ذلك بمثال: إذا رأينا بقعةً مضيئة وجانبها بقعة مظلمة، وفي البقعة المضيئة أشياء بوضعية مائلة تمتد إلى حافة البقعة المظلمة. فنحن في هذه الحالة نجزم بوجود شيء يسندها في البقعة المظلمة، وهذه معرفة استقيت من المحاكمة العقلية لموجودات البقعة المضيئة، وليست هي معرفة باطلة أو غير ذات معنى، وإن كنا نحن لا نستطيع أن نسبر ابتداء غور البقعة المظلمة.

فكذلك نحن لا نستطيع بعقلنا أن نسبر غور عالم الغيب، ولكن نستطيع أن نثبت وجود الخالق ابتداءً من محاكمة الواقع المادي.

ثم إن قول (كانْتْ): «إن مهمة العقل فقط تنظيم الإدراكات الحسية» غير صحيح، بل للعقل دور أكبر من ذلك، ونقول للمخالف إن الحكم الذي أعطيته للعقل ليس هو من معطيات الحواس ولا هو تنظيم إدراكات حسية فأنت قد ناقضت نفسك.

سؤال: يرى أرباب المدرسة الوضعية أن كل قضية كان من الممكن نظرياً إجراء تجربة عليها فهي جديرة بالمعرفة، وإن لم نملك التجربة أصلاً، لذلك هم يعترفون بصحة المحاكمة العقلية التي تثبت موجوداً مادياً كالاستنتاج العقلي الذي يثبت ما يسمى بالنترينو الذي لم يكشفه جهاز ولم يقفوا له على أثر لأنه موجود مادي، ولا يعترفون بصحة الاستدلال العقلي إن أثبت وجود الله تعالى، لأنه موجود غير مادي. . فما الجواب على هذا؟

الجواب: نقول لهم: إن كان الاستدلال العقلي قد استمدَّ مصداقيته من التجربة التي لم توجد بعد فكيف أثّرت التجربة قبل وجودها؟ أيقول عاقل: إنَّ مؤثراً يؤثّر قبل وجوده؟

ومن أين لكم أن هذه التجربة التي لم توجد بعد لو وجدت فسوف تؤكد هذا الاستدلال ولا تنفيه؟

إننا نقول: طالما أنَّ مبادئ العقل صحيحة فما أوصلنا إليه العقل صحيح

وواجب الاحترام، ولكي يكون الاستدلال العقلي صحيحاً يجب أن تكون المقدّمات المنطلق منها صحيحة، والتلازمات العقلية بيّنة وأكيدة، أما النتائج فلا يشترط فيها أي شرط، لأن من يقول للعقل: إن أوصلتني إلى نتيجة كذا وكذا فأنا أومن بنتائجك، وإن أوصلتني إلى غيرها فأنا أرفض نتائجك. . هو امرؤ متعسف على العقل وذرائعي.

إذن لا فرق بين أن نثبت بالعقل وجود شيء مادي أو غير مادي. وليس لما قالوه أي مسوِّغ سوى أسباب ذرائعية يريدون من ورائها إنكار وجود الخالق تعالى.

سؤال: يرى بعضهم أنَّ الحقائق في الكون نسبية وليس هنالك حقيقة مطلقة، وبعضهم يعمم الشك على كل شيء. . فما الجواب على هذا؟

الجواب: نقول للشُّكاك: هل تعلمون بيقين أنه لا توجد حقيقة مطلقة؟ إن قالوا: نعم. فقد هدموا مذهبهم وأثبتوا وجود حقيقة مطلقة. وإن قالوا: لا. قلنا: فأنتم تدَّعون أمراً أنتم لا تعلمون صحته.

ونقول: إن هنالك حقائق مطلقة لا نسبية، فلا ينازع العقلاء أن مبدأ العلية وقضية وجود المادة حقيقتان مطلقتان لا نسبيتان، فكذلك مسألة وجود الخالق تعالى بعد إثباتها لا يمكن أن تكون حقيقة نسبية، كذلك مسألة البعث بعد الموت لا يمكن أن تكون نسبية، لأنها قضية بسيطة لا تقبل التفصيل.

* * *

- 3 -

أساسيات في منهج بحث العقائد

1 - عدم الإدراك بالحواس لا يعني عدم الوجود:

هذه قاعدة واضحة يسلِّم بها العقلاء، لأن الرؤية دليل على الوجود، لكن عدم الرؤيا ليس دليلاً على عدم الوجود، وهنالك أشياء كثيرة موجودة بيننا لا نراها ولا نحس بها كالأشعة تحت الحمراء وفوق البنفسجية، فكيف بالموجودات التي ليست بيننا؟.

كذلك فإن الجهل بالشيء ليس هو العلم بعدم وجوده، لأن علم الإنسان الطبيعي لم يحط بكل شيء.

فالذين ينكرون الغيبيات لا يستندون إلى علم بل إلى جهل، وأنَّى للجهل أن يكون مستنداً صحيحاً.

ثم إنَّ العلم بمعناه الواسع يشمل كل ما أثبته العقل ولو لم يكن المُثبَت أمراً طبيعياً، فهل يشمل الحقائق الغيبية المبرهن عليها، وإنكار ذلك من الغرور والتمرد القبيح.

2 - عدم التصور لا يعني عدم الوجود:

إن تصور الإنسان يبقى حبيس الواقع الذي هو فيه، ولما كان الواقع الذي يعايشه ويشعر به محدوداً كان تصوره محدوداً أيضاً.

يؤيد ذلك أن الأعمى منذ ولادته مهما أوتي من الذكاء ومهما أوتيتَ من القدرة على التفهيم.. فلن تجعله يفهم حقيقة الألوان، لأنه يعيش في عالمه الخاص الذي لا يشعر فيه بأي لون.

ولو أننا تساءلنا: هل لهذا الفضاء الكوني نهاية أم لا؟ أما النهاية فالإنسان لا يستطيع أن يتصورها، لأنه لا يستطيع أن يتصور الحد الذي ينتهي عنده الفراغ ولا يكون بعده فراغ.

أما اللانهاية فهو أيضاً لا يستطيع أن يسلم بها ويقيم لها صورة في ذهنه،

كذلك لا يستطيع أن يتصور ما يقوله بعض المعاصرين من أن الكون يُطوى على نفسه.

كل ذلك يؤكد أن تصور الإنسان محدود. وقد جاءت العلوم المعاصرة؛ كعلوم الذرة والنسبية بقضايا لا يستطيع المرء أن يتصورها واعتُبرت من الحقائق العلمية.

فكذلك نحن في مسائل العقيدة قد نصل إلى أمور يصعب تصورها ولا يشكل ذلك قادحاً في صحتها، ومن غير المستغرب أن يكون تصور المخلوق لا يحيط بشأن خالقه.

3 - لا تبنى العقائد على الحدس والافتراض:

نجد أن بعض الكاتبين عندما يكونون بصدد بحث ظاهرة معينة يفرضون من عند أنفسهم تفسيرات وأسباب للظاهرة المبحوثة حسبما يهديهم حدسهم وخيالهم، ثم يربطون النتائج بالمقدمات بما يرونه من مسوغات في نظرهم، ليعطوا بالنتيجة تفسيراً مقبولاً للظاهرة المبحوثة.

إنَّ هذا المسلك لا يعتبر علماً صحيحاً ولو قدَّم صاحبه تفسيرات مقبولة، وذلك لأنه افتراض، ولم يقدّم صاحبه دليلاً على هدم كل تفسير آخر غير الذي جاء به.

ولما كانت العقيدة ومسألة الألوهية من أهم القضايا في الحياة، وجب أن نبحثها بحثاً علمياً يُبتعد فيه عن الافتراض والتحكم، وعلينا أن نبدأ البحث من النقاط المتفق عليها بين العقلاء جميعاً، ووفق مقتضيات ومستلزمات المنطق الإنساني البيّن، فإن أوصلنا العقل وفق هذا المنهج إلى حكم في مسألة الألوهية قلنا به، وإلا توقفنا ولم نحكم بشيء.

وأنوّه هنا إلى أنّه كما يجب على المؤمنين أن يبرهنوا على وجود الخالق تعالى، فإن على الملحدين أن يقدموا دليلاً على نفيهم لوجوده، لأن النفي التام كالإثبات التام، كلاهما يحتاج إلى دليل، وحتى لو كان دليل خصومهم غير كافٍ فهذا لا يسوغ لهم النفي التام.

❋ ❋ ❋

الباب الثاني

الأدلة على وجود الخالق

﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾

[الطور: 35]

- 1 -
دليل حدوث المادة

قاعدة [إذا وجدنا أنفسنا أمام تسلسل تنتج وتُعرَّف كل حلقة فيه من التي قبلها، فلا بد من وجود الحلقة الأولى في هذه السلسلة، والتي هي من جنس حلقات السلسلة وهي الأصل الذي انطلقت منه السلسلة].

ولنضرب ببعض الأمثلة على هذه القاعدة.

1 - إذا كان هنالك مستطيل مجهول المساحة وادّعى امرؤ أنه قد عرفها وحددها بـ(12)م2، فلما سألناه كيف توصل إلى هذه المعرفة؟ قال لأن نصفه (6)م2، وعندما سألناه عن النصف قال لأن ربعه (3)م2، وهكذا يمضي في سلسلته إلى تقسيمات أصغر فأصغر دون أن يكون في سلسلته هذه مساحة معروفة بذاتها، فهل تراه قد برهن أن مساحة المستطيل (12)م2؟ طبعاً لا، ويدرك المرء بطلان قوله بالبداهة.

2 - إذا وجدنا أنفسنا أمام سلسلة أعداد ينتج كل عدد فيها من سابقه وفق قانون رياضي معين، ألا يجب أن يكون هنالك عدد أول معروف بذاته كي تكون هذه السلسلة موجودة وذات معنى؟

إن العقل يحكم بوجوب وجود العدد الأول، والرياضيات تنص على ذلك أيضاً، إذ ينص الرياضيون أن كل سلسلة حسابية أو هندسية لكي تكون موجودة ومعرّفة يجب تعريف العنصر الأول منها.

كذلك تنص الرياضيات المعاصرة أنه لو كان لدينا زمرة من العناصر ينتج فيها كل عنصر من عنصر آخر، فلا بد من وجود العنصر الأول فيها، سواء كان عدد عناصر الزمرة منتهياً أم غير منتهٍ، ويدعى بالعنصر المولد.

من هذين المثالين يتبين لك صحة القاعدة التي ذكرناها، ومن ينفي هذا الذي نقوله فعليه أن يبين هل يجيز التسلسل في الأمثلة التي ذكرناها؟ إن قال:

نعم. فقد أراحنا من الحديث معه، لأن جميع العقلاء يعلمون بطلان ذلك بداهة، والرياضيات في مبادئها تؤكد هذا البطلان.

وإن منع التسلسل في ما ذكرناه وأجازه في سلاسل أخرى فعليه أن يوضح لأي مسوغ فرّق بين التسلسلات التي ينطبق عليها تعريف واحد، إذ من المعروف أن التفريق بين المتماثلات تحكم لا يجوز.

وقد كان التسلسل وفق تعريفنا باطلاً لأنه لا يصح تعريف المجهول بالمجهول مهما طالت سلسلة المجاهيل ولو كانت لا نهائية، ولأنه لا ينتج من نقل اللاشيء شيء مهما طالت السلسلة المزعومة.

حدوث المادة:

من الملاحظ أن المادة في الطبيعة في حال تغيُّر وتبدُّل، فالأعراض والصور القائمة بالمادة في حال تغير وتجدد مستمر، وكل صورة أو وضعية للمادة قد نتجت من صورة ووضعية سابقة لها، فالصورة أو العرض الجديد قد أخذ حالته الراهنة من العرض السابق له، وعُرِّفَ الجديد اعتماداً على الذي قبله من عَرَض سابق ومؤثر سابق، إذن نحن أمام تسلسل تنتج كل حلقة فيه وتأخذ تعريفها مما قبلها، إذن حسب القاعدة التي ذكرناها لا بد أن يكون للمادة صورة أولى ووضعية أولى وأعراض أولى قامت بها، ومنها ابتدأت سلسلة الصور المتلاحقة القائمة بالمادة.

بعد ثبوت ذلك فإما أن تكون المادة ملازمة من الأزل صوراً وأعراضاً واحدة ولا تغير فيها ولا تبدل ثم ابتدأ التغير فيها فجأة بلا فاعل خارج عنها، أو أنها أُحدثت على صور أولى.

الاحتمال الأول غير ممكن، لأن الساكن يبقى ساكناً إلى الأبد ولا تنطلق الحركة والتغير من قلب السكون تلقائياً، إذن يثبت الاحتمال الثاني وهو أن المادة محدثة وُجدت بعد أن كانت معدومة.

● هذا ويمكننا صياغة البرهان السابق على شكل آخر.

أقول: من المعروف أن تحولات المادة توصف بتوابع رياضية معينة، ومن المعروف أن كل تابع رياضي لا يعطينا قيماً واصفة لحالة المادة إلا إذا حددنا له شروط البدء.

ومن المعروف أن شروط البدء هذه قد نتجت بدورها من توابع رياضية أخرى خضعت المادة لها.

وتابع التابع المركب من تابعين أو أكثر يبقى تابعاً ويبقى محتاجاً لشروط البدء لكي يعطينا قيماً محددة تصف حالة المادة.

وإذا أطلقنا تسمية التابع العام على التابع المشكل من تركيب سائر التوابع المتلاحقة الواصفة لحالة المادة. فهذا التابع العام لا بد له من شروط بدء أولى ليعطينا قيماً واصفة لحالة المادة الراهنة، ولما كان هذا التابع له قيم محددة الآن تصف الحالة الراهنة فلا بد أن تكون له شروط بدء أولى تحددت قيم الحالة الراهنة اعتماداً عليها. ويعني هذا أن للمادة وضعية أولى وحالة أولى أي أنها محدثة.

● بعد تقديمنا لهذا الدليل الإلزامي على حدوث المادة لا بأس أن نستأنس بمعطيات علمية تؤيد القول بحدوث المادة.

1 - دليل التوسع الكوني: وجد علماء الفلك أن الأجرام والمجرّات الكونية في حالة توسع دائم وكأنها على بالون من المطاط يجري نفخه، وقد قاد هذا النظر إلى تقرير أن المادة كلما أغرقنا في الماضي وجدناها منضمة إلى بعضها أكثر فأكثر، وطرح التوسع الكوني تساؤلاً هو: ما هي النهاية الصغرى لهذا الانضمام؟ وكيف زُوّدَت هذه الأجرام الكونية بهذا الاندفاع[1] الهائل؟ كل ذلك جعل علماء الفلك يقررون أن الكون نشأ عن انفجار كوني أولي. وقد أيد هذه النظرية اكتشاف حقل كهرطيسي، منبث في أرجاء الفضاء الكوني عزي إلى الانفجار الأولي، وقد أصبحت هذه النظرية هي القياسية والمعتمدة لدى عامة الفلكيين، وهذا يعني بوضوح أن الكون مُحدَث.

2 - دليل التوازن الحراري: يجري في الطبيعة عمليات تدعى بالتلقائية كهبوط الماء من أعلى إلى أسفل، وانتقال الحرارة من الجسم الأسخن إلى الأبرد؛ وفيها تفقد المادة ما يسمى بالطاقة الحرة.

ولا يمكن لهذه العمليات أن تكرر نفسها، بلا تناه وينص المبدأ الثاني في

---

(1) الاندفاع يسمى أيضاً كمية الحركة، ويساوي جداء الكتلة بالسرعة، وتنص مبادئ الفيزياء على أن كمية الحركة مصونة.

علم الحرارة والتحريك (ترموديناميك) أن العمليات الطبيعية غير عكوسة[1]، هذا ومجمل العمليات في الطبيعة من نوع العمليات التلقائية، لذلك فالجُمل المادية في المحصلة تخسر باستمرار ما يسمى بالطاقة الحرة. لذلك لا تستطيع أن تكرر أطوارها بلا تناهٍ، فالأجسام الحارة تفقد حرارتها لتتوازن مع الأجسام الباردة والمنابع الحرارية تسعى نحو الانطفاء والكل يسعى إلى التوازن.

وكل جملة مادية محددة تحتاج إلى زمن محدد لتبلغ حالة التوازن، حيث تكون قد فقدت كل طاقتها الحرة. إذا نظرنا الآن إلى مجرة من المجرات واعتبرناها جملة مادية نجد أنها تحتاج إلى زمن محدد لتبلغ حالة التوازن، ولما كانت لم تبلغ حالة التوازن بعد فما مرّ عليها من زمن محدود، لأن ما هو أقل من المحدود محدود.

ويُعترض على هذا الدليل بأن مبادئ الترموديناميك لا تطبق إلا على جمل معزولة، وليست المجرة معزولة تماماً عن الكون.

أقول: إن هذه الملاحظة لا تمنع تطبيق مبادئ الترموديناميك على مسألتنا، لأنّ تأثير المجرات على بعضها ضعيف والمجرة التي اعتبرناها جملة مادية تخسر كل يوم مقداراً هائلاً من طاقتها الحرة، ولا يعوض لها تأثرها بباقي أجزاء الكون مقداراً ضئيلاً من ذلك.

ثم إنّ كل نجم وكل مجرة يسعيان بمفردهما نحو الاستقرار، ولن يعين نجماً ملتهباً كالشمس على عدم بلوغ لحظة الانطفاء والتوازن وجودُ نجوم أخرى كثيرة تسعى للهدف ذاته. وإن سائر العمليات التي تتم معاً على التوازي لا على التتالي لا يتعلق زمن انتهائها بعدد تلك العمليات.

---

(1) العمليات في الطبيعة على ثلاثة أنواع:

1 - تلقائية: كانتقال الحرارة من الجسم الساخن إلى الأبرد منه، وفيها تخسر المادة في الطاقة الحرة وتربح في الأنتروبي.

2 - عمليات انعكاسية: لا يتغير فيها الأنتروبي والطاقة الحرة كدوران الكوكب حول الشمس.

3 - عمليات لا تلقائية: كرفع الماء إلى أعلى ولا تحدث إلا بفعل فاعل وفيها تربح المادة طاقة حرة. هذا ومعظم العمليات في الكون تلقائية.

ثم إن معطيات النظرية النسبية تقول: إن الكون يُطوى على نفسه بحيث لو انطلق شعاع ضوئي مستقيماً فسيعود بعد مسيرة كافية للنقطة التي بدأ منها، إن قبلنا بذلك أمكن اعتبار الكون كله جملة معزولة وكان محتاجاً إلى زمن محدد لكي يتوازن ويستقر.

3 - دليل بناء الذرة: من المعروف أن ذرات الكون مكوّنة من نوى وإلكترونات تدور حولها بسرعة كبيرة، ويتوازن الإلكترون في مداره بفضل تساوي قوة جذب النواة مع القوى النابذة الناشئة عن الدوران.

وإن كل جسم يتوازن على هذه الكيفية لا يمكنه التوازن ما لم يكن مزوداً بسرعة ابتدائية، لأنها ـ أي السرعة الابتدائية ـ تدخل في معادلة توازنه، كما تدخل السرعة الابتدائية في معادلة توازن القمر الصناعي الدائر حول الأرض.

وهذا يعني أن بناء الذرات المادية في الكون محدث، وهذا ينفي ما يزعمه بعضهم من أن أصل الكون سديم غازي، وذرات هذا الغاز أزلية لا أول لوجودها.

وجود الخالق تعالى:

بعد أن أثبتنا حدوث المادة بالأدلة السابقة وخصوصاً الدليل الأول الذي هو العمدة لنسأل: كيف وُجدت المادة؟

إن قيل: صدفة. قلنا: لوجود الصدفة شروط أهمها وجود الشيء الذي يتصادف؛ فإن كان العدم المطلق هو المسيطر فلا شيء يتصادف مع شيء إذن لا صدفة.

إن قيل: الطبيعة أوجدتها. قلنا: ما هو تعريف الطبيعة؟ إن كانت الطبيعة هي جملة الموجودات، فهذه الموجودات كانت معدومة، فكيف يسند إليها الفعل قبل وجودها؟ وإن كانت الطبيعة هي الذات القادرة الحكيمة، فهذا ما نسميه نحن الله، وإن كان لكم تعريف لها غير هذا وذاك فأبدوه لنا، وإلا فإسناد الفعل إلى لفظة ليس لها مدلول واضح هو عبثٌ وتضليل.

إننا نقول في استدلال واضح: ما دام فعل الإيجاد لا يمكن أن يُسند إلى المادة نفسها، ولا يمكن أن يُسند إلى اللاشيء!، فشيء آخر غيرها أوجدها، أي لهذا الكون خالق وهو ما نسميه الله تعالى.

ولعلّ قائلاً يقول: ومن خلق هذا الخالق الذي تدّعونه؟

أقول: إن هذا السؤال معتمد على مبدأ العلية، ومبدأ العلية يقول: لكل فعل فاعل؛ والله تعالى لم يُوجَد بفعل بل هو موجود من الأصل، وبالتالي لا يصح أن يطبق عليه مبدأ العلية.

وليس هو كالمادة، لأن المادة مبرهن على حدوثها بأدلة لا يمكن تطبيقها على الله تعالى.

ونحن لا نتنكر لمبدأ العلية بل هو لا يصح تطبيقه في هذا المجال، والدليل على أن مبدأ العلية لا ينص على أن لكل موجود فاعل، أن الأصل في الوجود لا يمكن أن يكون هو العدم المطلق أي العدم الذي ليس فيه خالق ولا مخلوق ولا أي شيء آخر، لأن العدم المطلق يبقى عدماً مطلقاً، ولا ينتج وجوداً.

إذن فالأصل هو الوجود، وصاحب الوجود الأول ـ بغضّ النظر مبدئياً من هو ـ هو موجود لا خالق له.

إذن لا يصح أن نقول: لكل موجودٍ فاعل، بل لكل مُحدَث فاعل قد خلقه.

ولما كنا قد برهنا على حدوث المادة صح لنا أن نقرر أنها محتاجة إلى خالق قدير، كذلك فالمادة منظمة تنظيماً معقّداً واعياً في بعض الأحيان كما هو الحال في الأحياء، ولا يمكن أن يُسند فعل التنظيم إلى المادة الصماء، كل ذلك يؤكد احتياج المادة إلى خالق.

ولقد كان من الممكن أن أنظر إلى سؤال الملحد: «مَنْ خلق الله؟». كاعتراض صحيح لو لم يكن لديّ الجواب على ذلك، أو لو كان الملحد قد ألزمني بالمنطق نفسه الذي استدللت به على حدوث المادة دليلاً على حدوث الخالق. لكن الملحد لم يصنع ذلك، والدليل الذي استدللنا به على حدوث المادة لا يطبق على الخالق.

وقد وقفنا هذا الموقف في الإيمان بوجود الخالق القادر القديم(1)، لأن المنطق برهن على قضيتين لا يمكن أن يجمع بينهما إلا على النحو الذي ذكرناه.

---

(1) المراد بالقديم: الأزلي الذي لا أول لوجوده.

الأولى تقول: العدم المطلق لا يمكن أن يكون أصلاً للوجود.

الثانية تقول: المادة مُحدثة سبق وجودها عدم.

فإن لم يجمع بين هاتين القضيتين على النحو الذي ذكرناه، فكيف يجمع بينهما؟

* * *

دليل انتظام المادة وحسابات الأنتروبي

عندما يجد منقبو الآثار تمثالاً منحوتاً بدقة على شكل إنسان يجزمون بوجود يد مبدعة قد نحتته، مع أنهم لم يروا الصانع المِفَن الذي قام بالفعل؛ ومثل هذا محل اتفاق سائر العقلاء في العالم، فنحن لا نجد صوتاً واحداً يرتفع ليقول: إن من المحتمل أن تكون التماثيل المكتشفة من قبل رجل الآثار، والكتابات التاريخية وجدت صدفة بتأثير العوامل الطبيعية عبر آلاف السنين.

إن الإنسان يقف هذا الموقف في الجزم بوجود يد فاعل قد نحتت التماثيل والآثار القديمة، لأنه عندما يكون متجرداً يعرف ويقر بأن الصدفة لا يمكن أن تنتج فعلاً كهذا.

وقد جاءت رياضيات الإحصاء، وحسابات الأنتروبي مؤكدة لما يفهمه الإنسان ويقر به بالبداهة، فهذان العِلمان يقولان باستحالة أن تسعى ذرات المادة ذات الأعداد الهائلة والمتوزعة تبعاً للصدفة نحو تحقيق نظام خاص وترتيب معقد.

وقد عرَّف الفيزيائيون مقداراً يعبر عن العشوائية أسموه الأنتروبي عندما يزداد تزداد العشوائية الجزيئية في المادة؛ وتنص مبادئ الترموديناميك على أن العمليات الطبيعية يزداد فيها الأنتروبي وبالتالي العشوائية[1]؛ ونفهم من ذلك أن المادة الصماء لا يمكن لها أن تُحدِث نظاماً من تلقاء نفسها.

إذا نظرنا الآن إلى الكائنات الحية لوجدناها آية من آيات التنظيم المدهش

(1) انظر على سبيل المثال: الحرارة والديناميكا الحرارية لمارك وزيمانسكي وريتشارد هـ ديتمان، ترجمة الدكتور محسن سالم رضوان، ص195, 233, 241. وقد ذكر البيردوكرك في كتابه (قصة المادة السبيرنية) عن الفيزيائيين أنهم يقولون: إن أي جملة مادية إذا تركت وشأنها فإنها تسير إلى الانحطاط والتدني ويسير تطورها إلى الفوضى!.

العجيب، ولوجدناها قد أحيطت بكل شروط الحياة رغم كثرتها، فالشمس مثلاً تمد الأرض بإشعاع مناسب للحياة ومنتظم يحدث فيها من جراء حدوث تفاعلات التحام نووية. ولم يتمكن الإنسان حتى اليوم من السيطرة على تفاعل الالتحام النووي وجعله ينطلق بشكل منتظم مفيد.

كل ما على الأرض قد جعل بمقدار يحقق توازناً حكيماً ويخدم هدف الحياة كنسبة الأوكسجين وغاز الكربون، وقوة الجاذبية، وطول الليل والنهار، كل شيء جُعل لحكمة وغاية حتى كأن العقل مبثوث في كل شيء.

إذا نظرنا إلى الورقة الخضراء وجدناها تقوم بتفاعلات كيميائية معقدة تنتج السكريات وغيرها بدءاً من غاز الفحم والماء، ولم يتمكن العلماء من مجاراة الورقة الخضراء في صناعتها. وإذا نظرنا إلى الخلية الحية وجدناها تقوم بتفاعلات كيميائية معقدة لا يجري قدرها في أكبر مصنع كيميائي في العالم، فمن جعلها تسير في إقامة التفاعلات الكيميائية المتعددة وإنتاج البروتينات والإفرازات المختلفة؟!.

من كتب في جدائل الأحماض النووية (DNA) كيفية سير العمليات في الخلية؟ هذه الجدائل التي تشكّل مكتبة ضخمة رغم صغر حجمها، فيها سائر التعليمات الوراثية وسائر التعليمات التي تحتاجها الخلية في أعمالها البالغةِ التعقيد[1].

فالكبد مثلاً ينتج أضداداً تؤثر على الجراثيم والطفيليات المهاجمة للجسم فتقتلها دون أن تضر الجسم، وهو يصنع ذلك معتمداً على المكتبة الضخمة التي لديه من الأحماض النووية (DNA) التي كُتب فيها أن الزيفان الجرثومي كذا له مضاد المادة كذا وكذا وصنعُها يتم بالمراحل كذا وكذا.

فمن علّم الكبد صُنع هذه المضادات المختلفة وإنتاجها بحيث تقتل الجرثوم المهاجم دون أن تقتل خلايا الجسم أو تضرها، مع كون الجسم مؤلفاً من بروتينات مثل الجرثوم؟.

---

(1) يقول العالم بيدل: «لو أردنا أن نعبّر بالألفاظ عن أوامر الـ(DNA) المسجلة في خلية واحدة لملأنا موسوعة ذات ألف مجلد»!

أيُعقل أن تكون هذه الأجهزة البالغة التعقيد لا مصمم لها؟! وتلك المكتبة الضخمة لجدائل (DNA) لا كاتب لها؟!!.

لو وجدنا بضعة أسطر منحوتة على حجر قديم لجزمنا بوجود كاتب عاقل قد كتبها قديماً، فما بال مَنْ ينكر وجود كاتب للمعلومات القيمة والكبيرة جداً المكتوبة في جدائل الـ(DNA)!.

هل العين مصممة لتأدية غاية مقصودة هي الإبصار؟ والأذن مصممة لتأدية غاية مقصودة هي السمع؟ والأعضاء الأخرى مصممة لتأدية الوظائف التي تؤديها؟

إن كانت فعلاً مصممة لتأدية تلك الغايات المقصودة، فمن صمَّمها ومن هو القاصد المصمم؟.

أليس بصحيح ما ذكره العالم الطبيعي الشهير (إسحاق نيوتن) من أن الذي صمَّم الأذن لا بد أن يعرف قوانين الصوت، ومن صمم العين لا بد أن يعرف قوانين الضوء؟.

هل إيجاد الإنسان الحي الكامل بكل ما فيه من عجائب صدفة وبلا قصد فاعل مريد أيسر؟ أم إيجاد صنم على شكل إنسان؟!، حتى يقف بعضهم هذا الموقف المتهافت في الاعتراف بوجود يد فاعل نحتت التماثيل المكتشفة من قبل رجال الآثار، وعدم الاعتراف بوجود يد فاعل حكيم خلقت الإنسان وكل ما في هذه الكون؟.

هب أن إنساناً رأى مصنعاً ضخماً في أرض مقفرة يقوم بتفاعلات نووية وكيميائية معقدة، ويُسيّر بعقول إلكترونية بحيث يؤدي أعمالاً غائية بالغة التعقيد؛ فقال: هذا المصنع الضخم لم تصممه يد مبدعة لأني لم أرها، وإنما تكوّن صدفةً عبر آلاف السنين نتيجة عمل الظواهر الجوية والأرضية من عواصف وزلازل وبراكين؟

هل تصدق قوله هذا أم تعتبره هذياناً بارداً لا يستحق النظر؟

إن كنت تستنكر قوله هذا فيجب أن تستنكر وبشكل أشد قول من يزعم أن الأحياء وكل ما في الكون وُجد بلا قصد فاعل حكيم، لأن الكائن الحي في أبسط

مظاهره أعقد من المصنع الذي ضربنا به المثل، فالبشر بكل تقنياتهم وعلومهم لم يتمكنوا من صنع خلية حية واحدة، في حين أنهم قادرون على صنع المصنع الذي ضربنا به المثل.

ومن المعروف أن الأرض كانت ولا حياة عليها، فكيف ظهرت الأحياء الأولى بدءاً من المادة الجامدة؟

هل يمكن أن يحدث شيء صدفة ويعجز الوعي الإنساني بكل تقنياته وعلومه عن صنع مثله؟

إن الذي يكابر وينفي أن تكون المادة قد تنظمت بقدرة إله حكيم يضطره مذهبه إلى التنكّر لما قرره الفيزيائيون من أن العمليات الطبيعية تزداد فيها العشوائية والبعثرة ولا تنتج نظاماً.

ويضطره مذهبه إلى القول بادعاءات ومكابرات يعلم كل عاقل بطلانها، وإنك لتجد كثيرين ممن يستكبرون عن الاعتراف بوجود الخالق، يقولون الطبيعة صنعت كذا لأجل كذا. نقول: وماذا تعني كلمة الطبيعة في توظيفكم الجديد لهذه الكلمة إلا الذات المدبّرة الحكيمة المعتنية بشأن مخلوقاتها؟

إنَّ الملحدَ بقوله هذا لم يصنع شيئاً سوى الهروب من لفظ إلى لفظ، تكبَّر عن أن يقول الله خلق ودبَّر، فقال: الطبيعة وهبت ودبّرت، وفي ذلك إدانة صريحة له إذ اعترف رغماً عنه بوجود قاصد مدبِّر.

* * *

دليل ظهور الحياة في المادة

ركّزنا ـ فيما سبق ـ النظر على التنظيم في الكون سواء الذي تتمتع به الكائنات الحية أم غيرها، والآن نبحث في السمات الأساسية التي يفترق بها الكائن الحي عن المادة غير الحية، ونناقش السؤال التالي: هل يمكن أن تنتج الحياة وخواصها من جراء ترتيب جزيئات المادة على نحو معين؟ وهل يمكن أن تنبثق الحياة بخواصها من المادة تلقائياً؟

من المعروف أن الكائن الحي يتمتع بمجموعة صفات تجعله مختلفاً عن المادة غير الحية، من أبرزها الإحساس والوعي والإرادة الحرة. ومن المعروف والمقرر في علم الجيولوجيا أن الأرض كانت ولا حياة عليها ثم ظهرت الحياة عليها.

وقد أظهر العالم (باستور) أن المادة الحية لا يمكن أن تنتج إلا من مادة حية سابقة، ولا تتولد من مادة جامدة، وقد بُذلت جهود مكثفة لإنتاج خلية حية واحدة بدءاً من مادة جامدة، لكن جميع هذه الجهود قد باءت بالفشل وثبت ما قاله (باستور) كحقيقة علمية.

وقد أعلن العالم الروسي(أوبارين) بعد أن ظل يبحث (37) عاماً في أصل الحياة أعلن عام 1959 ـ كما نقلت وكالة الأنباء تاس ـ أن الحياة لا يمكن أن تبدأ من العدم أو تتولد من تفاعل كيميائي. وقد حاول العالم (ويلدر بنفيلد) الذي ظل يبحث على مدى خمسين عاماً في دراسة الدماغ والأعصاب حاول أن يفسر ترابط العقل بالدماغ، وأجرى تجارب على أكثر من ألف شخص وهم في حالة وعيهم التام، حتى أصدر كتابه (لغز العقل) عام 1975 وفيه يقول: «إنَّ العقل لا الدماغ هو الذي يراقب ويوجّه في آن معاً. . . إن ما تعلمنا أن نسميه العقل هو الذي يركز الانتباه فيما يبدو، والعقل هو الذي يعي ما يدور حوله، وهو الذي يفهم ويتصرف كما لو أن له طاقة خاصة به، وهو يستطيع أن يتخذ القرارات وينفذها مستعيناً

بمختلف آليات الدماغ، ويبدو من المؤكد أن تفسير العقل على أساس النشاط العصبي داخل الدماغ سيظل أمراً مستحيلاً كل الاستحالة. . وأقرب إلى المنطق أن العقل ربما كان جوهرياً مختلفاً عن الجسم، يا له من أمر مثير أن نكتشف أن العلم يستطيع بدوره أن يؤمن عن حق بوجود الروح»[1].

ومن الجدير بالذكر أن (نبفيلد) حاول عبثاً أن يكتشف منطقة الوعي والإرادة في المخ من خلال مسح الخارطة لجغرافية للمخ عن طريق التجارب الكثيرة التي أجراها، لكنه عجز عن الاهتداء إلى مكان يمكن تسميته الوعي والإدراك أو الإرادة، مما يؤكد أن ما يعي نفسه ويقول أنا، ويختار ما يريد ليس مجرد مادة.

وهب أنك حُدِّثت عن حاسوب إلكتروني عند بلوغ التنظيم المادي فيه درجة معينة انقلب كائناً حياً يعي ذاته، ويحس ويفرح ويتألم، هل تصدق بهذا؟ بل هذا خرافة باردة والعقلاء جميعاً يعلمون أن المادة مهما تقلبت ذراتها وترابطت كهربائياً فلن تظهر فيها الحياة وخواصها أبداً.

وإننا لنلاحظ فروقاً جوهرية وعميقة بين الكائن الحي والمادة غير الحية، فالمادة منفعلة بطبيعتها لا يصدر منها حركة إلا بسبب فاعل مؤثر يوجب عليها الحركة حسب قوانين التحريك بالضرورة؛ ومهما تعقد تركيب المادة فإنها تبقى محافظة على هذه السمة الأساسية لها. أما الكائن الحي كالإنسان فإنه لا يحتاج إلى هذا المحرك الضروري الذي يوجب عليه الحركة، وينبغي أن نميز بين سبب فاعل مؤثر وسبب داع إلى الفعل يروم الكائن الحي تحقيقه من وراء فعله؛ والإنسان لا يحتاج إلى سبب فاعل كي تصدر منه حركة.

هذا في الواقع تمرّد على قوانين المادة.

هذا التمرد يعني بوضوح أن الكائن الحي ليس مجرد مادة تنظّمت جزيئاتها، والحياة ليست ثمرة من ثمار تنظيم الذرات المادية.

ولو سُئل الإنسان من فعل كذا وكذا سيقول أنا.

هذه الـ(أنا) التي تُظهر وعي الذات شيء مميز للأحياء فحسب، هذه (الأنا)

---

(1) انظر كتاب (لغز العقل)، ص25، لويلدر بنفيلد.

لا تخضع لقوانين المادة كما أوضحنا، وخصائصها كالوعي والعواطف ليست خصائص مادية.

هذه (الأنا) ـ وكما يعلم المرء من نفسه ـ لا تتغير في الإنسان مع تغير ذرات جسمه وتجددها مع الزمن، وما ذاك إلا لأنها ليست من منتوج المادة.

فإن آمنا بأن الأرض كانت ولا حياة عليها، ثم ظهرت الأحياء عليها كما هو ثابت علمياً. وإن آمنا أنه لا يمكن أن يحدث شيء صدفة يعجز الوعي البشري عن صنع مثله، وهو ظهور الأحياء من المادة غير الحية، فماذا يبقى لدينا إلا الإيمان بوجود الخالق القدير الذي أوجد المخلوقات وقذف فيها سر الحياة، فظهرت الحياة على الأرض بعدما كانت خالية منها؟.

وهو الذي خلق فينا الوعي والعقل والأنا، وذلك ليس من معطيات المادة الصماء.

أيصح عقلاً أن عقلاً مبدعاً ... قد أوجدته طبيعة عمياء[1]

* * *

(1) يذكر بعضهم تجربة قام بها العالم الروسي (أوبارين) يزعمون أنها حلّت لغز الحياة، وهي أنه وضع في أنبوب اختبار المواد التي كان يظن وجودها على الأرض، وعرّضها لومضات البرق مقلّداً بزعمه الشروط الطبيعية فوجد فيها حموضاً أمينية وهي الوحدات البنائية للبروتينات. أقول: نحن لا نعجب كثيراً لنتيجة هذه التجربة التي تخدع أنصاف المثقفين، فالذين قاموا بها نظروا مم تتكون البروتينات، فوضعوا مكوناتها في أنبوب اختبار وأعطوها القدرة اللازمة للتفاعل عن طريق ومضات البرق، فتفاعلت، وهذا شيء طبيعي، ولكن أين الخلية الحية التي تقوم بالتكاثر والحركة الدؤوبة من الحموض الأمينية التي هي مادة كيميائية يمكن تحضيرها مخبرياً بسهولة؟. وكيف يقال إن (أوبارين) حل لغز الحياة، وهو يعلن فشله الذريع في هذا المضمار كما نقلنا عنه؟!.

- 4 -

نهاية المطاف

بعد ذِكْرِنا للأدلة السابقة على وجوده سبحانه. . يحسن بنا أن نجيب على التساؤلات والإشكالات التي يطرحها المخالفون:

سؤال: يقرر كثير من الفلاسفة أنه لا يأتي شيء من لا شيء، وقد وَجد العالم الكيميائي (لافوازيه) أنه لا شيء يفنى ولا شيء يُخلق من العدم. فكيف نؤمن بأن المادة قد خُلقت من العدم؟.

الجواب: إن القاعدة القائلة: «لا يأتي شيء من لا شيء» قد أُخذت من استقراء الواقع المادي، وتأثير الماديات على بعضها، فلا يجوز أن ينقل تطبيق هذه القاعدة الاستقرائية إلى غير المجال الذي أُخذت منه، ولا يصح جعلها حاكمة على قدرة الله تعالى لأنها قدرة غير مادية.

وطالما برهنا على حدوث المادة واحتياجها لخالق، فلا يصح أن يُعترض علينا باستقراء ناقص لا دليل على تعميمه.

ثم إن العالم الكيميائي (لافوازيه) قد قاس كتلة المواد المتفاعلة قبل التفاعل وبعده فوجدهما متساويين، فقال: لا شيء يفنى ولا شيء يُخلق من العدم قبل التفاعل الكيميائي وبعده.

وهذه نتيجة صحيحة في مثل شروط التجربة، لكن تجربة (لافوازيه) الاستقرائية ليس من شأنها تقييد قدرة الخالق تعالى ولا الحديث عن أصل الكون، ولم يُرد لها لافوازيه ذلك.

سؤال: يرى الماركسيون أن مصدر التطور موجود في المادة نفسها، لذلك هي لا تحتاج إلى خالق، وهي تتطور نحو الأفضل دائماً؛ فحبة الحنطة تعطي سنبلة وهي أغنى وأفضل من الحبة المفردة، وكذلك المادة في سائر أوضاعها. فما الجواب على ذلك؟.

الجواب: المادة العشوائية لا تتطور تلقائياً وتنتظم نحو الأفضل، ولا تسعى تلقائياً إلى تحقيق نظام هادف معقّد؛ وإنَّ علم الترموديناميك بمبادئه الثابتة نصَّ على أنَّ العمليات الطبيعية تزداد فيها العشوائية ولا تنتج نظاماً.

أما إعطاء حبة الحنطة سنبلة فلأنها قد صممت مسبقاً لتحقيق هذا الهدف من قبل الإرادة الخالقة، لا لأن المادة تلقائياً تسعى نحو التطور نحو الأفضل.

وإذا كانت الظاهرة الكونية تحتمل تفسيراً غير تفسير الذي يستشهد بها، فإنها والحالة هذه يسقط الاستدلال بها.

وما مثل الملحد إلا مثل رجل ادّعى أن الحرارة في الغرفة لا تميل نحو التجانس، واستدلّ على ذلك بأن داخل البراد أبرد من غيره، ونسي أن البراد مصمم لهذا الغرض، وليس ما يصنعه البراد هو ما تميل إليه الحرارة تلقائياً.

وإذا أراد الماركسيون أن يبرهنوا فعلاً أن المادة تنتظم من تلقاء نفسها فليرونا مادة عشوائية في الأصل وهي تنتظم تلقائياً وتشكل نظاماً متكاملاً هادفاً!!.

إنهم لا يملكون مثالاً واحداً لما يدعون فضلاً عن التعميم الذي يقولون به، نعم قد تسعى المادة إلى وضع أكثر استقراراً، ولكنها لا تسعى لوضع أكثر نظاماً وأعقد تركيباً.. وبين التعبيرين فرق كبير.

سؤال: ما هو الجواب على مثل كلام (صادق العظم) في كتابه (نقد الفكر الديني) حيث يقول: «في الواقع علينا أن نعترف بكل تواضع بجهلنا لكل ما يتعلق بمشكلة المصدر الأول للكون، وعندما تقول لي: إن الله هو علة وجود المادة الأولى التي يتألف منها الكون وأسألك بدوري: وما علة وجود الله. إن أقصى ما تستطيع الإجابة به لا أعرف إلا أن وجود الله غير معلول. ومن جهة أخرى عندما تسألني: وما علة وجود المادة الأولى فإن أقصى ما أستطيع الإجابة به لا أعرف إلا أنها غير معلولة الوجود. في نهاية الأمر اعترف كل منا بجهله حيال المصدر الأول للأشياء، ولكنك اعترفت بعدي بخطوة واحدة وأدخلت عناصر غيبية لا لزوم لها لحل المشكلة».

الجواب: نحن لا نبني مذهبنا على الجهل كما يدّعي الكاتب، ولا نشاركه

في جهله الذي يعترف به، ولم نقبل اعتباطاً أو تحكماً بقدم الخالق تعالى وأزليّته دون المادة، بل وقفنا هذا الموقف لأن المادة تحمل معها مظاهر الحدوث والاحتياج للغير، فقيام الصور المتلاحقة بها يوجب أن يكون لها صورة أولى، أي يوجب أن تكون محدثة، كما أن المادة الجامدة لا يمكن أن يسند لها فعلاً تنظيمياً هادفاً واعياً يعجز الوعي البشري عن صنع مثله كتنظيمها في الأحياء، كما أن الإيمان بأزلية المادة لا يفسر ظاهرة الحياة الحادثة على ظهر الأرض.

من جهة أخرى فالذي يسوغ أن يكون أزلياً وغير محتاج إلى سبب موجِد هو ما كان قائماً بنفسه القيام الكامل ومستغنياً عن غيره، لأن التعليل احتياج إلى الغير.

وليست المادة هي المستغنية عن التعليل، فخضوعها لقانون العلية أمر مشاهد، وهي ـ أي المادة ـ أحوج إلى التعليل من صاحب الوجود العاقل كالإنسان، ألا ترى أن ظاهرة تحرك الإنسان من قلب السكون لا تحتاج إلى تعليل خارجي بخلاف المادة التي تحركها من قلب السكون يحتاج إلى تعليل وسبب خارجي.

وما ذاك إلا لأن الوجود العاقل أكثر قياماً بنفسه وأكثر استغناءً عن التعليل من المادة الجامدة.

فكيف إذا كان الوجود العاقل وجود من له صفات الألوهية وقدرة الألوهية؟ ألا يكون أكثر قياماً بنفسه من الإنسان العاقل وأبعد عن الاحتياج إلى التعليل منه؟ ومن باب أولى أبعد عن الاحتياج إلى التعليل في ظاهرة وجوده من المادة الصماء؟.

من كل ما سبق تجد أن القول بقدم الخالق تعالى لا يكافئ بوجه من الوجوه القول بقدم المادة.

هذا وقد ذكرنا سابقاً أن مجال تطبيق قانون العلية هو على المحدَثات وليس على كل موجود، لأن هذا القانون يقول: لكل فعل فاعل، ومن هو موجود من الأصل لم يوجد بفعل، وبالتالي لا يصح أن يطبق عليه هذا القانون.

وقد ذكرنا سابقاً أيضاً أنه لا يمكن أن يكون قد سبق هذا الوجود عدم مطلق ليس فيه خالق أو مخلوق أو أي شيء آخر، لأن العدم المطلق يبقى عدماً مطلقاً،

إذن فالأصل هو الوجود، وصاحب هذا الوجود الأصلي غير معلول الوجود، لأنه لو كـان معلولاً لكان محدَثـاً، ولم يكن وجوده هو الأصل. وطالما أن المادة مبرهَن على حدوثها واحتياجها إلى غيرها فليست هي أصل الوجود، إنما أصل الوجود خالقها، والأصل طالما هو الأصل لا يصح أن يقال: من أين أتى؟.

وقد يقول قائل: لماذا الخالق موجود؟ أقول: هذا سؤال لا يرد طالما هو غير معلول الوجود. وكما أن ما أصله العدم لا يصح أن نسأل عنه لماذا هو معدوم لأن هذا السؤال لا يرد إلا على افتراض أن أصله الوجود، فكذلك ما أصله الوجود لا يصح أن نسأل عنه لماذا هو موجود، لأن هذا السؤال لا يرد إلا على افتراض أن أصله العدم وهذا افتراض باطل.

وبعد:

بعد كل هذا الذي قدّمناه من الأدلة الصحيحة على وجوده سبحانه، وبعد أن أجبنا على اعتراضات خصومنا يحق لنا أن نقرر بحق أن وجوده سبحانه حقيقة علميـة، هـذه الحقيقـة لا يغـض منهـا جهـل الجـاهليـن أو تعسـف المنكـريـن المغرضين.

وبالمقابل لم نجد الملحدين قد برهنوا على ما يدَّعونه من نفي وجوده تعالى، ولا قدّموا تفسيراً لظاهرة وجود المادة أو ظاهرة الحياة، ولم يهدموا الأدلة التي سقناها. كل ذلك يجعلنا لا نقيم لمذهبهم وزناً.

ثم إن الإيمان بالخالق تعالى أمرٌ فطري، وهو أوضح في ذهن الإنسـان البريء عن الأغراض الفاسدة من كل وضوح، وأحق من كل حقيقة، والناس على اختلاف مستوياتهم الفكرية يجدون ضرورة الإيمان بهذه الحقيقة، ويلمسها الإنسان بقلبه ووجدانه، فالخالق تعالى فطر قلب الإنسان على معرفة خالقه، لذلك فالإنسان يبحث بفطرته عن صاحب الكمال والجلال الجدير بأن يُخضع له ويُعبد. والذي تهدأ نفسه في مناجاته وتنزيهه، وليس أدل على أن الإيمان فطري في النفس الإنسـانية من أن المرء يلتجئ إلى خالقـه ضارعاً عندما تطبق عليـه الشدائد، كيفما كان حاله معه قبل ذلك، وكلٌّ منا يعرف أمثلة واقعية على ذلك لمسها في حياته.

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة في آيات كريمة منها قوله: ﴿ وَإِذَا

﴿غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [لقمان: 32]، وإن المؤمن الملتجئ إلى ربه تعالى ليشعر برعاية خالقه له وإجاباته لدعائه، فيعيش في كنف خالقه هادئ النفس، يجد حلاوة الإيمان والأنس ورواء القلب في معرفة خالقه ومناجاته وعبادته.

أما الجاحد فيشعر بأنه غريب في هذا الوجود ولا يعرف لحياته معنى، يجد نفسه قلقاً متشائماً لا يدري لماذا!!.

يشعر بأنه فاقد لشيء عزيز ثمين لا يدري ما هو!.

ولم يخلق الإنسان كذلك، بل هذا أمر جرّه الجاحد لنفسه بيده، والله تعالى يقول: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طـه: 124-126].

* * *

الباب الثالث

صفات الله تعالى

﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾

[الشورى: 11]

تمهيد

يعتمد بحثنا في صفات الخالق جلَّ وعلا على صحة نبوّة محمد ﷺ وصحة كون القرآن الذي جاء به من عند الله تعالى حقاً، ولقد كان التسلسل الموضوعي يقتضي أن نبحث الصفات الإلـٰهية المعتمدة في بحثنا على القرآن بعد بحث ظاهرة الوحي وإثباتها، ولكن آثرنا بحثها هنا لأن موضعها أنسب بعد إثبات وجود الله سبحانه.

بكلمة موجزة نقول: يتصف الله تعالى بالكمالات، ويتنزّه عن جميع النقائص، لذا يمكن أن نقسِّم الصفات إلى تنزيهية ومعناها نفي النقائص عنه وتنزيهه عما لا يليق به، وصفات ثبوتية أثبتها لنفسه في كتابه المنزَل وهو بها متصف بالكمالات.

الصفات التنزيهية

1 - الوحدانية: ومعناها أنه سبحانه واحد أحد منزَّه عن الشريك في ألوهيته وملكه وصفاته.

وقد استفاض القرآن الكريم في إثبات هذه الصفة له سبحانه، وكانت الشهادة بوحدانيته أحد شطري العبارة التي تكون عنوان الدخول في الإسلام، هذه العبارة هي: «أشهد أن لا إلـه إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله».

في هذه العبارة أُطلقت كلمة الله على الخالق المعبود بحق، واستعملت كلمة الإلـه على المعبود أياً كان، فكلمة «لا إلـه» نفي لألوهية كل معبود في الوجود وإبطال لعبادته. وكلمة «إلا الله» استثناء للخالق المعبود بحق وإثبات لألوهيته وحده.

وقد ذكر القرآن الكريم أدلّة على التوحيد تخاطب الفكر والوجدان وتقنعهما بأحقيته، مع ابتعاد البيان القرآني عن التعقيد الفلسفي وعدم الوضوح.

قال سبحانه: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ۝٢١ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء: 21-22].

وقال سبحانه: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [المؤمنون: 91]، فلو كان هنالك أكثر من إلـه لاختلفت إراداتهم ومشيئاتهم، ولاختلفت أفعالهم تبعاً لذلك، ويبدو طبيعياً أن يحابي كل منهم مخلوقاته فيختل نظام الكون ويفسد، ولكنا نجد الكون مسيَّراً على سنن واحدة تحقق توازناً حكيماً لا فساد فيه؛ ونجد تماثل التكوين في المخلوقات وأرجاء الكون، وكل ذلك يدلّ على أن الإرادة الحاكمة في الكون إرادة إلـه واحد لا ينازعه أحد في ألوهيته.

وقد استدلّ المتكلّمون على وحدانيته بأنه لو كان هنالك إلـهان؛ فإما أن يستطيع أحدهما أن يزيل ما صنعه الآخر رغماً عنه، أو لا يستطيع، فإن استطاع كان الأول عاجزاً، وإن لم يستطع كان هو عاجزاً، وما الإلـه بعاجز.

وقال الله تعالى: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْاْ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ۝٤٢ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء: 42-43].

هذه الآية الكريمة تظهر مدى ما يترتب على القول بالإشراك من فساد، فلو كان هنالك إلـه آخر لرغب العصاة في الخروج من سلطة إلـههم ومخالفة إرادته لما يريدون هم، عن طريق الالتجاء للإلـه الآخر والاحتماء به، فالإشراك يلزم عنه إمكان تمرّد المخلوقات على إلـهها ومنازعته سلطانه المطلق، سبحانه وتعالى عن هذا المقام.

ونحن نجد القرآن الكريم يلتزم بعد ذكر المسيح عليه السلام أن يقول ابن مريم، ولا يلتزم مثل ذلك عند ذكر غيره، وذلك تنبيهاً على نسبه البشري ليقول: إن من جاء من نسل البشر ولد من حيث يولدون لا يكون إلـهاً.

وقال سبحانه: ﴿ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [المائدة: 75].

فالكتاب العزيز يلفت نظر النصارى إلى حقيقة لا ينكرونها وهي (أن المسيح عليه السلام وأمه كانا يأكلان الطعام، ومن كان يحتاج إلى تغذية ويطرح

الفضلات لا يليق به أن يكون إلـهاً).

ولقد كان المسيح عليه السلام يصوم ويصلي كما تذكر عنه الأناجيل، وهذا لا خلاف فيه، فلمن كان يصوم ويصلي؟ إن الإلـه يُعبَد ولا يَعبد، وكل من يعبد غيره فهو عبد وهو مربوب.

وقال الله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾ [الزخرف: 15].

فأنكر سبحانه قول من يزعم لله الولد، لأن الولد جزء من أبيه، ومن يلد ابناً فيه جزء من ذاته فهو من جنس المخلوقات المركَّبة المحتاجة إلى مركِّب، ويتنزَّه الخالق عن ذلك كلّه.

2 - القِدَم والبقاء: ومعناهما أنَّ الله تعالى موجود من الأزل لم يسبق وجوده عدم، ولن يلحق وجوده فناء، فهو موجود بلا بداية باقٍ بلا نهاية. قال جلَّ شأنه: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: 3].

وقد سبق وذكرنا الدليل العقلي على أنه سبحانه لا يمكن أن يكون مُحدَثاً إذ لو كان محدَثاً لكان معنى ذلك تقدم العدم المطلق على سائر الموجودات، وهذا مستحيل؛ لأن العدم يبقى عدماً ولا ينبثق منه الوجود.

3 - المخالفة للحوادث: ومعنى ذلك أنه سبحانه متنزّه عن مماثلة سائر المخلوقات ومتسامٍ عن طبيعتها وأحوالها، ولا يجري عليه شيء من أمارات الحدوث أو الاحتياج للغير.

دليل ذلك قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: 11]. وقوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: 4]. وقوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: 103].

ودليل ذلك من العقل أنه لو كان مماثلاً للمخلوقات في طبيعته وأحواله لوجب أن يكون مُحدَثاً مثلها، لأن العقل يعطي الشيئين المتماثلين حكماً واحداً.

فهو سبحانه لا يشابهه أيٌّ من مخلوقاته، وهو مترفّع عن طبيعة المخلوقات وأحوالها، لا صاحبة له ولا ولد، ولم يتأت عن أصل أو يولد من شيء، ولا يشغله

شيء عن شيء، ولا ينام ولا يسهو، ولا تتوارد عليه الخواطر والانفعالات النفسية المختلفة التي تطرأ على البشر[1]، وليس كالأجسام، ولا تحتويه الظنون والأوهام[2].

4 - **الصمدية**: ومعناها أنَّه سبحانه مُستغنٍ عن كل ما سواه، وغيره مفتقر إليه؛ قال سبحانه عن نفسه: ﴿ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ [الإخلاص: 2] أي الذي يحتاجه ويلتجئ إليه كل شيء وهو لا يحتاج إلى شيء، وهو الملاذ لكل مخلوقاته، فهي تلتجئ إليه وهو يبرّها ويرحمها.

وقال تعالى عن نفسه: ﴿ ۞ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾ [النور: 35]، ويعني ذلك أنه هو صاحب الحقيقة الساطعة الكبرى في هذا الوجود، وهو من تتطلع إليه الكائنات وتهفو إليه، وهو مصدر كل خير وهداية، ولولا رحمته لعمّ ظلام تيهٍ وعماء.

* * *

(1) يمكن أن يحب الله بعض عباده الطائعين، لكن محبته لهم ليست انفعالاً نفسياً كمحبة البشر.

(2) أي كيفما تصورت الله تعالى فهو بخلاف ذلك.

الصفات الثبوتية

1 - العلم: صفة أزلية لله تعالى، تعني كشف جميع الأمور والإحاطة بها إحاطة كاملة، سواء كانت في الماضي أم الحاضر أم المستقبل، ولم تسبق معرفته جهل، ولا يعدو عليها نسيان.

عليم بكل الأمور دقيقها وجليلها، ظاهرها وباطنها، شاهدها ومغيبها. قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: 75] وحقيق بالله تعالى الذي أبدع الأشياء أن يعلم أسرارها وخفاياها؛ قال جلَّ شأنه: ﴿وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝١٣ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: 13-14]، وقال سبحانه: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [البقرة: 255].

وبيَّن سبحانه شمول علمه بآيات تشعر بجلال الله وعظمة الربوبية فقال سبحانه: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ۝٨ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ۝٩ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾ [الرعد: 8-10].

وقال جلَّ وعلا: ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: 59]؛ فالعقيدة الإسلامية ليست كعقيدة بعض الفلاسفة الذين تصوروا أن الخالق قد خلق العالم ثم تركه وعزف عنه، ولا كعقيدة الذين تصوروا أنَّ اللهَ يعلم جلائل الأمور دون التافهة والصغيرة، لعدم انشغاله بها، بل هو سبحانه عليم بكل الأمور ولا تشغله معرفة عن معرفة وشأن عن شأن.

2 - القدرة: إن كل ما في هذا الكون أثر من آثار قدرة الله سبحانه، وهو القادر على كل شيء كما وصف نفسه، قال تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الملك: 1]، وقال سبحانه: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الأنعام: 102].

ما أحرى الإنسان وهو يقلب طرفه ولبه في آفاق الكون وملكوت السماوات والأرض أن يستحضر قدرة الله تعالى التي أبدعت كل هذا، ويقف بخضوع وخشوع أمام عظَمة وجلال هذا الإلـه.

إذا وقف يتفكر في تلك النجوم العملاقة التي في طور الانفجار، والتي تدفع في كل ثانية بملايين الأطنان من اللهب، وفي الثقوب السوداء ذات الجاذبية الهائلة التي لو وضعت الأرض فيها لضغطتها حتى أحالتها بحجم الكمثرى، إذا تفكر في ذلك فليستحضر قدرة الخالق تعالى القاهر فوقها الذي ينقاد كل شيء لما يريد، والذي خلقها وكل ما في هذا الكون.

وهو الذي على عظمته وجلاله قريب من عباده مجيب لدعائهم، إذا دعاه عبده المطيع؛ قال: لبيك عبدي.

قال جلَّ شأنه: ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴾ [الأنعام: 17 - 18](1).

3 - الإرادة: لا يجري شيء في ملكوت الله تعالى إلا إذا أراده سبحانه، فإرادته مهيمنة على كل شيء، وهذا ما تقتضيه عظمة الربوبية، قال سبحانه عن نفسه: ﴿ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ [البروج: 16]. ولو لم يكن كل شيء يجري بإرادته لكان يجري رغماً عنه، وهذا مستحيل.

وعلينا أن نعلم أنه لا يمكن أن يقدِّر الله تعالى أمراً على وجه ما ثم يغيّر هذا

---

(1) هنالك ما يطلق عليه اسم المستحيلات العقلية مثل أن يكون شيء موجوداً ومعدوماً بآن واحد، ومثل ذلك لا تتعلق به قدرة الخالق تعالى، ولا يخالف ذلك أنه على كل شيء قدير، لأن هذه المستحيلات ليست بشيء عند التحقيق؛ فالعدم من أصل معناه أن لا وجود، فاجتماعه مع الوجود تناقض في أصل التعريف، وما لا يمكن تعريفه لا يسمى شيئاً.
ويسأل بعض المغالطين أسئلة تتضمن الاستفسار عن إمكانية تحقيق مستحيلات عقلية بقدرة الخالق، كقولهم: هل يستطيع الله أن يخلق إلـهاً مثلـه؟ أقول: إن الخالق غير مخلوق فمعنى السؤال إذن هل يمكن لمخلوق من مخلوقات الله أن لا يكون مخلوقاً؟ وهذا ظاهر التناقض والفساد.

التقدير ويجريه على وجه آخر، لأن ذلك يقتضي أنه لم يكن يعلم بأنه سيغيره عندما قدّره أول مرة وهذا ممتنع في حقه سبحانه وتعالى.

4 - **السمع والبصر**: قال تعالى عن نفسه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ فهو جلّ شأنه بصير بكل الأشياء، وسميع لكل الأصوات، لا يعزب عنه شيء منها، وليس سمعه وبصره محدداً كسمع المخلوقات وبصرها، ولا هو على كيفيتها، بل هو سبحانه سميع بصير بلا مشابهة لأحد من المخلوقات في سمعها وبصرها، وهذا هو الذي تقتضيه عظمة الربوبية، لأن الذي لا يملك سمعاً ولا بصراً أقل من المخلوقات، وقد ذكر سبحانه أن إبراهيم عليه السلام حاجَّ والده في عبادة الأصنام بقوله: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ [مريم: 42].

ما أحرى المؤمن الذي آمن بالإلـه الحق السميع البصير أن يذكر دائماً أن بارئه مطّلع عليه يراه ويسمع لأقواله فيحسن في عبادته وتصرفاته كما قال المصطفى ﷺ: «الإحسان أن تعبد اللهَ كأنَّكَ تراهُ، فإن لم تكُنْ تراهُ فإنَّه يَراكَ».

وما أحسن حال المؤمن الذي يفوِّض أمره ويتوكَّل على الإلـه الحق القدير الرحيم الذي يراه ويكلؤه بعنايته، قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الشعراء: 217-220].

5 - **الكلام**: يمكن أن يطلق الكلام لغة على أكثر من معنى، فقد نطلقه ونريد به الصفة القائمة بذات المتكلم والتي بها يعبّر عن مراداته عند مخاطبة الآخرين، والتي لأجلها يسمى متكلّماً ومتميّزاً عن البكم.

بعد هذا الإيضاح نقول: ثبت في الكتاب العزيز أنَّ اللهَ تبارك وتعالى علَّم بعض عباده فقال سبحانه: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: 164]. فالكلام بالمعنى الذي ذكرناه ـ ويمكن أن نسميه التكلم ـ صفة من صفات الله هو بها آمرٌ وناهٍ ومخبِر، وبها تأتى لفظ القرآن الكريم والكتب السماوية الأخرى من عنده.

وتكليم الله تعالى لا يشبه تكليم البشر، ولا له لوازمه، والله تعالى لا يعجزه

أن يُوصِل خطابه إلى عباده من غير أن يشابه خلقه في كلامهم[1] قال سبحانه: ﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴾[الشورى: 51].

وقد أظهر سبحانه إسفاف عبادة الأصنام بقوله: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [النحل: 76]، فالأبكم الذي لا يقدر على شيء هو مثال للصنم، والذي يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم هو مثلٌ لله تعالى الذي أنزل رسالات الهدى والخير على عباده.

والقرآن الكريم آخر الكتب السماوية وهو اللفظ المنزل من الله تعالى على نبيّه ﷺ بوساطة الملاك جبريل عليه السلام، الذي نزل حاملاً معه الألفاظ القرآنية الصادرة عن الله تعالى، ولا يمتنع حدوث مثل ذلك.

إن هذا التنزيل للقرآن الكريم لا يُسمى خلقاً، لذلك لا يصح أن نصف القرآن الكريم بأنه مخلوق، ولم يصفه الرسول ﷺ بذلك، قال تعالى: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴾ [الرحمن: 1-4]، ففرق جلّ وعلا بين ما هو مُعلَّم وما هو مخلوق.

كما أنَّ الله تعالى لم يؤتِ نبيّه عندما آتاه القرآن الكريم صفة من الصفات القائمة بذاته، تعالى وتنزَّه عن ذلك، لأن صفات الذات قائمة بالذات، لا تقوم بغيرها ولا تنزل على أحد من البشر.

ثم إن القرآن الكريم له حقيقة واحدة لا أكثر، ونحن لا نعرف ـ وما كان الصحابة يعرفون ـ شيئاً اسمه القرآن غير الذي أنزله الله على رسوله.

6 - الحياة: إن الله سبحانه وتعالى هو واهب الحياة لكل الأحياء فيتحتم عقلاً أن يكون متصفاً بأكمل حياة، ولا يمكن أن يتصف بصفات الكمال السابقة

---

(1) يكفي لصحة نسبة الكلام إلى المتكلِّم أن تكون صياغة العبارة من ذلك المتكلِّم ويكون هو قد أراد أن يرسلها باسمه، ألا ترى أنك يمكن أن تكتب رسالة على أنها كلامك، وتكتب رسالة لرجلٍ أميٍّ وفق ما يريد هو فينسب الكلام له لا إليك، فاختلف حكم نسبة الرسالتين مع أن كاتبهما واحد.

إلا الحي، وليست حياته سبحانه كحياة المخلوقات، فحياته أزلية خالدة لم يسبقها ولن يلحقها فناء ولا نعاس ولا نوم. قال سبحانه: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ ﴾ [البقرة: 255].

* * *

هذه الصفات التي ذكرناها هي مما جاء في التنزيل العزيز وقد وصف الله سبحانه أيضاً بالرحمة واللطف والعظمة والجلال، كما نسب لنفسه الاستواء على العرش وسنبحث في دلالة ذلك إن شاء الله لاحقاً[1].

* * *

(1) قد ابتكر المتكلمون خلافاً عجيباً عندما بحثوا هل الله تعالى عالم بعلم، قادر بقدرة، مريد بإرادة، باقٍ ببقاء... إلخ أم هو عالم بالذات، قادر بالذات، مريد بالذات... إلخ.
وهذا بحث عقيم جريء قاد إليه أن المتكلمين يحاكمون بعقولهم الألفاظ ولو لم يكن متصوراً لديهم خلافاً جوهرياً في المسائل المبحوثة، فلو سألنا: ما هو تعريف الشيء المتنازع في ثبوته؟.
لو سألنا ذلك لوجدنا أنهم لا يستطيعون تعريف وتحرير الشيء المتنازع في ثبوته، لذلك وجب أن ننبذ تلك السفسطات الكلامية جملة، وقولنا: الله يتصف بالقدرة لا يدل على أكثر من أنه سبحانه قادر.. وكذلك بقية الصفات، ولا ينبغي للعبد الذي يقف في مقام العبودية تجاوز هذه الحدود.
هذا ولا يمتنع أن نقول: الله ذو علم أو قدرة أو نقول إنه يتصف بكذا وكذا من الكمالات، لأنه سبحانه قال عن نفسه: ﴿ وَرَبُّكَ ٱلۡغَفُورُ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۖ ﴾ [الكهف: 58] ولا فرق بين إسناد صفة وأخرى. وجاء في الصحيح إقراره عليه السلام لمن قال عن سورة الإخلاص: «إنها صفة الرحمن».

القضاء والقدر

الإيمان بالقضاء والقدر من ضرورات الإيمان، وقد عدَّه الرسول ﷺ من أركان الإيمان في حديث جبريل المشهور. ومعنى الإيمان بالقضاء والقدر هو أن نعتقد أنَّ كل ما يجري في الكون فإنما يجري وفق تقديره سبحانه السابق، وطبقاً لعلمه المحيط بكل شيء، ولا يجري في ملكه إلا ما يشاء.

قال تعالى: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر: 49]، وقال سبحانه: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [الحديد: 22]، فالله تعالى يعلم ما سيكسب العباد قبل خلقهم، قال تعالى: ﴿ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [هود: 48].

فعلم الله سبحانه أنه سيخرج من أصلاب القوم الذين آمنوا مع نوح أقوام كفرة وأنه سيمتعهم ثم يمسهم العذاب الأليم.

هذا وقد أجرى سبحانه الأمور في هذه الحياة على سنن وقوانين معينة، وهذا من قضائه وقدره، ولكن ليس القضاء محكوماً ومشروطاً بتلك القوانين، لأن الله تعالى لا يحكمه شيء ولا يرد قضاءه شيء. قال سبحانه ردّاً على الذين زعموا أنهم لو لم يخرجوا من مدينتهم ما قُتلوا: ﴿ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ ﴾ [آل عمران: 154].

وعلينا أن نعلم أنه لا يمكن أن يقدِّر الله تعالى أمراً على وجهٍ ما ثم يغير هذا التقدير ويمضيه على وجهٍ آخر، لأن ذلك يعني أنه لم يكن يعلم بأنه سيغيّره لما قدَّره أول مرة، ويمتنع ذلك في حقه سبحانه.

ودعاء المؤمن يُستجاب حقيقة كما قال سبحانه: ﴿ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ ﴾ [غافر: 60]، ولايتعارض ذلك مع حتمية إبرام القضاء، لأن الله تعالى كان يعلم

عندما قدَّر الأمور في الغيب أنَّ عبده فلاناً سيدعوه فقضى قضاءً متضمناً للإجابة[1].

بعد هذا الذي ذكرناه يمكن أن يطرح علينا السؤال التالي: كيف يكون الإنسان أهلاً للثواب والعقاب في أفعاله مع أن الله سبحانه هو الذي قدَّرها عليه وأراد له هذا التصرّف؟

لنجيب على هذا السؤال نفصِّل القول في عدة مفاهيم كلاً على حده، ولا نخلط بينها دفعة واحدة تجنباً للوقوع في الخطأ.

أولاً: إن مفهوم الرضا بالنسبة لله تعالى غير مطابق لمفهوم الإرادة، فالله سبحانه لا يجري في ملكه إلا ما يشاء، قال سبحانه عن نفسه: ﴿ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ [البروج: 16]، وقال: ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [التكوير: 29].

فالله تعالى شاء أن يجعل الدنيا دار امتحان، يفتح المرء فيها عينيه ليرى فريقاً على الإيمان والهدى، وفريقاً على الكفر؛ فيختار هو ما يشاء. فالكافر الذي كفر أراد الله له ذلك لحكمة في الحياة، وإلا كان هذا الكافر قد كفر رغماً عنه.. وهذا مستحيل.

وقال تعالى عن نفسه: ﴿ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ﴾ [الزمر: 7]، فما يرضاه سبحانه إذن ليس هو عين ما يريده دائماً، ولو كان ما يرضاه هو عين ما يريده لوجب أن يؤمن جميع الناس لأنه أمرهم بالإيمان ورضيه لهم، ولا يمكن إلا أن تتحقق وتنفَّذ إرادته.

من كل ما سبق يتبين لنا بوضوح أن تعريف الإرادة لا ينطبق على تعريف الرضا بالنسبة لله تعالى، وما يريده هو عين ما يجري في الواقع، وما يرضاه هو عين ما يأمر به.

ثانياً: إن الله تعالى قد أودع في الإنسان ملكة اختيار وإرادة يختار بها الأشياء، ويشعر الإنسان بمظاهر الإرادة فيفرّق بوضوح بين الحركات القسرية كالارتجاف، والحركات التي يفعلها بإرادته كحركة أطرافه.

وإن كون ملكة الاختيار من خلق الله تعالى، لا يعني أن الإنسان مطبوع على

---

(1) الإجابة مرجوَّةُ الحصول من الله تعالى.

اختيار معين لا يتعداه، لأن الإنسان ليس كآلة وضعت لها برمجة إلكترونية معينة سارت حسبها، بل ركز في الإنسان نوازع الخير والشر معاً، قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: 7 - 10]، فنسبت الآية الكريمة تسوية النفس وركز نوازع الخير والشر فيها إلى الله تعالى، أما اختيار أحد السبيلين، التزكية أو ضد ذلك فنسب إلى الإنسان.

ولا يجوز لأحد أن يتجاهل أمر ما تميز به الإنسان من ملكة اختيار لا يدري أحد كنهها، ولا كيف يتم الاختيار بها، ولا كيف كان حالها يوم خلقها الله تعالى قبل اكتساب العبد، ثم يزعم أن الإنسان معذور في تصرفاته لكونه مخلوقاً!

إن مثل هذا الزعم يحتاج إلى معرفة غير حاصلة للإنسان، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا عندما أوضح أنَّ الجبرية[1] يحكمون على شيء يجهلون حقيقته فقال سبحانه: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: 148].

ثالثاً: إذا قيل: إن الله تعالى يعلم ما سيكسب العباد، وكل ما يجري في الكون فإنما يجري بتقديره سبحانه، وإن أراد الله لأمرٍ النفاذ نفذ وإن أراد له الامتناع امتنع. . فكيف يكون للإنسان اختيار مع الوجوب والامتناع؟

أقول: أمَّا عِلمُ الله تعالى بما سيكسب الإنسان، فذلك لا يعني الجبر؛ لأن العلم صفة كاشفة فقط. وأما أن الله تعالى قدَّر على العباد أفعالهم قبل أن يخلقهم فذلك لا يقتضي الجبر أيضاً؛ لأنه سبحانه يعلم ما سيختارون، وقدَّر عليهم أعمالاً متفقة مع رغباتهم الذاتية. وإنَّ كون الله تعالى قد أراد للعبد أن يتصرف تصرفاً معيناً لا يمنع أن يكون العبد قد أراد عين ذلك التصرف لنفسه، والله تعالى يحاسبه على تصرفه لأنه أراده لنفسه، لا لأن الله تعالى أراده له.

ويمكن أن نضرب لذلك مثالاً ـ ولله المثل الأعلى ـ بكاتب مسرحي يعرف ميول الممثلين الذين عنده، والأدوار التي يحبون أن يمثلوها، فكتب مسرحية

---

(1) الجبرية: يرون أن الإنسان مجبور في أفعاله لا اختيار له ولا قدرة كالريشة المعلقة في الهواء.

ما، ثم عرضها على الممثلين ووزع الأدوار فيها، فأعجبتهم وقبلوا أن يمثلوها، فأثناء عرض المسرحية يكون هذا الكاتب يعلم ما سيجري في المسرحية وتكون أحداثها قد جرت حسبما يريد هو وحسبما يريد الممثلون.

رابعاً: من الممكن أن يقذف الله تعالى في نفس الإنسان اختيار الإيمان، أو الاستزادة من الطاعات والمبرّات، ومن الممكن أن يجعل المستكبر عن عبادته ومن فرض على نفسه مسبقاً اتباع الأهواء وعدم الخضوع للحق الظاهر أمامه يزداد بعداً عن الإيمان وغلواً في الكفر.

دلَّ على هذا الذي ذكرناه آيات في كتاب الله تعالى، فمن ذلك قوله سبحانه: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: 146]، وقوله تعالى: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى﴾ [مريم: 76].

من خلال هذه الآيات الكريمة نعلم أن الله تعالى لا يصدّ أحداً عن أبواب الخير تعسفاً، ولا يمكن أن يريد العبد الإيمان والخير فيقهره على الكفر والشر.

ويتقرر لدينا أن العبد غير مسلوب الإرادة، كما أنه ليس مفوضاً التفويض الكامل، وإنما هو مفوضٌ بقَدْرٍ وعلى وجه يصح معه التكليف وينتفي الظلم، وتبقى إرادة الإنسان تحت سلطان الإرادة الإلـهية كما قال سبحانه: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: 29].

خامساً: قد يكون هنالك فعل هو خير في حقيقة أمره، لكنه شر بالنسبة لبعض الناس الذين يتضررون به، فالقصاص من القاتل خير في حقيقة أمره لأنه يسد باب الفساد في الأرض، وينتصف للمقتول المظلوم؛ لكن القصاص بالنسبة للقاتل شراً.

بعد هذا الإيضاح نقول: إن الله تعالى لا يصدر منه إلا خير ومن وراء فعله الحكمة دائماً، وقد يكون في بعض ما خلقه ضرر ما وإن كان قد خلق ذلك لحكمة؛ فيصح أن نقول: خلق الله الشرّ ويقصد خلقه لما يضر، قال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ [الفلق: 1 - 2]. لكن فعله هو خير في حقيقة أمره، لذا لا يصح أن يقال: فعل الله الشر فهو سبحانه لا يصدر منه إلا خير، وتتجلى دائماً الحكمة في أفعاله بأحسن صورها وأشكالها.

* * *

متشابه الكتاب والسنة

أوضح كتاب الله تعالى والسنّة النبوية أساسيات العقيدة الإسلامية التي يجب على المسلم اعتقادها بجلاءٍ كامل وبنصوص محكمة.

وقد ورد بجانب ذلك في الكتاب والسنة أثناء الكلام عن الله تعالى عبارات قد توهم المشابهة بينه وبين خلقه، هذا ما يسمى بالمتشابه، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: 5]، وقوله: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: 22].

وجاء في السنّة الصحيحة: «إنَّ قلوب بني آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن» ومن ذلك أيضاً قوله عليه السلام: «ينزلُ ربُّنا كلَّ ليلةٍ إلى السماءِ الدُّنيا حين يبقى ثلثُ الليلِ الآخرِ فيقولُ: مَنْ يدعوني فأستجيب له؟ مَنْ يسألُني فأعطيَه؟ مَن يستغفرُ لي فأغفرُ له؟ . . .».

سنحدد المذاهب المختلفة إزاء هذه النصوص، ثم نعقّب عليها ونختار ما نراه صحيحاً.

أولاً ـ مذهب السلف إزاء المتشابه:

كان الصحابة والتابعون والأئمة المتقدّمون لا يحبون الخوض والتعمّق في مسائل الاعتقاد، بل يؤمنون بما جاء به الكتاب، وعندما يعرض لهم شيء من المتشابه يقولون: «أمرُّوها بلا كيفية» نقل ذلك البيهقي بالإسناد عن مالك والأوزاعي وسفيان الثوري والليث بن سعد.

وأسند البيهقي عن سفيان بن عيينة أنه كان يقول: «كل ما وَصَفَ اللهُ به نفسَه في كتابه فتفسيرُه تلاوته والسكوتُ عليه» قال البيهقي: وإنما أراد ـ والله أعلم ـ فيما تفسيره يؤدي إلى تكييف، وتكييفه يقتضي تشبيهه بخلقه في أوصاف الحدث.

قال الحافظ: وأسند اللالكائي عن محمد بن الحسن قوله: «اتفق الفقهاء

كلهم على الإيمان بالصفات من غير تفسير ولا تشبيه»[1].

ونقل عن أبي عبيد القاسم قوله في تلك الآثار: «هي عندنا حق حملها الثقات بعضهم عن بعض غير أنّا إذا سُئلنا عن تفسيرها لا نفسّرها وما أدركنا أحداً يفسّرها».

وقال أبو داود الطيالسي: «كان سفيان وشعبة وحماد بن زيد وحماد بن سلمة وشريك وأبو عوانه لا يحدّون[2] ولا يمثّلون[3] يروون الحديث ولا يقولون كيف، وإذا سُئلوا قالوا بالأثر».

وأخرج البيهقي بسند جيد كما قال الحافظ: أن رجلاً أتى الإمام مالك فقال: يا أبا عبد الله «الرحمن على العرش استوى» كيف استوى؟ فأطرق مالك فأخذته الرمضاء - أي العرق - ثم رفع رأسه فقال: الرحمن على العرش استوى كما وصف به نفسه، ولا يقال كيف، وكيف عنه مرفوع، وما أراك إلا صاحب بدعة[4].

هذا هو مذهب السلف الصالح رضوان الله عليهم، وهو يتلخص في التصديق الكامل بكل ما صحَّ عن الرسول ﷺ، وفهم النصوص فهماً عاماً إجمالياً، وعدم تحرير المعنى التفصيلي المراد مع اعتقادهم بتنزيه الله تعالى وعدم مشابهته لخلقه.

هذا الموقف الذي وقفه السلف الصالح هو ما فهموه من توجيهات الكتاب العزيز كقوله سبحانه: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: 74]، وقوله سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: 33].

وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ

---

(1) فتح الباري: 418/13.

(2) أي: لا يثبتون لله حداً فراغياً.

(3) لا يمثّلون صفات الخالق بصفات البشر، أي: لا يتفوهون بتقابلات وتشبيهات بين صفات البشر الجسدية وما أضافه سبحانه لنفسه.

(4) انظر فتح الباري: 417/13.

﴿... مُتَشَٰبِهَٰتٌۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ[1] وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: 7].

فعدم اتباع المتشابه يقتضي أن لا نأخذ منه تلازمات نراها بعقولنا، ولا نفهم بعض الآيات على وجه يتعارض مع آيات أخرى وكذلك كان السلف الصالح.

وقال بعض العلماء: إن السلف لم يتوقفوا توقفاً كاملاً إزاء النصوص، فبعضها ظاهر في المجاز كقوله تعالى: ﴿ ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾ [النور: 35]، وكقوله تعالى في الحديث القدسي الذي رواه البخاري: «وما زالَ عبدي يتقرَّبُ إليَّ بالنوافلِ حتى أحبَّه فإذا أحببتُه كنتُ سمعَهُ الذي يسمعُ به وبصرَه الذي يبصرُ به. . . إلخ».

ثانياً ـ مذهب المتكلمين إزاء المتشابه:

بعد أن انفتح المسلمون على الثقافات والفلسفات الأخرى، وحاوروا أهل الملل المختلفة، وبعد ظهور الخوارج وغيرهم من الفرق، وجد المسلمون أنفسهم في معركة كلامية مع أطراف لا تذعن إلا للاستدلالات العقلية، فكان لابد من الاعتماد على المنطق في البرهنة والاستدلال.

وتحت وطأة الإلحاح الفكري الجارف لمعرفة الحقائق ودلالات النصوص، ولمكان ما تفرضه المناظرات والمساجلات من مواقف توجب الاستفصال عن الحقائق وتبيينها، انساق الخَلَفُ نحو تحديد الدلالات التفصيلية للنصوص ومنها الآثار المتشابهة.

وقد رأى الخَلَف أنَّ دلالات الآيات إما أن تكون على الحقيقة اللغوية المعروفة أو على المجاز المعروف، ولم يلحظوا قسيماً ثالثاً لهذين، ورأوا أن حمل الآيات والأحاديث على الحقيقة يقتضي التشبيه، فقادهم ذلك إلى الإكثار من الحمل على المجاز، وساعدهم على ذلك أن علماء العربية والبيان كانوا قد

---

(1) القراءة المشهورة للآية الكريمة التي قرأ بها عامة القراء بالوقوف على كلمة الله، وتفيد أن المعنى التفصيلي للمتشابه لا يعلمه إلا هو سبحانه، ووقف بعضهم على كلمة العلم.

قعّدوا القواعد وميّزوا الحقيقة من المجاز.

ومن تأويلاتهم قولهم عن قول الله تعالى: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡۚ﴾ [الفتح: 10]: إن تأييد الله ونصرته وعنايته تحيط بأيديهم التي تبايع، وقالوا في تأويل حديث النزول المراد منه نزول الرحمة والألطاف الإلـٰهية وقربها من العباد، وقد خصَّ الثلث الأخير بالذكر لأن النوم فيه عزيز على النفس، فالقائم المتعبد به أصدق في التوجه إلى الله تعالى وأبعد عن الرياء.

أما آيات الاستواء كقوله تعالى: ﴿الرحمن على العرش استوى﴾ [طـٰه: 5] فقالوا: المراد بها الاستيلاء والسيطرة وبسط السلطان الإلـٰهي على أصل الملكوت وكافة العوالم؛ ومن استخدام الاستواء بمثل هذا المعنى قول الشاعر:

قد استوى بشرٌ على العراقِ   من غيرِ سيفٍ ودمٍ مهراقِ

وقول الآخر:

إذا ما غزا قوماً أباح حريمهم   وأضحى على ما ملكوه قد استوى

أما الآثار التي تشعر بأنه سبحانه في السماء فقالوا: المراد بها فوقية القهر والغلبة أو تعاليه عما لا يليق به، فنحن لمَّا نقول: الخليفة فوق الأمير والأمير فوق الوزير لا نقصد فوقية المكان وإنما المكانة، فكذلك الحال في الآثار التي تشعر بالفوقية، لأنه سبحانه خالق المكان فلا يحل فيه.

ثالثاً ـ مذهب ابن تيمية وموافقيه:

عاش ابن تيمية في القرن الثامن الهجري حيث كان أهل الكلام قد توسعوا في مذاهبهم العقلية، وكان قد ساد في تلك الفترة مذهب الأشاعرة ثم مذهب الماتريدية، وهما مذهبان متقاربان متلاقيان.

هذا وإن كان مذهب الأشاعرة والماتريدية يعتبر مذهباً وسطاً بين المعتزلة[1] وأهل الحديث إلا أنهما قائمان على جانب كبير من المعقول والحمل على المجاز.

---

(1) المعتزلة: فئة بالغت في تحكيم العقل، وقد كان لهم نفوذ كبير في العصر العباسي لتبني الخلفاء مذهبهم.

وقد رأى ابن تيمية أن في الاعتماد الكبير على المعقول وفي الإكثار من التأويل مخالفة لمنهجية القرآن ومذهب السلف، فحارب ذلك بكل ما أوتيه وخاصة تأويل الاستواء على العرش بالاستيلاء والسيطرة؛ وقد دافع عن آراء ابن تيمية ونشرها تلامذته الذين كان من أشهرهم ابن قيم الجوزية.

يختلف هذا المذهب عن مذهب الجمهور في أمور أهمها:

1 - أنهم يغلقون كلاً من مسلكي التفويض والتأويل، لأنهم يرون التأويل تحريفاً للنصوص، والتفويض إمراراً لها بلا فهم، ونجد اليوم كثيرين من هذه المدرسة يقولون: كل ما أضيف لله تعالى فهو محمول على الحقيقة بلا تأويل ولا تعطيل ولا تفويض ولا تمثيل.

2 - يثبت هؤلاء الحد لذات الله تعالى، لأنهم رأوا ذلك لازماً للاستواء على العرش، بينما ينفي ذلك سائر المتكلمين لأنه يجر إلى التحيز والانحصار والتجسيم، كما أنهم يثبتون لله الكيفيات وإن قالوا عنها مجهولة، بينما ينفي المتكلمون عن الله تعالى الكيفيات المعلومة والمجهولة.

3 - يثبت هؤلاء قيام الحوادث بذات الله تعالى، وهم بذلك يخالفون المتكلمين الذين ينفون ذلك عنه لأنهم يرون أن كل متبدل محدث. كما أن لهم آراء خاصة أخرى كقولهم عن كلام الله تعالى محدَث الآحاد قديم النوع.

رابعاً ـ تحقيق ونقد:

لا شك أن مذهب السلف الصالح أسلم عند الله وأحسن مآلاً وأبعد عن نشوب الخلافات التي تفرّق الأمة، وكيف لا يكون مسلكهم هو الأفضل وهم القوم المشهود لهم بالخيرية من قِبَل الرسول الأعظم صلوات الله وسلامه عليه.

لكن إذا كنا منصفين فعلينا أن نعلم أن للخلَفِ بعض العذر في موقفهم ذلك، فهم قد توسعوا في الاستدلالات العقلية، لأنهم كانوا في معركة مع فرق لا يمكن إلازمها إلا به، وقد انساقوا في غمار أبحاثهم نحو تحديد المعاني التفصيلية التي كان السلف لا يفصّلون فيها، لأن المرء الذي بحث وعاين الأمور لا بد أن يستقر نظره على شيء، ولأن المناظرات والمساجلات تفرض مواقف توجب الاستفصال والتبيين... لكل هذا حاول العلماء من الخلف تحديد الدلالة

التفصيلية للآثار المتشابهة، وقد رأوا أن حمل الكثير من هذه الآثار على الحقيقة يؤدي إلى تشبيهه بخلقه، الأمر الذي جعلهم يحملون الآثار على المجاز ويكثرون من ذلك.

في هذا المقام نوضح حقيقة هامة هي محدودية اللغة، لأنها موضوعة لما نعايشه في حياتنا المادية، لذلك هي محدودة بحدود هذا الواقع، كذلك فإن التصور الإنساني محدود كما أوضحنا سابقاً، وهو حبيس هذا الواقع الذي نعيش فيه.

بعد هذا التوضيح نقرر أن المعنى المراد من الآيات القرآنية يمكن أن يكون من حيث الأصل على أحد المعاني التالية:

1 - على المعنى الذي استخدمته العرب على سبيل الحقيقة.

2 - على المعنى الذي استخدمته العرب على سبيل المجاز.

3 - على معنى جديد لم تعرفه العرب لأنه خارج واقعها، لكن بين المعنى المراد ومعنى العبارة في عرف العرب مناسبة، أي أن اللفظ العربي قد يوسع مدلوله ويستخدم كاصطلاح خاص للتعبير على معاني في الإلـٰهيات تضيق لغتنا في أصل وضعها عن التعبير عنه، لذلك فنحن لا نعلم مدلول اللفظ على وجه التحديد، ونعلم فقط أن ثمة مناسبة بين المعنى الأصلي في عرف العرب والمعنى الذي استخدم له في الكتاب العزيز.

إن هذا القسم الثالث لم يتنبه له السابقون، لذلك رأو أن المعنى المراد لا يكون إلا على أحد القسمين الأوليين، وحملهم رفض تقرير الحقيقة إلى الإكثار من القسم الثاني الذي هو المجاز، هذا الإكثار الذي أفزع أهل السنن وأدى إلى ردات فعل عنيفة.

ولو أنهم تنبَّهوا إلى هذا القسم الثالث وتنبَّهوا لمحدودية التصور الإنساني، لبطل الدافع الذي يدفعهم نحو الإكثار من المجاز، وقد نقل عن الإمام ابن دقيق العيد «أن التأويل إن كان من القريب الواضح فالحق سلوكه من غير توقف، وإن كان من الشاذ البعيد فالحق عدم التأويل، وإن كان بين هذا وذاك تختلف فيه وجهات النظر».

أقول: إن عدم التأويل في هذا القسم الثالث أفضل لأننا في غنىً عن خلاف يحصل بسبب تأويل لا تدعونا إليه حاجة ماسة. ويظهر أن مما لا يحسن تأويله كما لا يحسن حمله على ظاهره المتعارف بين الناس الاستواء على العرش والمجيء لله تعالى المذكور في النصوص.

وقد يكون لهذا اللفظ وذاك حقيقة لا نعلمها نحن على سبيل التفصيل ويعلمها الله وحده، وهي تليق به سبحانه ولا تقتضي التشبيه، وبين هذه الحقيقة ومدلول اللفظ الذي استخدم لها ـ أي لفظ استوى وجاء ـ مناسبة.

وأرى أنه من غير المناسب حصر المعنى بالمجاز في اللغة، وإن كنا لا نتصور معنى مهذباً عن التشبيه غيره، وذلك لأن لغتنا محدودة كما أن تصوراتنا محدودة كما أسلفنا، والجهل بالشيء ليس هو العلم بعدم وجوده.

وقد نُقل عن الإمام الشافعي أنه قال: «آمنتُ بلا تشبيه، وصدَّقتُ بلا تمثيل، واتهمتُ نفسي في الإدراك، وأمسكت عن الخوض غاية الإمساك».

هذا ولا يجوز لأحد أن يأخذ من لفظ استوى تلازمات يراها بعقله ويثبتها لله تعالى، كأولئك الذين أثبتوا لله تعالى الحد؛ لأن هذا الإثبات لم يأتِ إلا من تصور التجسيد له سبحانه ولا يجوز هذا. ونعود ونذكر بأن تصوراتنا محدودة وما لا نتصوره لا يعني ذلك أنه غير موجود. ثم إن الموقف الذي وقفناه لا يعني إمرار النصوص بلا فهم، لأننا نفهم منه فهماً عاماً إجمالياً مهذباً عن التشبيه، فقد قلنا: بين المعنى المراد في النص ومعنى اللفظ المعروف في اللغة مناسبة، وهذه المناسبة لا تقتضي التشبيه. ومن لوازم معنى الاستواء على العرش الاستيلاء والسيطرة عليه وعلى أصل الملكوت وجعله متنزل أمره سبحانه[1].

---

(1) لا يمتنع أن نقول الله في السماء إن وقفنا عند هذا الحد، لأنه ثبت إقرار الرسول ﷺ لمثل هذا القول، لكن لا يجوز لأحد أن يأخذ منه التحيز والانحصار، كما لا يجوز لأحد أن يقرر أن ذاته سبحانه في كل مكان، وإنما نقول إذا أردنا التفصيل أكثر هو مستوٍ على عرشه لا على معنى التحيز والانحصار، وقريب من عباده لا على معنى حلول ذاته المقدسة في الأشياء والفراغات، ولا يتعارض هذان الأمران عنده لأنه ليس كالأجسام ولا من جنس المألوفات.

هذا ولنا ملاحظة على منهج المتكلمين العام هي أن الله تعالى جعل عقيدة الإيمان التي يُطالب بها المسلم سهلة لا يجد المرء عناءً في التصديق بها، أما المتكلمون فيذكرون تفصيلات تنتهي إلى حد الغموض وتكثر حولها الاختلافات، وليس من حق أحد أن يضيّق الباب الذي جعله الله واسعاً، ويجر العقيدة على مقام صعب شائك. وإن كان المتكلمون يرون أن التلازمات العقلية تؤدي إلى ما يقررونه، فمن المشهور عن العلماء أن لازم المذهب ليس بمذهب، هذا إذا سلّمنا أن التلازمات التي يذكرونها صحيحة دوماً.

إذن فلا يجب على المسلم أن يكون أشعرياً ولا ماتريدياً إنما عليه أن يعتقد العقيدة القرآنية وفق منهج السلف رضوان الله عليهم، لأن في منهج السلف توقف واضح وهل هناك أصرح في التوقف من قولهم: «نقرؤها ولا نفسرها ولا أدركنا أحداً يفسرها»، وهذا خلاف مذهب ابن تيمية الذي يقرر الحمل على الحقيقة المعروفة في اللغة ولا يرى المجاز؛ على أن إنكار المجاز بشكل كامل غير صحيح، فهو واقع في اللغة باتفاق أهل العربية، وإلا فهل قوله سبحانه عن داود عليه السلام: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: 17] يفيد أن لسيدنا داود عدداً من الأيدي؟

كما أن قول من يقول: اليد والوجه والقدم محمولة على الحقيقة المعروفة في اللغة واليد غير الذات والوجه غير الذات يقتضي ذلك التجسيم والتركيب لله تعالى؛ لأن هذه الألفاظ وضعت في أصل اللغة للدلالة على الأعضاء المجسّمة ذات اللحم والعظم والدم، وقولهم: لله وجه غير الذات يقتضي التركيب بالضرورة، ولا يجوز إثبات ذلك لله تعالى، لأن كل مركَّب يحتاج إلأى مركِّب، ولأن النصوص لم تنطق بهذا التفصيل ولا قال به السلف[1]، كما لم يقل السلف كلام الله محدَث الآحاد قديم النوع.

أما إثبات قيام الحوادث بذات الله تعالى وإثبات الكيفيات له مقابل نفي المتكلمين لها فهو بحث في الذات الإلـٰهية لا يجوز ونحن لا نعرف إن كان لذلك معنى بالنسبة له سبحانه.

---

(1) قال تعالى: ﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ﴾ [القصص: 88]، فإن فسَّرنا الوجه هنا بغير الذات نكون قد أثبتنا شيئاً من ذاته سبحانه يهلك والعياذ بالله.

ولا بأس أن نذكر أخيراً كلاماً لعالم سلفي كبير هو ابن الجوزي الحنبلي حيث قال رحمه الله ـ وهو ينصح من حاد عن الطريقة من أبناء مذهبه: «. . . قد أخذوا بالظاهر في الأسماء والصفات فسموها بالصفات تسمية مبتدَعة ولا دليل لهم في ذلك من النقل ولا من العقل، ولم يلتفتوا إلى النصوص الصارفة عن الظواهر إلى المعاني الواجبة لله تعالى، ولا إلى ما توجبه الظواهر من سمات الحدث، ولم يقنعوا بأن يقولوا صفة فعل حتى قالوا صفة ذات، ثم لما أثبتوا أنها صفات قالوا: لا نحملها على توجيه اللغة. . . بل قالوا: نحملها على ظواهرها المتعارفة، والظاهر هو المعهود من نعوت الآدميين، والشيء يحمل على حقيقته إن أمكن، فإن صرف حُمِل على المجاز، ثم يتحرجون من التشبيه ويأنفون من إضافته إليهم، ويقولون: نحن أهل السنة وكلامهم صريح في التشبيه، وقد تبعهم خلق من العوام، وقد نصحت التابع والمتبوع فقلت لهم: يا أصحابنا أنتم أصحاب نقل واتباع وإمامكم الأكبر أحمد بن حنبل رحمه الله يقول ـ وهو تحت السياط ـ: كيف أقول ما لم يقل فإياكم أن تبتدعوا في مذهبه ما ليس منه.

ثم فلِمَ في الأحاديث تحمل على ظاهرها فظاهر القدم الجارحة فإنه لما قيل في عيسى عليه الصلاة والسلام: (روح الله) اعتقدت النصارى أن لله سبحانه وتعالى صفة هي روح ولَجَت في مريم. . وينبغي أن لا يهمل ما ثبت به الأصل وهو العقل، فإنا به عرفنا الله تعالى وحكمنا له بالقدم، فلو أنكم قلتم نقرأ الأحاديث ونسكت لما أنكر عليكم أحد، إنما حملكم إياها على الظاهر قبيح فلا تدخلوا في مذهب الرجل الصالح السلفي ما ليس منه، فلقد كسيتم هذا المذهب شيناً قبيحاً»[1].

* * *

(1) دفع شبه التشبيه بأكف التنزيه، ص27 - 28، لابن الجوزي.

رؤية الله تعالى

وردت آيات كريمة وأحاديث نبوية تنص على رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: 22 - 23].

وقد استفاضت السنة النبوية الصحيحة في إثبات رؤية المؤمنين لربهم، فمن ذلك ما رواه مسلم والترمذي عن صهيب الرومي أن رسول الله ﷺ قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول تبارك وتعالى: تريدون شيئاً أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيّض وجوهنا؟، ألم تُدخلنا الجنة وتنجّنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم».

لهذا كله اتفق أهل السنة على أن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة؛ وقد أنكرت المعتزلة الرؤية وإمكانها واحتجوا بقوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ ۖ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: 103]، وبقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: 143].

قالوا: إن قوله سبحانه: ﴿لَن تَرَانِي﴾ يدل على امتناع الرؤية وتأبيد ذلك، كذلك فإن الله تعالى علّق الرؤية على استقرار الجبل فلم يستقر، فدلّ ذلك على امتناعها.

أجابهم مخالفوهم بأنّ «لن» للتأكيد لا للتأبيد بدليل أن الله تعالى قال عن المشركين: ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [الجمعة: 7] مع أن المشركين يتمنون الموت في الآخرة؛ وقالوا: إن تعليق الرؤية على استقرار الجبل لا يدل على امتناعها بل على جوازها، لأنه علقه على أمر جائز عقلاً.

والحق أن هذا الجواب فيه نظر، لأن بيان الكتاب يحمل على ما يفهمه المسلم بفطرته الصافية بلا كلفة، ولا يُحمل على المفاهيم والاصطلاحات

الفلسفية التي يتعاطاها المتكلمون، فما أبعد بيانه عن ذلك، وقد جعل الله الحال الذي سيكون عليه الجبل من استقرار أو عدم استقرار بياناً لإمكانية الرؤية أو عدمها، وما كان يسوغ اعتبار ذلك بياناً لو كان الاستقرار وعدمه كلاهما يدلان على أمر واحد هو جواز الرؤية.

أما قوله سبحانه: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الأنعام: 103] فقال فيه بعض العلماء: إنه خاص بالدنيا، وهذا غير صحيح، لأن الآية الكريمة تتحدث عما هو ممتنع في حق الله تعالى، والممتنع ممتنع مطلقاً، والجائز جائز مطلقاً ولا يقبلان التخصيص بوقت دون آخر، لأن من يصدق عليه أنه لا يُدرَك بالبصر فهو لا يُدرَك بأية عيون وفي أية ظروف؛ كما أن قوله سبحانه: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ فيه ثناء عليه سبحانه وتنزيه له، والثناء والتنزيه لا يختصان بوقت دون آخر، أما من زعم بأن قوله تعالى: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ ليس فيه ثناء عليه فباطل مردود، إذ كل ما وصف الله تعالى نفسه به في كتابه فهو ثناء عليه.

فإن قلت: كيف يجتمع ذلك مع قوله سبحانه: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ ومع الآثار الأخرى التي أثبتت الرؤية؟ أقول: إن الكتاب العزيز نفى إدراك الله تعالى بالبصر، وأثبت نظر المؤمنين إلى ربهم، وهما أمران غير متطابقين، فالإدراك بالبصر فيه أمور زائدات على مجرد النظر، ونحن وإن كنا لا نعرف إلا فروقاً ضئيلة بينهما في عالم الشهادة، إلا أنه من الجائز أن يكون بينهما فروق كبيرة وعميقة في عالم الغيب، لذلك امتنع أحدهما وجاز الآخر.

وقد روى الترمذي أن عكرمة سأل ابن عباس رضي الله عنهما بعد أن أثبت الرؤية: أليس الله يقول: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ﴾ قال: ويحك، ذاك إذا تجلّى بنوره الذي هو نوره.

وظاهر كلام ابن عباس رضي الله عنهما أن الرؤية المثبتة غير المنفية والمنفية أبلغ، وهذا حسن ويشهد له لفظ الكتاب، فالله تباركت أسماؤه وجلّت قدرته لا يعجزه أن يكرم عباده المؤمنين الذين عبدوه دون أن يروه بالتعرف عليه، فيتجلّى لهم تجلياً هو أعلم به، ويجعل في عيونهم قدرة خاصة ليعرفوه مع كونه سبحانه ليس كالأجسام ولا متحيزاً مثلها في الجهات.. فالرؤية التي تستدعي تحيز المرئي في جهة معينة وإحاطة البصر بحقيقة المرئي ممتنعة في حق الله تعالى

لتنزهه عن مشابهة الخلق وأحوالهم؛ أما التجلي الإلـهي الثابت في الأحاديث كقول الرسول عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح: «يتجلى لنا ربُّنا يومَ القيامةِ ضاحكاً» فهو أمر غير الأول، ويبدو أن معنى الضحك هنا أنه سبحانه يبدي لهم من نفسه معاني اللطف والرحمة[1].

لذلك فنحن نؤمن بأن المؤمنين ينظرون إلى ربهم تبارك وتعالى وبسائر الأحاديث التي رويت في ذلك، لكن نقول: ليس ذلك المثبت هو عين المنفي في قوله تعالى: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ﴾ وبينهما تفصيل، كذلك نؤمن بأن المؤمن ينظر إلى ربه تبارك وتعالى، وأنه سيكلمه ليس بينه وبينه ترجمان كما صح في الحديث، لكن هذا المثبت ليس هو عين ما نفته الآية الكريمة: ﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ [الشورى: 51] وبين المثبت والمنفي تفصيل نفوض أمره إلى الله تعالى.

قال ملا علي القاري في شرح الشفاء[2]: «أعلم أنه يمكن الجمع بين الأدلة في هذه المسألة المشكلة بأن ما ورد مما يدل على إثبات الرؤية إنما هو باعتبار تجلي الصفات، وما جاء مما يشير إلى نفي الرؤية فهو محمول على تجلّي الذات، إذ التجلي للشيء إنما يكون بالكشف عن حقيقته وهو محال في حق ذاته».

أما عن رؤيته سبحانه في الدنيا؛ فقد صحَّ عن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّ الرسول ﷺ رأى ربَّه ليلة المعراج، وصحَّ عنه أيضاً أنه رآه بقلبه.

وروى البخاري ومسلم عن مسروق رحمه الله قال: قلت لعائشة: «يا أمتاه هل رأى محمد ربّه؟ فقالت: لقد قُفَّ شعري مما قلت، أين أنت من ثلاث من حدَّثكهنّ فقد كذب: مَن حدَّثك أن محمداً رأى ربه فقد كذب ثم قرأت ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾، و﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ﴾ . . .» فالسيدة عائشة قد استنكرت الرؤية لما تعتقده في الله تعالى من التنزيه، ويتوجه مذهبها على جعل هذا الإنكار متوجهاً إلى الإدراك بالبصر الذي نفته الآية الكريمة.

---

(1) هذا ما أراه، والله أعلم.

(2) الشفاء، ص246.

وقد روي في الصحاح أحاديث كثيرة في الإسراء والمعراج ولم يذكر في شيء منها أنه عليه السلام قد رأى ربه؛ وصحَّ في صحيح مسلم قوله عليه السلام: «واعلموا أنكم لن تروا ربكم حتى تموتوا» فينبغي التمسك بهذا العموم طالما لا يوجد مخصص له.

أخيراً نذكر أن المعتزلة يقولون: يشترط أن يكون المرئي متحيزاً في جهة! إذ لا تعقل رؤية لا في جهة، لذلك هم ينفون الرؤية مطلقاً، والمشبهة يحتجون بذلك ولكن ليثبتوا أنه سبحانه متحيز في جهة.

أقول: إن لوازم الرؤية التي سيمنحها اللهُ لعبادِه المؤمنين يوم القيامة غير معروفة، لأنها غيب مطوي عنا، كما أن الرؤية قد ثبتت على تفصيل لا نعلمه كما أوضحنا سابقاً، ولا يجوز لأحد أن يتجاهل أمر هذا التفصيل، لأنه إن تجاهله سيصطدم مع آيات كريمة كقوله تعالى: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾. ولا يجوز لأحد أن يعتمد على تصوره في إثبات أو نفي لوازم وأمور من عالم الغيب، فتلك طريقة باطلة كما أوضحنا سابقاً، وهذا محرَّم أيضاً، لأنه من تتبعِ المتشابه الذي حرَّمه الله في كتابه.

* * *

الباب الرابع

ظاهرة الوحي

﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرۡتُم بِهِۦ مَنۡ أَضَلُّ مِمَّنۡ هُوَ فِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ۝٥٢ سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ أَوَلَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴾

[فصلت: 52 - 53]

تمهيد

بعد أن أثبتنا وجود الخالق سبحانه لنبحث في دعوى نزول الوحي على الأنبياء ولنركز بحثنا على رسالة محمد ﷺ الذي قال: إنه رسول من رب العالمين وأنه خاتم النبيين، وأن موسى وعيسى نبيان مبعوثان حقاً من عندا الله تعالى.

قبل البحث يجدر بنا أن لا نستنكر إمكانية صحة دعوى النبوة والوحي، فكلنا يعلم أن أي حاكم عادل غير عابث إذا رأى في ملكه ظالماً ومظلوماً ومحسناً ومسيئاً لا يجعل هؤلاء جميعاً برتبة واحدة، ولا يدع الرعية وشأنها ويعزف عن النظر في أمورها.

أفلا يكون الله تعالى أولى من حكام البشر بإقامة العدل والبعد عن العبث؟

ألا يجدر به أن يعرِّف البشر بنفسه وبغاية وجودهم ليعرفوا مَنْ خَلَقَهم؟ ولأي شيء خُلقوا؟ وإلى أين هم سائرون؟

إن من آمن بالإلـٰه القدير الحكيم لا يستبعد هذا بل يرجح وقوعه.

فلنبحث ظاهرة الوحي كأمر ممكن الوقوع، ولنركز بحثنا على رسالة الإسلام التي يقول نبيها وأتباعه بأنها خاتم الرسالات السماوية.

* * *

أولاً ـ شخصية صاحب الرسالة وخصائص دعوته

إزاء دعوى محمد عليه الصلاة والسلام نزول الوحي عليه من عند الله تعالى يقال: إما أن تكون هذه الدعوى صحيحة، ويكون نبياً حقاً أو لا. فإن لم يكن نبياً حقاً فإما أن يعلم في قرارة نفسه ذلك ويدّعي النبوة كاذباً، أو أنه يظن نفسه نبياً لسبب من الأسباب وهو صادق مع نفسه، لكن الأمر خلاف ما يتوهم.

وهكذا فإن تفسير ظاهرة الوحي لا يخرج عن التفسيرات الثلاثة الآتية:

1 - هو صادق في دعواه وهو نبي في حقيقة الأمر.

2 - يتصنع نزول الوحي تصنّعاً وهو كاذب[1] لم يوحَ إليه بشيءٍ وهو يعلم ذلك.

3 - هو صادق مع نفسه يظن وحياً يأتيه ولا يأتيه وحي حقيقي، وإنما تطرأ عليه حالات نفسية معينة يظنها وحياً.

هذه الاحتمالات المذكورة تحصر الحقيقة حتماً، فلنناقش كلاً منها:

الاحتمال الثالث غير مقبول لأن محمداً عليه الصلاة والسلام كان يمر بحالات فيها شدة، ثم يفصح بعد ذلك عن كلام متّزن يقول: إن الوحي قد جاءه به. ومعلوم أن الإنسان الطبيعي لا يصل به التأمل والتفكّر إلى حالات مفزعة تجعله يتوهم أن آخر يلقي إليه بكلام، ومن أصبح بحالة كهذه فهو إنسان غير طبيعي، وهو يعاني من خلل في أعصابه إن لم نقل به مس من الجنون.

ومن يمر بحالة اضطراب نفسي وعصبي يكون عنده مرور هذه الحالة عليه مستغلق التفكير والإبداع، ولا يعي شيئاً مما جرى له في حالة الغشي، ولا تمنح حالة الاضطراب العصبي صاحبها كلاماً متزناً يخلب لب الملايين ويغير وجه التاريخ.

---

(1) حاشا أن يكون كذلك.

ولقد أخبر محمد عليه الصلاة والسلام بحقائق تاريخية لم تكن متداولة بين العرب كقصص بعض الأنبياء السابقين، وهو يقول: إنه لم يأخذها من كتب السابقين، فإن كان صادقاً لزم أن يكون نبياً حقاً، ويسقط الاحتمال القائل هو صادق مع نفسه والأمر خلاف ما يظن، لأنه لا يُلهم المرء معلومات تاريخية عندما يتوهم نفسه لسبب ما نبياً وهو ليس بنبي.

كل ذلك يجعلنا نستبعد الاحتمال الثالث لتفسير الوحي، ويبقى لدينا احتمالان: إما أنه نبي حق مبعوث من عند الله، أو هو مدَّعٍ للنبوة كذباً يدّعيها ويعلم في قرارة نفسه أنه ليس بنبي.

فلنناقش هذا الاحتمال الأخير:

إن هذا الاحتمال تأتي عليه اعتراضات كثيرة منها:

1 - إن الحالات التي كانت تطرأ على محمد ﷺ عند ادّعائه نزول الوحي لا يمكن تصنّعها بحال، تقول زوجه السيدة عائشة رضي الله عنها فيما رواه البخاري ومسلم ـ وكل ما فيهما صحيح الإسناد ـ: «ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه يتفصد عرقاً» وقد عاد عقب نزول الوحي عليه أول مرة ترتجف بوادره أي عضلات رقبته وهي لا ترتجف إلا عند الفزع الشديد؛ ومعلوم أن مثل ذلك ليس عملاً إرادياً بحيث يمكن للكاذب أن يتصنّعه؛ ولقد رأى جمع كبير من أصحاب النبي ﷺ مثل هذه الحالات ورووا ذلك بالأسانيد الصحيحة الكثيرة، ولا يمكن لأمة أن تتواطأ على خداع نفسها.

2 - إن الإنسان الكاذب وإن كذب وخدع الناس لا يمكن أن يخدع نفسه؛ فانظر إلى هذه الآية القرآنية، قال تعالى: ﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [المائدة: 67].

لقد كان لرسول الله ﷺ أعداء كثر يرومون قتله، وبعد نزول هذه الآية كان يقول لأصحابه الذين يريدون حراسته: «انصرفوا عني فقد عصمني ربّي»، وهذا ثابت في السنّة بالأسانيد الصحيحة.

أيقال إنه أقنع نفسه بالأمن من أعدائه الكثر بآية مكذوبة اختلقها من عند نفسه؟! إن هذا لا يكون أبداً، فالكاذب لا يخدع نفسه.

3 - في القرآن الكريم آيات لا يمكن أن يتصنع مثلها الكاذبون، فمثلاً عندما جهر النبي عليه الصلاة والسلام بأول كلمات في دعوته وجمع لها الناس قال له عمه أبو لهب: تباً لك ألهذا جمعتنا. فأنزل الله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ [المسد: 1 - 3].

وكلُّنا يعلم أنه عندما يقدم الإنسان على عمل خطر يناصبه الناس لأجله العداء فإنه يلقي بأكبر رجاء له في النصرة على أهله وأقربائه، وقد كان محمد عليه السلام قد فقد والديه ولا إخوة له، فكان أقرب الناس إليه أعمامه، فلو كان هو الذي يأتي بالآيات من عند نفسه لما حكم من بداية الدعوة بأن خاتمة أمر عمه ـ وهو أقرب الناس إليه ـ السوء، ولما ناصبه العداء من بداية الطريق، وما يدريه أن عمه لن يؤمن في المستقبل، فقد آمن كثير ممن كانوا في بداية الدعوة من أشدِّ الناس عداءً لها، كعكرمة بن أبي جهل، وابني أبي لهب، وما كان يدريه أن هذا الإنسان لن يسعى في إحراجه وإرباكه فيدعي أنه دخل في الدين ليرى ماذا يصنع محمد عليه الصلاة والسلام بالآيات التي قالها فيه.

إن تصرّفه عليه الصلاة والسلام هذا لا يتصرفه عاقل يقيس النفع والضرر بالمقاييس والتوقعات البشرية، ولا يفسر ذلك إلا بأنه كلام الإلـه الحق المطّلع على كل شيء الذي يولي رسوله نصرة تغنيه عن نصرة أهله وقبيلته.

لنتأمل في حادثة الإفك، حيث اتهمت زوجه عائشة رضي الله عنها بالفاحشة مع صفوان بن المعطل، ولغا في الأمر مَن لغا والرسـول ﷺ يسـمع ذلك مدة طويلة، وهو صابر محتسب لا يدري ماذا يصنع، حتى أُنزلت براءتهما بعد مدة ليسـت باليسـيرة؛ وهذا حكم على الغيب، فلو أن عائشة وصفوان كانا قد ألما بذنب ثم وجدا القرآن يبرئهما، لكان ذلك دليلاً واضحاً عندهما على كذب هذا الكتاب، ولقد كان في الفترة الطويلة التي بقي فيها رسول الله ﷺ ساكتاً ما يكفي لجعل الكاذب يتفكر ويتفهّم في أبعاد تبرئته أشخاصاً لا يعلم براءتهم؛ لكن القرآن الكريم جاء صريحاً في التبرئة ليُعلمَ أنه ليس كلام كاذب يخشى البواطن، بل هو كلام رب العالمين المطّلع على كل شيء.

ولقد ازداد صفوان إيماناً بهذا الكتاب فقاتل في سبيل الله حتى قُتل، ولو كان يعلم أن هذا الكتاب كذباً لما قدَّم حياته رخيصةً في سبيله.

ولقد جاء في القرآن الكريم آيات لم تصوب فعل الرسول ﷺ وتعاتبه[1] كقوله تعالى في قضية أخذه عليه الصلاة والسلام الفداء من أسرى بدر: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ[2] لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: 68].

وكقوله تعالى معاتباً نبيّه: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ٤ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾ [عبس: 1 - 10].

إن هذه الآيات مستقلة تماماً عن شخصية الرسول ﷺ وما كان لكاذب أن يتقولها ويقرّع نفسه هذا التقريع.

إن جلال وعظمة الألوهية تتبدى في سائر آيات القرآن وهو الكتاب الوحيد على الأرض الذي يظهر فيه أن المتكلم هو الله، فحتى التوراة والإنجيل الموجودان حالياً يتحدثان عن تاريخ الأنبياء فحسب ولا يلاحظ فيهما ولا في غيرهما أن المتحدث هو الله.

وهو الكتاب الوحيد على الأرض الذي يعطي الألوهية حقها من التنزيه والإجلال والتعظيم، وهو الكتاب البريء من الفكر العنصري الذي يميز شعباً عن شعب وعرقاً عن عرق، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: 92]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: 13].

وجميع الأديان تعتبر الانتساب إليها كافياً للنجاة من العذاب إلا القرآن، قال سبحانه: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء: 123].

إن ما أمكن أن يجري مرة في تاريخ البشرية أمكن أن يجري مرات، فلو كان هذا القرآن من عند البشر لوجب أن يخرج من المليارات من البشر رجل يصنع كصنيع محمد بن عبد الله ويأتي بكتاب له مثل هذه الخصائص.

---

(1) لم يخطئ وتصرفه صحيح ولكنه لم يفعل الأَوْلى. (الناشر)

(2) الكتاب الذي سبق من الله هو حكمه ألا يعاقب مجتهداً لم يقصد مخالفة أمره.

4 - إن نقائض الصفات لا تجتمع بشخص واحد فيكون مثالاً للصدق والأمانة في أمور، وكذاباً أفّاكاً في أمور أخرى، وقد كان محمد ﷺ صادقاً أميناً يشهد له بذلك حتى أعداؤه، ومن أخبار السيرة النبوية الشهيرة أن كفار مكة كانوا قد وضعوا ودائع لهم عنده، فلما هاجر أمر علياً رضي الله عنه بأداء الودائع لأهلها، وهذا إقرار فعلي منهم بأنه أمين حق أمين. وقد تنزَّه عليه الصلاة والسلام عن سلوك سبيلٍ ملتوٍ لنشر دعوته، وكان ملتزماً للصدق والوفاء حتى مع أعدائه المحاربين؛ فانظر إلى هذه الحادثة التي رواها مسلم في صحيحه عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: «ما منعني أن أشهد بدراً إلا أني خرجت أنا وأبي حسيل فأخذنا كفار قريش فقالوا: إنكم تريدون محمداً. فقلنا: ما نريده ما نريد إلا المدينة. فأخذوا منا عهد الله وميثاقه لننصرفن إلى المدينة ولا نقاتل معه، فأتينا رسولَ الله ﷺ فأخبرناه الخبر، فقال: انصرفا نفي لهم بعهدهم ونستعين الله عليهم».

انظر إلى هذه الصورة الساطعة للوفاء بالعهد ـ يفي بالعهد الذي ضربه أصحابه المغلوبون على أمرهم مع كفار قريش، ولم يقل لصاحبيه: إن ما قلتماه من السياسة الشرعية، لأنكم كنتم في قبضتهم وتخافون من بطشهم، أفهكذا يكون حال من يكذب على الله تعالى ولا يرعى لذمة الله عهداً.

تأمل في هذا الموقف لرسول الله ﷺ عندما عرض عليه رجل مشرك تذكر منه جولة ونجدة أن يقاتل معه وفرح أصحاب النبي ﷺ بمقدمه فقال له النبي ﷺ: «تؤمن بالله ورسوله»، قال: لا. قال: «فارجع فلن أستعين بمشرك». وهذا حديث صحيح مروي بأسانيد صحيحة في صحيح مسلم وغيره.

إن موقفه عليه الصلاة والسلام هذا في غاية البعد عن الميكافيلية(1) والمراوغة، إنه لا يريد وهو في المواقف الصعبة نصرة الحق إلا بأيدي أتباع الحق.

ولو سألنا ما هو الشيء الذي يمكن أن يدفع الإنسان إلى ادّعاء النبوة لكان الجواب أنه حبُّ العَظَمة والزعامة، وتقديس الذات. فانظر إلى حال محمد ﷺ إنه لم يحصل بسبب دعوته على شيء من زخرف الحياة الدنيا ورفض إغراءات قريش له بالزعامة والإثراء مقابل ترك دعوته، وضاق به الأمر حتى أكل أوراق

(1) الميكافيلية: نسبة إلى ميكافيلي الذي كان ينصر الفكرة القائلة: الغاية تبرر الوسيلة.

الشجر مع أتباعه فلأي شيء كان يقف هذا الموقف إن كان يبتغي من وراء دعوته الجاه والزعامة.

قارن بين حال محمد بن عبد الله وحال دعاة (بعض القوم) الذين راموا تقديس أنفسهم عن طريق تبنّي دعوات دينية حاولت مزاحمة الإسلام.. تجد هؤلاء قد رفعوا أنفسهم في نظر أتباعهم إلى أقصى درجة يستطيعونها حتى زعموا معرفة الغيب وأسقطوا عن أنفسهم الواجبات والصلوات وارتكبوا الموبقات، بل ورفعوا أنفسهم إلى مقام الألوهية، وكانت دعوتهم تعتمد على المعميات والمبهمات، حتى استخدم بعضهم الحشيش لأجل سوق أتباعه كالبهائم بلا تفكير.

أما محمد بن عبد الله فقد كان متواضعاً يأبى أن يرفع فوق منزلته ويؤكد بشريته، جاء في القرآن الكريم الكتاب المنزل عليه: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: 188].

وجاء في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري قوله عليه الصلاة والسلام: «لا تَطروني كما أَطْرَتِ النصارى عيسى ابن مريم، إنما أنا عبدٌ، فقولوا: عبد الله ورسوله». وقال فيما يرويه الشيخان البخاري ومسلم: «لا ينبغي لعبد أن يقول إني خير من يونس بن متّى». وروى مسلم في صحيحه أن رجلاً قال للنبي ﷺ: يا خير البرية. قال: «ذاك إبراهيم خليل الله». وفي ساعة الاحتضار لم ينسَ أن يذكّر أمته في أن لا يتخذوا قبره مسجداً فيقول: «اللهمَّ لا تجعل قبري وثناً يُعبَد». رواه مالك في موطّئه، وقد لعن الأمم التي اتخذت قبور أنبيائها مساجد محذّراً أمّته أن يصنعوا كصنيعهم. وكان أصحابه لا يقومون له لما يعرفون من كراهيته لذلك، وهذا ثابت في صحاح السنة.

أفهكذا يكون حال من أقام الدنيا وأقعدها وتحمّل الشدائد والأخطار في سبيل تقديس ذاته ورفعها فوق مستوى الناس؟ أين موقفه هذا من موقف بهاء الله مؤسس الطائفة البهائية الذي زعم أن فيه جانباً إلـهياً وجعل قِبْلَة أتباعه حيث وجد هو حياً وحيث وُجد قبره ميتاً.

تأمل كيف كانت دعوات الكَذبة في الدين تهتم بخَبلِ العقول وإغلاق باب

التفكير الحر في حين أن دعوة الإسلام تأمر بتحرير العقول والنظر الحر المجرّد، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ[1] مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: 36].

وجاء في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم: «نحن أحقُّ بالشك من إبراهيم إذ قال: ربِّ أرني كيف تحيي الموتى، قال: أولم تؤمن. قال: بلى، ولكن ليطمئنَّ قلبي».

والظاهر أن معنى الشك في الحديث بحث مسألة الإيمان بذهنٍ حرٍّ خالٍ من أي افتراضات مسبقة، لأن الباحث المتجرِّد يدخل البحث بذهنٍ خالٍ عن الآراء المسبقة، لذلك أمكن أن نقول عنه: بدأ شاكّاً.

ولقد كان محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام من أكبر رجال التاريخ غرساً للفضائل الإنسانية وأعظمهم أثراً في هذا المجال، وما كان للفضائل أن تنتشر على يد عدو من أعدائها، ولا يمكن لكاذب دجّال أن يكون أحسن أثراً وأنفع للناس من الصادقين، وكما جاء عن المسيح عليه الصلاة والسلام في تحديد صفات الأنبياء الصادقين: «من ثمارهم تعرفونهم فهل يجنون من الشوك عنباً ومن العوسج تيناً»، أجل لا تُجنى الفضائل من يد أعدائها كما لا يُجنى العنب من الشوك، فالثمارُ الطيبة تخرج من أصلٍ طيّب، والأصول الخبيثة لا تُخرج إلا ثماراً خبيثة.

قارن بين حال محمد بن عبد الله وحال الكذبة في الدين من جميع الجوانب التي ذكرناها ثم قل لي: هل تغيَّرت سنّة الخليقة في شخصه أم أنه رسول رب العالمين؟

5 - إن الله تعالى وهو العادل الحكيم المطّلع على كل شيء لا يمكن أن يرى كاذباً يتكلّم باسمه زوراً ويضل عباده ثم يتركه ويؤيده بالنصر ويجعل كذائبه تظهر بمظهر الصدق والنزاهة.

وكلنا يعلم أنه لو كان هنالك حاكم على بلد ما ورأى هذا الحاكم رجلاً يتكلم باسمه كذباً ويضل مواطنيه بتبليغهم قرارات كاذبة عنه، فإن يعاجل له

---

(1) لا تقفُ: لا تتبع.

بالعقوبة ولا يدع القرارات الكاذبة تأخذ منحى القرارات الصادقة وصورتها، أفلا يكون الله تعالى أغيَرُ على الحقِّ من ذلك الحاكم فيعاقب الكذّاب ويفضح كذائبه لئلا يلتبس الحق بالباطل على عباد الله.

لقد نبّه القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة في مواضع منها قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴾ [الحاقة: 44 - 47]، وقال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت: 53].

وقد قررت هذه الحقيقة أيضاً في العهدين القديم والجديد في مواضع وذكر فيهما أن الأنبياء الكذبة بالسيف والجوع يهلكون[1].

فانظر إلى حال محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام ومآل دعوته، فعلى العكس تماماً من حال الأنبياء الكذبة وُعِد بالحفظ والنصر وظهور دينه وتحقق كل ذلك؛ قال تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ ﴾ [المائدة: 67].

وقال سبحانه: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: 33].

لقد تحقق وعد القرآن الكريم له بالحفظ وظهور دينه على الدين كله مع الغرابة الشديدة المنظورة لذلك إبان بعثته، وما ذاك إلا لأن الإلـه الحقّ مؤيّدٌ لهذا الدين وراضٍ عنه، ومَنْ ينكر ذلك فهو يغمز في عدالة الله وحكمته.

* * *

(1) انظر: سفر التثنية، الإصحاح 18؛ ومزامير داود (1 - 5).

ثانياً ـ بشائر الإسلام في الكتب المتقدمة

تمهيد:

ذكر الله تعالى في القرآن الكريم أن الأنبياء السابقين قد بشّروا بخاتم الرسل محمد ﷺ، فمن ذلك ما ذكره سبحانه وتعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 146].

فلنستبن حقيقة هذا الذي أشار إليه القرآن في كتب أهل الكتاب، فهذه الكتب وإن أصابها شيء من التحوير وطمسٌ للحقائق إلا أن هذه الحقيقة ما تزال ماثلة فيها لمن تدبّرها.

قد يقول قائل: كيف تحتجّون بالتوراة والإنجيل وأنتم لا تؤمنون بكل ما فيهما؟

أقول: ليس كل ما في هذه الكتب باطلاً، لأن لها أصلاً إلـهياً صحيحاً، وأهل الكتاب يؤمنون بها فهي حجّة عليهم، أما بالنسبة إلى غيرهم فوجود هذه البشائر ظاهرة تسترعي الانتباه وتحتاج إلى تفسير، ولا تفسير لظاهرة وجود هذه البشائر إلا أن الأنبياء السابقين قد بشَّروا فعلاً بمحمد عليه الصلاة والسلام.

قبل أن نبحث في هذا الموضوع يجب علينا أن نثبت أن المسيح عليه الصلاة والسلام لم يكن خاتم الأنبياء كما يدّعي بعضهم، والدليل على ذلك من كتبهم أنه جاء في إنجيل يوحنا (1 - 46) أن اليهود أرسلوا إلى يوحنا المعمدان (يحيى) يسألونه عن نفسه، فقالوا له: أنت إيليا؟[1]، فقال: لا. فقالوا: أنت المسيح؟. قال: لا. فقالوا: أنت النبي؟. فقال: لا. مما يدلّ على أن التوراة تبشر بإيليا والمسيح ونبي لم يأتِ حتى عهد المسيح وهو نبي مشهور ومميز، لذلك استخدمت أل العهد للكلام عنه.

---

(1) يُذكر أن اسم الخَضِر إيليا وقد يكون هو إلياس.

وفي إنجيل متى (21 - 41 : 46) ينص على أن المنتظر[1] ليس من أبناء داود فكيف يُدَّعى أن المسيح هو ذلك المنتظر ولا نبيَّ بعده، وهو الذي تذكر له الأناجيل في أول صفحاتها نسباً ينتهي إلى داود، وتذكر الأناجيل أن الناس كانوا يتبعونه وينادونه يا ابن داود يا ابن داود.

ومما يدلّ أيضاً على أن المسيح عليه الصلاة والسلام لم ينفِ وجود نبيٍّ بعده أنه بيّن لأتباعه صفات الأنبياء الحقيقيين والكَذبة، فجاء في إنجيل متى (15 - 15) عن مدّعي النبوّة «من ثمارهم تعرفونهم، هل يجنون من الشوك عنباً، ومن العوسج تيناً، كذلك كل شجرة طيبة تخرج ثماراً طيبة، والشجرة الخبيثة تخرج ثماراً خبيثة».

فلو كان هو خاتم الأنبياء لقال: كل نبي بعدي كاذب، ولما احتاج الأمر إلى تحديد ميزان يبين الصادق من الكاذب، وقد كان المسيح عليه الصلاة والسلام يقول كما تذكر الأناجيل: «توبوا لأنه اقترب ملكوت السماوات» ولم يعلن أنه هو صاحب هذا الملكوت، بل ظاهر الكلام أن ذلك يكون بعده.

وقد جاء في مخطوطات البحر الميت المكتشفة حديثاً والتي اتفق الباحثون على صحتها أن المسيح مسيا[2] المسيحيين وهنالك مسيا آخر. وينقل الدكتور (فريدريك و. فارار) عن (أرنست رينان) قوله عن المسيح: «وأنه أعلن أنه سيأتي مسيا بعده»[3].

* * *

ولنشرع الآن في ذكر هذه البشارات:

1 - جاء في التوراة في سفر التثنية (33 - 2) ما يلي:

«جاء الرب من سيناء وطلع لهم من سعير وأشرق من جبل فاران وأتى مع

---

(1) كل منتظَر مرسَل يسميه الكتاب المقدس مسيحاً.

(2) المسيا: هو النبي المنتظَر، وقد أشار محمد العابدي في كتابه (مخطوطات البحر الميت) الذي جمع فيه عدة ترجمات لكتب أجنبية صدرت في الموضوع ص317 أن اليهود كانوا ينتظرون قبل المسيح رسولين اثنين حسب ما جاء في المخطوطات.

(3) حياة المسيح، ص831، فريدريك فارار.

ربـوات من القديسـين وفي يمينه نـارناموس لهم» وقد ذكر هذا النص الأستاذ عبد الأحد داود الذي كان قسيساً، ذكره من ترجمة أخرى بلفظ: «جاء الرب من سيناء وأشرق لهم من ساعير وتلألأ قدماً من جبل فاران وجاء معه عشرة آلاف قديس وفي يده اليمنى برزت نار شريعة لهم» كذلك ذكر الأستاذ عبد الحق فديا رتي صاحب كتاب (محمد في الأسفار العالمية) ذكر أن الأصل العبري فيه ما ترجمته «جاء معه عشرة آلاف قديس».

أقول: إن تجلّي الله تعالى في سيناء يشير إلى نبوة موسـى عليـه الصلاة والسلام وتلقيه التوراة هناك، أما ساعير فهي قرب بيت لحم وتجلي الله تعالى فيها يشير إلى نبوة المسيح فما هي فاران؟ تذكر التوراة في سفر التكوين (21 - 22) في قصة إسماعيل عليه الصلاة والسلام: «وكان الله مع الصبي وكبر وسكن في البرية وصار رماء بالسهام وأقام ببرية فاران» ففاران هي مكان سكن إسـماعيل عليه السلام، ومن المعروف تاريخياً أن إسماعيل سكن في مكة وكان من نسله العرب المستعربة سكان الحجاز.

والتوراة أيضاً تؤكد أن مكان سكن إسماعيل هو الحجاز، فقد جاء في سفر التكوين (18 - 25) أن مكان سكن بني إسماعيل بين حويلة وشور، وحويلة في جنوب جزيرة العرب وذات علاقة بحضرموت كما يذكر قاموس الكتاب المقدّس وكما تشير أسفار التوراة التكوين (10)، وشور شمال غرب جزيرة العرب، وهذا يعني أن موطن بني إسماعيل هو الحجاز وهذا نص توراتي صريح في ذلك.

وقد نقل عبد الحق فديار تي عن التوراة السامرية التي صدرت عام 1851: «أن إسماعيل سكن برية فاران بالحجاز وأخذت له أمه امرأة من أرض مصر».

هذا ومن المعروف عند العرب أن إسماعيل عليه السلام سكن في مكة، وقد نص جغرافيو العرب أن فاران من أسماء مكة فقد ذكر ياقوت الحموي في معجم البلدان أن فاران هي مكة أو اسم جبال مكة، وقد ذكر في كتاب الإعلام بأعلام بيت الله الحرام لقطب الدين النهرواني عدة أسماء لمكة من بينها فاران، كما ذكر في كتاب صفة جزيرة العرب للهمداني أن جبال الحرم تسمى جبال فاران.

فتجلي الله تعالى من فاران يشير إلى نبوة محمد عليه الصلاة والسلام وقد جاءها فاتحاً بعد أن هاجر منها وكان معه عشرة آلاف من أصحابه الأطهار كما هو

معلوم من سيرته، وهو العدد نفسه المذكور في النص التوراتي؛ وقد وصفت شريعته بأنها نارية لأنها تضمنت الجهاد.

وجاء في الإصحاح الثالث من سفر حبقوق «الله جاء من تيمان والقدوس من جبل فاران سلاه جلاله غطى السماوات والأرض امتلأت من تسبيحه. . . قدامه ذهب الوبأ وعند رجليه خرجت الحمى. . . ثقبت بسهامه رأس قبائله» يذكر قاموس الكتاب المقدس أن (تيمان) اسم عبري معناه الشرقي أو الجنوبي وقال عن (تيمن) الصحراء الجنوبية. انظر تيمان ويُذكر هنا أن بني إسرائيل لما كانوا في سيناء كانت جزيرة العرب في شرقهم لذلك هم يسمون بني قيدار (وهم العرب أبناء إسماعيل لأن قيدار ابن إسماعيل) بني المشرق انظر (أرميا 46) وقد يسمون أرضهم بالجنوبية.

فالنبوة المشار إليها في النص السابق هي من الصحراء الجنوبية وهي صحراء العرب، ولا يوجد صحراء جنوبية غيرها بالنسبة لأنبياء بني إسرائيل، والنبوة من فاران بالذات التي أثبتنا أنها مكة.

وهذا النبي يخرج أمامه الوباء والحمى، ومعلوم من سيرة محمد عليه الصلاة والسلام أنه لما هاجر إلى المدينة كانت أرض وباء وحمّى، ومرض أصحابه فدعا ربه قائلاً: «اللهمَّ صححها وبارك لنا في مُدّها وصاعها، وانقل حمّاها إلى الجحفة»[1] وقد صحت المدينة بعد ذلك.

والنبي المشار إليه نبي قوي يقاتل قبائله ويخضعها بالسيوف والسهام «ثُقبت بسهامه رأس قبائله» ولم تصدق هذه الصفة ولا الصفات السابقة إلا على محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام.

2 - جاء في سفر أشعياء إصحاح 21 جملة 13 فما بعد «وحي من جهة بلاد العرب، في الوعر من بلاد العرب، تبيتين يا قوافل الددانيين[2] هاتوا ماء لملاقاة العطشان يا سكان أرض تيماء[3] وافوا الهارب بخبزه فإنهم من أمام السيوف قد

---

(1) حديث صحيح رواه البخاري ومسلم.

(2) نسبة إلى ددان وهي في شمال جزيرة العرب كما رسمت في قاموس الكتاب المقدس، وقد كانت القوافل المتجهة إلى الشام تمر منها.

(3) تيماء: بلدة شمال جزيرة العرب، ويبدو أن النص يأمر أهلها بمساعدة النبي الذي هاجر=

هربوا من أمام السيف المسلول ومن أمام القوس المشدودة ومن أمام شدة الحرب فإنه هكذا قال لي السيد في مدة سنة كسنة الأجير يفنى كل مجد قيدار[1] وبقية القسي أبطال بني قيدار تضمحل».

يذكر النص نبوة تظهر في بلاد العرب، ولم يظهر في بلاد العرب نبوة غير نبوة محمد عليه الصلاة والسلام، وقد تلقّى محمد عليه السلام الوحي في مكة التي تقع بين سلاسل جبال وفي غار حراء فصدق أن نبوته تظهر في الوعر من بلاد العرب.

ومعلوم أنه فرَّ أثناء هجرته من أمام القوس المشدودة والسيوف المسلولة لأن قبائل مكة اتفقت على قتله، كذلك أصحابه فروا بدينهم إلى الشمال، وهذا معنى النص حيث يخاطب مَنْ في شمال جزيرة العرب «وافوا الهارب بخبزه فإنهم من أمام السيوف قد هربوا. . . » وبعد الهجرة بعام واحد حدثت غزوة بدر الكبرى، حيث قُتلت صناديد قريش وساءت سمعتهم، وهم أبناء قيدار، وهذا ما ذكره النص حيث قال: «في مدة سنة كسنة الأجير يفنى كل مجد قيدار وبقية القسي أبطال بني قيدار تضمحل» وقد اضمحلّت فعلاً جميع القسي الموجهة إلى محمد عليه الصلاة والسلام وأصحابه فيما بعد، فالنص صدق حرفياً ولا يمكن أن يصدق مع غيره.

وفي الإصحاح نفسه (1 ش 21) بشارة أخرى عن الإسلام: «وحي من جهة برية البحر كزوابع في الجنوب عاصفة يأتي من أرض مخوفة» وبرية البحر الجنوبية هي صحراء العرب المحاطة بالبحار، وقد وصف حملة الوحي بزوابع الجنوب العاصفة لأنهم انطلقوا من الجنوب مجاهدين، ووصفت أرضهم بأنها مخوفة لأنها صحراء مقفرة.

3 - جاء في سفر أشعياء إصحاح 42 ذكر لنبي «يُخرج الحق للأمم» «لا يكل ولا ينكسر حتى يضع الحق في الأرض وتنتظر الجزائر شريعته» وفيه: «أنا الرب هذا اسمي ومجدي لا أعطيه لآخر ولا تسبيحي للمنحوتات هو ذا الأوليات قد أتت والحديثات أنا مخبر بها قبل أن تنبت أعلمكم بها غنوا للرب أغنية جديدة

= إلى القرب منهم بالإيمان به.

(1) قيدار: هو الابن الثاني لإسماعيل كما تذكر التوراة، وأبناء قيدار هم العرب سكان الحجاز.

تسبيحة من أقصى الأرض أيها المنحدرون في البحر وملؤه والجزائر وسكانها لترفع البرية ومدنها صوتها الديار التي سكنها قيدار لتترنم (سالع)[1] من رؤوس الجبال ليهتفوا وليعطوا الرب مجداً ويخبروا بتسبيحه في الجزائر الرب يخرج كرجل حروب ينهض غيرته ويهتف ويصرخ ويقوى على أعدائه».

يذكر النص علامات لنبي يخرج في ديار بني قيدار، وقيدار قد جاء تعريفه في سفر التكوين (25 - 13): «وهذه أسماء بني إسماعيل التي ذكرت بها أنسابهم أن بكر إسماعيل بنايوث ثم قيدار. . .» فقيدار من أبناء إسماعيل وديارهم هي جزيرة العرب كما تدل التوراة وكما هو معروف عند العرب والمؤرخين.

إن النبيّ الوحيد الذي ظهر في بني قيدار هو محمد عليه الصلاة والسلام، وهو الذي هتف له أهل (سلع) وانطلقوا يغنون ويمجدون الله حين هاجر إليهم، إذ من المعروف أن في المدينة المنورة جبل يسمى سلع، هذا ولا يمكن أن يكون المقصود بهذه النبوة نبوة المسيح عليه الصلاة والسلام لأسباب، منها: أن المسيح لم يكن نبياً لجميع الأمم كما ذكر هو عن نفسه (انظر متى 15 - 24) وهذا النبي لجميع الأمم، كما أن المسيح لم يكن في ديار قيدار ولا كان رجل حروب قوي على أعدائه.

وقد نقل رحمة الله هندي في كتابه (إظهار الحق)[2] أن حيدر علي قرشي ذكر في كتابه المسمى (خلاصة سيف المسلمين) وهو بلسان أردو ص63 - 64 أن القسيس أوسكان الأرمني ترجم كتاب إشعياء باللسان الأرمني عام 1666 وطبع عام 1733 ويوجد في الترجمة من الباب 42 (وهو الإصحاح نفسه الذي نتكلم عنه) هذه الفقرة: «سبحوا الله تسبيحاً جديداً وأثر سلطته في ظهره[3] واسمه أحمد»[4]،

(1) سالع ويذكر أحياناً سلع وفي المدينة المنورة التي هاجر إليها الرسول ﷺ جبل يسمى إلى اليوم سلع.

(2) إظهار الحق: 443/2.

(3) يعني علامة سلطانه في ظهره، وقد كان محمد عليه الصلاة والسلام في ظهره عند ناغص كتفه اليسرى خاتم النبوة مثل بيضة الحجل. كذا ورد في صحيح مسلم.

(4) إن معنى كلمتي ممجد ومحمد متقاربان ويظهر أن أصل العبارة التي ترجموها «هذا اسمي ومجدي لا أعطيه لآخر» هذا اسم محمد (أو أحمد) لا أعطيه لآخر. فيجب النظر في الأصول المترجم عنها.

وهذا صريح في أن النبي المشار إليه هو نبي الإسلام الذي من أسمائه أحمد كما ذكر القرآن.

وجاء في الإصحاح الثاني من سفر حجي جملة 7 - 9: «ولسوف أزلزل كل الأمم، وسوف يأتي حِمَداً لكل الأمم». هكذا ذكر النص الأستاذ الكبير عبد الأحد داود الذي كان قبل إسلامه قسيساً، وذكر أن الأصل العبري يقرأ هكذا: «في يافو حِمْداث كُول هاجوييم» ويعني حرفياً: «سوف يأتي حِمدا لكل الأمم». وقد ترجمت وسوف يأتي مشتهى كل الأمم يذكر الأستاذ عبد الأحد أن كلمتيْ (حِمدا) و(أحمد) مأخوذتان من الجذر السامي نفسه وفيهما هذه الحروف الأصلية الثلاثة (حمد) فهما متوافقان في اللفظ والدلالة.

4 - جاء في مزامير داود (المزمور 118): «الحجر الذي رفضه البناؤون قد صار رأس الزاوية من قبل الرب وهو عجيب في أعيننا». وقد جاء مثل ذلك عن المسيح عليه السلام، ففي إنجيل متى (21 - 33 :45) ما نصه: «اسمعوا مثلاً آخر كان إنسان رب بيت غرس كرماً وأحاطه بسياج وحفر فيه معصرة وبنى برجاً وسلمه إلى كرّامين وسافر، ولما قرب وقت الإثمار أرسل عبيده إلى الكرّامين ليأخذوا أثماره فأخذ الكرّامون عبيده وجلدوا بعضاً وقتلوا بعضاً ورجموا بعضاً، ثم أرسل عبيداً آخرين أكثر من الأولين ففعلوا بهم كذلك، فأخيراً أرسل إليهم ابنه قائلاً يهابون ابني، وأما الكرّامون فلما رأوا الابن قالوا فيما بينهم: هذا هو الوارث هلموا نقتله ونأخذ ميراثه... فمتى جاء صاحب الكرم ماذا يفعل بأولئك الكرّامين قالوا: أولئك الأردياء يهلكهم هلاكاً ردياً ويسلّم الكرم إلى كرامين آخرين يعطونه الأثمار في أوقاتها، فقال لهم يسوع أما قرأتم في الكتب الحجر الذي رفضه (أو رذله) البناؤون هو قد صار رأس الزاوية من قبل الرب كان هذا، وهو عجيب في أعيننا لذلك أقول لكم إن ملكوت الله ينزع منكم ويعطى لأمة تثمر أثماره ومن سقط على هذا الحجر يترضض ومن سقط عليه هو يسحقه، ولما سمع الكهنة والفرّيسيون أمثاله عرفوا أنه تكلم عليهم».

أقول: إن رب البيت كناية عن الله تعالى والكرم والسياج وبناء البرج فيه عبارة عن الدين الصحيح وعمود إيمانه وحدوده من الأوامر والنواهي، والقوم الذين استعملوا فيه هم بنو إسرائيل الذين حملوا رسالة الله تعالى، والعبيد المرسلون من قبل رب البيت هم الأنبياء الذين كثروا في بني إسرائيل، والذي

أرسل أخيراً ودعاه الإنجيل بالابن هو المسيح عليه السلام الذي حاول بنو إسرائيل قتله، وقد صرَّح الإنجيل بأنه سيستعمل قوم بعد عهد المسيح في كرم الرب وهم من غير القوم الأوائل، أي من غير بني إسرائيل، وهذا واضح في قول الكهنة: «يسلِّم الكرم لكرَّامين آخرين» وقد أكد ذلك المسيح عليه الصلاة والسلام بقوله: «إن ملكوت الله ينزع منكم» أي من بني إسرائيل لأن الخطاب كان موجَّهاً إليهم.

فمن هي تلك الأمة التي دفع لها ملكوت الله لتثمر أثماره بعد نزع بني إسرائيل منه، ومن هو ذلك الحجر الذي توِّجَ به صرح الإيمان وكان في جعله رأساً للزاوية عجباً في أعين داود وأنبياء بني إسرائيل؟

إن داود عليه السلام ـ وهو من أنبياء بني إسرائيل ـ ما كان ليعجب من وضع الرسالة الخالدة الكبرى فيهم، لكنه يعجب هو والمسيح من كون صاحب الرسالة الخالدة الكبرى من بني إسماعيل أولئك الذين ازدراهم بنو إسرائيل واستصغروهم وأنهم أبناء أَمَة، وهذا معنى النص «الحجر الذي رذله البناؤون هو صار رأس الزاوية» والمسيح عليه السلام لما تكلَّم عن الحجر لم يكن يريد نفسه، لأن كلامه صريح في أن القوم الذين سيستعملون في كرم الرب يكونون بعد قدوم ابن رب البيت وإرادة الكرّامين الأوائل قتله، أي بعد عهد المسيح عليه السلام.

والمسيح لم يوصف قط بأنه حجر يطحن أعداءه ولم يكن هو الذي ينتزع الملكوت من بني إسرائيل كيف وهو من بني إسرائيل!!

جاء في أشعياء (8 : 13 - 17) في وصف هذا الحجر «يكون مقدساً وحجر صدمة وصخرة عثرة لبيتي إسرائيل وفخاً وشركاً لسكان أورشليم فيعثر بها كثيرون ويسقطون فينكسرون ويعلقون فيُلقطون صُرَّ الشهادة أختم الشريعة بتلاميذي».

لقد كان هذا الحجر الذي تُمم به صَرْحُ الإيمان فخاً وشركاً لبيتي إسرائيل[1] لأنهم اعتادوا أن يؤمنوا بنبي من قومهم فلما جاء النبي من قومٍ آخرين تأبت نفوس أكثرهم عن الإذعان له فسقطوا بهذا الفخ.

وفي الإصحاح الخامس لأشعياء يذكر نحو مثال الكرم الذي ذكره المسيح

---

(1) ذُكر في النص السابق لبيتي إسرائيل، والظاهر أنهما القسم الذي آمن بالمسيح والقسم الذي لم يُؤمن به.

عليه السلام ويصرح بأن العاملين فيه هم بنو إسرائيل، وينص على أنهم يطردون من الكرم وأن راية الحق ترفع بعد ذلك من بعيد حيث ينطلق منها جنود أقوياء يصفهم النص بالقوة والعزيمة: «فيرفع راية الأمم من بعيد ويصفر لهم من أقصى الأرض، فإذا هم بالعجلة يأتون سريعاً ليس فيهم رازح ولا عاثر. . . سهامهم مسنونة وجميع قسيهم محدودة».

لقد رفعت راية الحق للأمم ليس من أورشليم ولكن من أرض بعيدة عنها هذه المرة، ومنها انطلق جنود الفتح الأقوياء الذين يعرف التاريخ جيداً أنهم المسلمون أصحاب محمد عليه الصلاة والسلام، ويؤيد ذلك أن أشعياء يذكر في الإصحاح نفسه أنهم ينتشرون في مادي وعيلام وهي بلاد العراق وفارس كما تجد ذلك في خرائط الكتاب المقدس.

والجنود الأقوياء الذين فتحوا هذه البلاد هم المسلمون لا غيرهم.

يذكر أشعياء (57: 13): «أما المتوكل عليَّ فيملك جبل قدسي ويقول: أعدوا هيئوا الطريق، ارفعوا المعثرة عن طريق شعبي».

لقد أوصدت أورشليم ومدن فلسطين في وجه جنود الفتح الإسلامي، لكن أمر الله نفذ، فأبرم عقد السلام وزالت المعثرة وفتحت الأبواب المؤصدة، وقد أشار بعض رجال الدين المسيحي كما يذكر المؤرخون إلى أكمة مرتفعة مباركة أشاروا على المسلمين الفاتحين أن يبنو عليها مسجداً، فبنوا المسجد الأقصى الذي بقي مسجداً لهم، وهذا معنى النص «أما المتوكل عليَّ فيملك جبل قدسي».

ويذكر أشعياء (الإصحاح 19) عن مصر بأنها تؤمن بالمخلص الذي سيرسله الرب ويفتح الطريق بينها وبين آشور ـ وهي بلاد العراق ـ ويعبد الجميع رباً واحداً.

ولم تجتمع مصر مع العراق في ظل المسيحية ولا في ظل أي من أنبياء بني إسرائيل، إنما تحقق ذلك بعدما آمنت مصر والعراق برسالة الإسلام وكانتا في دولة واحدة.

وجاء في سفر التكوين (49: 10): «لا يزول القضيب من يهوذا ومشترع من بين رجليه حتى يأتي شيلون وله يكون خضوع الشعوب» وحسب ترجمة الأستاذ عبد الأحد داود: «لا يزول صولجان من يهوذا أو مشرِّع من بين قدميه حتى يأتي

شيلوه وله يكون خضوع الشعوب»[1].

أقول: الصولجان أو القضيب هو لا شك كناية عن الملك، والمشرِّع أو المشترع هو شريعة التوراة أو كتابها، وقول النص: «من بين رجليه» فلأن القارئ في كتاب الشريعة يضعه فوق ركبتيه وزوال ذلك يعني نسخ شريعة التوراة.

ومن ينتزع الملك وينسخ الشريعة السابقة ليس من بني يهوذا ـ وهم سبط النبوة في بني إسرائيل ـ بل من غيرهم، وبنبوته تكون النبوة قد انتقلت من بني يهوذا؛ وقد كان المسيح عليه الصلاة والسلام من بني يهوذا حسب ما يقولون، ولم ينتزع ملكاً قط، فليس هو المبشر به هنا حتماً، إنما المبشَّر به نبي قويّ تخضع له شعوب المنطقة، وعند ظهور علامة الخضوع هذه تكون شريعة التوراة قد نسخت، وقد خضعت المنطقة لمحمد عليه الصلاة والسلام وخلفاؤه الراشدون، وهذا يعني بوضوح أنه هو صاحب البشارة وأن دينه ينسخ شريعة التوراة.

وما جاء في سفر التثنية إصحاح 18: «أقيم لهم نبياً من وسط إخوتهم مثلك وأجعل كلامي في فمه» وإخوة بني إسرائيل هم بنو إسماعيل أي العرب الذين ظهرت فيهم نبوة محمد ﷺ.

من كل ما سبق نجد بوضوح أن أتباع محمد ﷺ هم القوم الذين دفع لهم ملكوت الله بعد نزعه من بني إسرائيل، ونبيهم عليه الصلاة والسلام هو حجر الزاوية في صرح بناء الإيمان العظيم، ومن لطائف الموافقات أن نبينا محمد ﷺ وصف نفسه بما يشابه وصف الأنبياء السابقين له بحجر الزاوية فقال: «مثلي ومثل الأنبياء قبلي كمثل رجل بنى بنياناً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة في زاوية من زواياه، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون: هلاَّ وضعت هذه اللبنة، قال: فأنا اللبنة، وأنا خاتم النبيين»[2].

5 - جاء في الإصحاح الثاني من سفر دانيال رؤيا فسّرها دانيال بأربع ممالك متعاقبة وهي أن الملك البابلي رأى تمثالاً من ذهب ذراعاه وصدره فضة، بطنه

---

(1) محمد في الكتاب المقدس، ص74، وكلمة شيلون أو شيلوه غير معروفة الدلالة تماماً عند أهل الكتاب، وهي لا ترد في كتابهم في غير هذا الموضع وقد ترجمها بعضهم: الذي سيرسل.

(2) رواه البخاري ومسلم.

وفخذاه من نحاس، ساقاه من حديد وقدماه بعضها حديد وبعضها خزف، ثم ينظر فيرى حجراً قطع بغير يدين فضرب التمثال فصار كعصافة البيدر، وصار جبلاً ملأ المكان. فيفسرها النبي دانيال للملك بأن مملكته هي الرأس الذهبي، وستقوم بعده مملكة أصغر، فمملكة ثالثة، ثم رابعة كالحديد بعض أجزائها مثلت بخزف لأن الخزف لا يمتزج مع الحديد فكذلك بعض أجزاء المملكة لا تكون متماسكة مع الأصل[1]، أما الحجر فيفسره دانيال بأنه مملكة الله التي يقيمها إلى الأبد وتفني تلك الممالك[2].

وقد وجدتُ أن تفاسير الكتاب المقدَّس توافق على أن الدولة الأولى هي البابلية الكلدانية كما فسرها دانيال، والثانية فارس ومادي، والثالثة دولة الإسكندر المقدوني، والرابعة الدولة الرومانية؛ لكنهم زعموا أن هذا الحجر هو المسيح! وهذا تفسير يكذِّبه التاريخ، فليس المسيح هو الذي حطَّم الدولة الرومانية وبقايا الدول في المنطقة وجعلها كعصافة البيدر، ولم يتملك المسيحيون بلاد العراق وما حولها إنما امتلك ذلك المسلمون، بعد أن فتحها أصحاب محمد عليه الصلاة والسلام. هذا وقد جاء في الإصحاح السابع من سفر دانيال رؤيا أخرى ذكرت الدول الأربع مع تفصيلات مهمة.

وخلاصة هذه الرؤيا أن النبي دانيال عليه السلام رأى ـ ورؤيا الأنبياء حق ـ خروج أربع حيوانات من البحر، الأول أسد وله جناحا نسر، والثاني دب في فمه ثلاثة أضلع، ثم نمر مجنح له أربع رؤوس، ثم حيوان هائل رابع له أسنان حديدية أكل وداس الباقي، وله عشرة قرون، ثم ظهر قرن صغير واقتلع ثلاثة قرون، وظهرت في هذا القرن فم وعيون بشرية تكلمت بعظائم، ثم يُرى في السماء عرش العلي الأعلى وآلاف الملائكة تقف بين يديه، ثم تفتح الكتب ويحترق جسم الوحش بالنار، لكن قرن الكفر يظل حياً؛ ثم يؤخذ (ابن الإنسان) محمولاً على السحاب حيث يمثل أمام الحي السرمدي ويتلقى منه القوة والسلطان إلى الأبد.

فيقترب النبي دانيال من أحد الوقوف أمام العرش ويسأله عن تفسير

---

(1) هذا الوصف يصدق تماماً على الدولة الرومانية، فقد كان أقباط مصر ينفرون من الاجتماع مع الرومان الذين يقولون بازدواجية طبيعة المسيح، وكان في أنحاء بلاد الشام اليعاقبة الذين يختلفون مع الروم في العقيدة بالإضافة لاختلاف الجنس والعرق.

(2) قارن مع وصف الأنبياء السابقين رسول الختام بأنه حجر يسحق أعداءه.

ما شاهده، فيخبره بأن الحيوانات الأربعة هي أربع ممالك، والوحش الرابع ذو القرون العشرة مملكة يظهر فيها عشرة ملوك، ثم ملك مخالف للباقي يبعد ويُذِل ثلاثة ملوك ويتكلم بكلام عظيم موجه ضد الذات العليا، ويحارب القديسين ويظن أنه يغيِّر الأوقات والشريعة، ويُسلَمون ليده وقت ووقتين وشطر وقت، ثم تدفع المملكة إلى قديسي العلي.

هذا خلاصة ما جاء في الإصحاح السابع من سفر دانيال. ولأجل توضيح الممالك المتتالية التي مُثلت بالوحوش الأربعة لا بد لنا أن نعلم أن البلاد التي عاش فيها دانيال ـ وهي الديار المقدسية والعراق ـ قد تتالى على حكمها منذ عهده الدول التالية: الدولة البابلية الكلدانية وقد عاصرها النبي دانيال، ثم الدولة الفارسية والمادية، ثم دولة الإسكندر المقدوني، ثم الدولة الرومانية، ثم الفتح الإسلامي.

فالدول المتتالية في هذه الرؤيا هي الدول نفسها المذكورة في الرؤيا السابقة، والثوابت التاريخية التي ذكرناها ليس لأحد فيها أي خلاف.

فالأسد الذي له جناحا نسر يرمز إلى الدولة البابلية الكلدانية وكان أهلها أشداء وكانت كالنسر المنقضّ على عدوّه.

أما الدب الذي يعض بفمه ثلاثة أضلع فهو الدولة الفارسية التي سيطرت على جانب من أوروبة وإفريقية وآسية، فهذه الأضلع الثلاثة تشير إلى جوانب القارات الثلاث المسيطر عليها، وقد وصف هذا الحيوان بأنه دب لأن الدب أقل شراسة من الحيوانات المذكورة، وقد كان الفرس أقرب إلى التسامح من غيرهم.

أما النمر ذو الرؤوس الأربعة فهو دولة الإسكندر المقدوني التي كانت تقفز بسرعة في فتوحاتها كالنمر، وقد انقسمت بعد وفاته إلى أربع ممالك، لذلك وصف النمر بأن له أربعة رؤوس.

أما الحيوان المخيف الرابع فهو الدولة الرومانية، والقرون العشرة التي ظهرت فيه والتي فسّرها دانيال بملوك عشرة هم الملوك الذين اضطهدوا المسيحيين، وعددهم عشرة بالضبط كما يذكر المؤرّخون[1].

---

(1) انظر الروم: 33/1، لأسد رستم.

وبعد اضطهادات العشرة مرت الإمبراطورية الرومانية بظروف شاذة، فظهر فيها بآن واحد ثلاثة أباطرة لكن القيصر قسطنطين حارب هذه الأطراف الثلاثة وانتصر عليها وأقصاها وأصبح هو الحاكم الفرد للإمبراطورية(1) فلا شك أنه هو المشار إليه بالملك الذي يبعد ويذل له ثلاثة ملوك من ملوك الدولة الرومانية. لقد خالف قسطنطين سياسة الاضطهادات الوحشية التي كان يمارسها أسلافه ضد المسيحيين، فأعلن تنصّره، وحصل برعايته مجمع نقيه لتحديد طبيعة المسيح، فنصر فيه فكرة بولس القائلة بالتجسد الإلـٰهي في شخص المسيح، وحارب الآريوسيين الذين ينكرون فكرة لاهوت المسيح، وغيَّر قسطنطين مواعيد الأعياد الدينية التي كانت معروفة عند بني إسرائيل، وغيَّر العطلة الرسمية من السبت إلى الأحد، وسنَّ منهج فرض ألوهية المسيح الذي عمل به خلفاؤه من بعده ثلاثة قرون ونصف تقريباً حتى جاء الفتح الإسلامي.

فالكلام العظيم الذي قاله قرن الكفر هو ألوهية المسيح الذي هو بشر خلقه الله تعالى، وقد وصف هذا القرن بأن له فماً وعيوناً بشرية مفزعة لأن كيده للإيمان كان كيد إنسان عاقل لا كيد مضطهد متوحش، ومحاربته للقديسين هي محاربته للموحدين، وتغييره الأوقات والشريعة هو تغيير الأعياد الدينية المعروفة عند بني إسرائيل، وتغيير يوم العطلة المقدّس وتغيير معالم شريعتهم، وكونهم يسلمون ليده وقت ووقتين وشطر وقت هو إشارة إلى القرون الثلاثة والنصف التي ساد فيها نهج قسطنطين حتى جاء الفتح الإسلامي.

أما ابن الإنسان الذي حُمل على السحاب وزار الملأ الأعلى فهو محمد ﷺ ورحلته هذه صدقت على رحلة الإسراء والمعراج التي زار فيها الملأ الأعلى.

وقديسو العلي الذين دفعت لهم المملكة هم أصحاب محمد ﷺ فهم لا غيرهم الذين انتزعوا المملكة من الرومان.

وهكذا نجد أن الأحداث التاريخية قد تنزلت حرفياً على الرؤيا ولا يمكن الفرار من الإذعان من أن قسطنطين هو قرن الكفر لأنه هو الذي ظهر بعد الحكام المضطهدين العشرة وخالفهم، وهو الذي أذل وأبعد ثلاثة ملوك مثلت بقرون

---

(1) انظر الروم: 52/1، لأسد رستم.

صغيرة من نفس جسم الوحش الممثل للدولة الرومانية، وهذا وصف مميز لا يمكن أن يصدق على غيره.

ولا يمكن الفرار من الإذعان من أن ابن الإنسان هو محمد ﷺ وأصحابه هم قديسو العلي لأن أصحابه هم لا غيرهم الذين انتزعوا الديار المقدسة من الرومان.

6 - جاء في الإصحاح التاسع لدانيال: «سبعون أسبوعاً مقضية على شعبك وعلى مدينتك المقدسة لتكميل المعصية وتتميم الخطايا ولكفارة الإثم وليؤتى بالبر الأبدي ولختم الرؤيا والنبوة».

إن النص يفيد أن بني إسرائيل سيعاقبون وتذل المدينة المقدسة التي كانوا فيها سبعين أسبوعاً - والأسبوع هنا سبع سنوات باتفاق الشراح - يتلو ذلك البر الأبدي الذي هو النبوة الخاتمة التي تختتم رؤى دانيال التنبؤات بالتنبّؤ عنها.

الظاهر أن بداية العقوبة لهم تكون بعد صدور كبريات المعاصي منهم أي أن اللام في قوله: «لتكميل المعصية وتتميم الخطايا» هي لابتداء الغاية.

وقد كتبوا التلمود الذي هو في غاية العنصرية عام 132م وفي العام نفسه جاءهم العقاب على يد الرومان حيث دمّر هيكلهم وأُبعدوا عن الأرض المقدّسة[1].

إذن العام 132م هو ابتداء العقوبة، فإذا أضفنا لها 490 سنة وهي سبعون أسبوعاً ينتج العام 622م وهو العام الذي هاجر فيه محمد ﷺ إلى المدينة المنوّرة وبرزت فيه دولة الإسلام إلى الوجود. وقبيل الفتح الإسلامي كان الفرس قد فتحوها وأعطوا اليهود حريتهم، ثم عاد الرومان، ثم تلاهم سريعاً المسلمون في عام (14)هـ. فكانت هذه السنوات الـ(14) مقابل السنوات الـ(14) التي حكم فيها الفرس، وتكون عقوبة الرومان لليهود قد استمرّت سبعين أسبوعاً بالضبط تلاه الفتح الإسلامي، والنص يذكر أنه يتلوه البر الأبدي وختم النبوة[2].

وفي آخر سفر دانيال يسأل هذا النبي الملاك بعد أن أخبره عن عجائب

(1) انظر تاريخ سورية الدنيوي والديني: 574/3 - 575، للمطران يوسف الدبس.
(2) قد شرح هذا النص والذي قبله في السفر بشكل مفصل أحمد ترجمان في كتابه (فتح الملك العلام في بشائر دين الإسلام).

ستكون: «فقلت يا سيدي ما هي آخر هذه؟ فقال: يا دانيال! الآن الكلمات مخفية ومختومة إلى وقت النهاية، كثيرون يتطهرون ويبيضون ويمحصون، أما الأشرار فيفعلون شراً ولا يفهم أحد الأشرار، لكن الفاهمون يفهمون، ومن وقت إزالة المحرقة الدائمة وإقامة رجس المخرِّب ألف ومئتان وتسعون يوماً، طوبى لمن ينتظر ويبلغ إلى الألف والثلاث مئة والخمسة والثلاثين يوماً».

لقد أخبر الملاك النبي دانيال عليه السلام أن الكلمات مختومة ومستورة إلى النهاية فلماذا؟ لأن هنالك أشراراً يفعلون شراً، هذا الشر هو طمس كل بشارة نبوة تدعوهم عصبيتهم إلى طمسها، لذلك كانت الكلمات مستورة لئلا يراها هؤلاء، لكن المطهرون يوفقهم الله تعالى فيفهمونها يمحصون العبارات ويبيِّضون أي يجلّون الحقيقة للناس.

إن ابتداء حساب المدة للبشرى الحسنة الأخيرة التي يقول النص: طوبى لمن يدركها هو من رجس التخريب.

عن أي تخريب يتحدث النص؟ الظاهر أنه بداية التخريب للمدن التي عاش فيها بنو إسرائيل، أي وجود جنس التخريب، وقد حصل أول تخريب لمدنهم عام 721ق.م، حيث خربت السامرة ودمرت المعابد والمحارق التي فيها على يد الآشوريين[1].

فإذا أضفنا الـ721ق.م 1290 ينتج العام 569م ونحو هذا التاريخ ولد محمد ﷺ فهو قد ولد عام 570م أو 571م، نعم يوجد فرق بنحو عام لكانه فرق ضئيل لا اعتبار له، لأن تحديد تاريخ خراب السامرة المغرق في القدم قد لا يكون مضبوطاً مئة بالمئة، وقد يكون النص قد أهمل على سبيل التقريب العام بجانب 1290 خصوصاً أنه لم يذكر هنا كسور عقود.

وإذا أضفنا 1335 إلى 721ق.م ينتج العام 614م وهو يوافق تاريخ الجهر بالدعوة الإسلامية وذيوع أمرها، وهذا ما قال عنه النص: طوبى لمن أدرك ذلك[2].

---

(1) تاريخ سورية الدنيوي والديني: 546/2، للمطران يوسف الدبس.

(2) لا يستطيع أهل الكتاب حمل النص على محمل سائغ لديهم، لأنهم إن حسبوا المدة من تخريب آخر واقع بعد التخريب الأول، فستقع البشرى الحسنة ضد حكم الدولة الإسلامية.

7 - ظهرت وثيقة تاريخية هامة هي إنجيل برنابا تبشر بصراحة بالنبي محمد ﷺ، هذه الوثيقة عثر عليها عام 1709 في أمستردام وهي باللغة الإيطالية، وقد انتقلت إلى مكتبة بلاط ڤيينا وهي محفوظة فيها إلى اليوم.

وقد عثر على نسخة أخرى من هذا الإنجيل مكتوبة بالإسبانية، وقد كتب عليها أنها مترجمة عن الإيطالية، وأن نسختها الإيطالية قد اختلسها راهب لاتيني يدعى (فرامرينو) من مكتبة البابا (ستكس الخامس)، وطالعها بشغف فاعتنق الإسلام؛ وقد فقدت هذه النسخة ولم يبقَ منها إلا مقتطفات ذكرها الدكتور (هويت) أحد الأساتذة الذين دفعت لهم النسخة، ويقول (خليل سعادة) مترجم الإنجيل: إنه قابل الفقرات المنقولة عن النسخة الإسبانية بالنسخة الإيطالية التي ترجمها فلم يجد بينهما خلافاً يستحق النظر[1].

وذكر الدكتور (محمد عطاء الرحيم) أستاذ علم اللاهوت في جامعات لندن وأدنبره وعليكر في الهند، أن هنالك نسخة من هذا الإنجيل باللغة اليونانية محفوظة في متحف أثينا وهي من بقايا النسخ التي أتلفت.

وقد جاء هذا الإنجيل بالتوحيد الخالص ونفي الصلب[2] والتبشير

---

(1) وجود بعض الخلافات بين النسختين يرجح أن النسخة الإيطالية التي ترجم عنها الإنجيل ليست هي النسخة التي اختلسها فرامرينو.

(2) يذكر إنجيل برنابا أن الله تعالى ألقى الشبه على يهوذا الإسخريوطي وصلب وأنجى الله المسيح عليه السلام، وهذا يتوافق مع قوله تعالى: ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ﴾ [النساء: 157]، وقد تنبأ المسيح عليه السلام بخلاصه من قبل فجاء في(يوحنا 7 - 32): «ستطلبوني ولا تجدوني حيث أكون أنا لا تقدرون أنتم أن تأتوا» وجاء في الأناجيل قول المسيح عن الليلة التي يحاولون بها صلبه: «كلكم تشكّون في هذه الليلة» ففيمَ الشك؟ إنه لا يمكن أن يكون في العقيدة الصحيحة، ولكنه الشك في مسألة صلبه بعد أن ألقى الله الشبه على يهوذا الأسخريوطي، وقد تنبأت المزامير عن نجاته في نصوص كثيرة منها: «الآن عرفت أن الرب مخلص مسيحه يستجيبه من سماء قدسه بجبروت يمينه» (مز20) وفي (مز21): «لأنهم نصبوا عليك شراً تفكروا بمكيدة لم يستطيعوها» ويصف المزمور (16) الذين أسرعوا وراء صلب يهوذا وجعلوا منه المسيح ومن سفك دمه خلاصاً «تكثر أوجاعهم الذين أسرعوا وراء آخر لا أسكب سكائبهم من دم ولا أذكر أسماءهم بشفتي». وهنالك نصوص أخرى، انظر: (المسيح في مصادر العقائد المسيحية)، لأحمد عبد الوهاب.

بالإسلام، قد ذكر اسم محمد صراحة؛ ففي الفصل السابع والتسعين مثلاً قول الله عن رسول الختام: «متى أرسلتك إلى العالم أجعلك رسولي للخلاص وتكون كلمتك صادقة حتى أن السماء والأرض تهنان ولكن إيمانك لا يهن إن اسمه المبارك محمد».

ولما كان هذا الإنجيل يقول بالتوحيد الخالص ويبشر بالإسلام فقد أنكره النصارى وزعموا أنه من عمل المسلمين، وهذا الزعم مردود للاعتبارات التالية:

1 - قد حفظ لنا التاريخ كتابات ومراسيم وفهارس تعود إلى ما قبل ظهور الإسلام، وجميعها ذكرت إنجيل برنابا.

فكما يذكر الدكتور محمد عطاء الرحيم أستاذ علم اللاهوت أن كتابات إيرانيوس (30 - 200)م أظهرت أن هذا الإنجيل(1) كان معروفاً في القرنين الأول والثاني بعد الميلاد، وكان إيرانيوس يندد ببولس ويكثر من الاستشهاد بإنجيل برنابا.

ويذكر الباحثون أن البابا داماسوس (304 - 384)م الذي جلس على كرسي البابوية عام 366 قد أصدر مرسوماً بتحريم قراءة إنجيل برنابا، هذا المرسوم قد عززه وسانده الأسقف جيلاسيوس أسقف قيساريا الذي مات 395م.

وقد ذكرت دائرة المعارف الإنكليزية تحت عنوان ابوكريفل أن جيلاسيوس الأول أصدر حكماً قاطعاً أن تترك الأناجيل التالية سدى: إنجيل برنابا، إنجيل تدويس، إنجيل جيمس، إنجيل برتولوماس، إنجيل أندريو.

ويذكر الدكتور محمد عطاء عبد الرحيم أن هنالك عدة مراسيم أشارت إلى هذا الإنجيل ومنعته، فقد منع بمرسوم صادر عن الكنائس الغربية عام 382م، وكذلك عن البابا الطاهر 465م، أما المرسوم الغلاسي الصادر عام 496م فإنه قد أدرج اسم إنجيل برنابا في قائمة الكتب الممنوعة، وقد ثبَّت هذا المرسوم البابا هور ميسداس منذ عام 514م والذي بقي إلى عام 523. وجميع هذه المراسيم مذكورة في قائمة المخطوطات اليونانية في مكتبة رئيس القضاة (سيجوير) وقد قام على تنظيمها (ب منتغاكون) (1655 - 1741م).

---

(1) إنجيل برنابا.

وجاء في مخطوطات بيسيفورس ما يلي:

الرقم المسلسل (24) الإنجيل بحسب معتقدات برنابا، هذه القائمة المشهورة بالفهرس لم يسمح للمسيحيين أن يقرؤوا أي كتاب منها تحت طائلة العذاب الأبدي

وقد أدرج (كوتيليريوس) ـ الذي نظَّم مخطوطات مكتبة الملك الإفرنسي ـ اسم إنجيل برنابا في فهرس الأناجيل الذي أعده عام 1789 وقد سجّل هذا الإنجيل في مخطوطات (206) في مجموعات باروكيان، وفي مكتبة بودليان في أكسفورد.

وفي السنة الرابعة من حكم الإمبراطور زينو 478م اكتشفت جثة الحواري بارنابا وكان على صدر الجثة نسخة من إنجيل بارنابا مكتوبة بخط يده وهذا مسجل في (أكتاسانكتورام يولند جوني توما II) على الصفحات (422 - 450) المنشورة في مدينة انتويرب عام 1698 [1].

ويقول القس الدكتور (تشارلس فرنسيس بوتو) في كتابه (السنون المفقودة من عيسى تكشف): «إن إنجيلاً يدعى إنجيل برنابا استبعدته الكنيسة في عهدها الأول والمخطوطات التي اكتشفت حديثاً في منطقة البحر الميت جاءت مؤيدة لهذا الإنجيل».

ويقول القس (أباول ديفز) رئيس كنيسة كل القديسين في كتابه (مخطوطات البحر الميت) في الصفحة الأولى: «إن مخطوطات البحر الميت ـ وهي من أعظم المكتشفات منذ قرون عديدة ـ قد تغير الفهم التقليدي للإنجيل».

ونحن ليس في يدنا ترجمة كاملة لهذه المخطوطات، وإن كان الباحثون الأجانب قد ذكروا في أبحاثهم عنها أنها تنص على إرسال رسولين قبيل عهد المسيح[2]، وإن التوافق بين إنجيل برنابا وبين مخطوطات البحر الميت والواقع لا يمكن أن يكون محض صدفة.

2 - قد ظهر هذا الإنجيل في بيئة مسيحية خالصة لم يجرِ عليها إمرة مسلم، فقد ظهر باللغتين الإيطالية واليونانية، وكما يذكر خليل سعادة مترجم الإنجيل

---

(1) ماسبق عن كتاب (عيسى يبشر بالإسلام)، ص72 فما بعد، للدكتور محمد عطاء الرحيم.
(2) انظر مخطوطات البحر الميت، ص317، لمحمد العابدي.

فإن ورق النسخة الإيطالية وكما تدلّ الآثار المائية التي فيه ـ وهي الآثار التي تظهر على الـورق متى استشففته ـ هو خاص بنوع من الورق الإيطالي على ما قالـه مشاهير الأخصائيين وليس له مثيل في الشرق.

وأعتقد أن النسخة اليونانية مكتوبة قبل الإسلام لأن الأصل الذي ترجمت عنه جميع الأناجيل هو أصل يوناني، ولم يذكر هذه النسخة خليل سعادة مترجم الإنجيل حيث لم يكن له علم بها على ما يظهر، وذكر هذا النسخة الدكتور محمد عطاء الرحيم أستاذ علم اللاهوت.

وحبذا لو طالبت الدول والهيئات الإسلامية بتشكيل لجنة دراسة محايدة يشارك فيها المسلمون لدراسة هذه النسخة اليونانية من إنجيل برنابا ووثائق البحر الميت وغيرهما مِن الوثائق.

يذكر خليل سعادة أن دارسي الإنجيل شهدوا أن لكتابه إلماماً عجيباً بأسفار العهد القديم، بحيث لا نكاد نجد له مثيلاً بين طوائف النصارى إلا في أفراد قليلين ممن وقفوا حياتهم على الدين كالمفسرين، حتى أنه لينذر ـ كما يقول خليل سعادة ـ أن يكون بين هؤلاء من له إلمام يقرب من إلمام كاتب إنجيل برنابا، وفيه تفصيلات مسهبة لأمور لم يرد لها ذكر في الأناجيل إلا على طريق الاقتضاب، وبعضها ليس له ذكر مطلقاً وعليها صبغة القدمية.. هذا ولا يظهر على الكاتب تأثر بأساليب المسلمين وهو يسمي الملائكة بغير الأسماء الواردة في القرآن؛ فمثلاً يسمي ميكائيل: ميخائيل، وإسرافيل: أوريل، ولا يخلو من مخالفات جانبية يخالف بها القرآن، لكن ليس في المسائل الاعتقادية الأساسية، وكل ذلك يدل على أن كاتبه ليس من المسلمين.

3 - إن مما يشهد لصدق هذا الإنجيل أنه لا يظهر فيه إبهامات وتناقضات في عبارات المسيح، بل هو يلقي الضوء على نصوص وعبارات أوردتها الأناجيل المعترف بها مبهمة ومبتورة. ولنضرب بشيء من الأمثلة على ذلك:

يذكر برنابا في الفصل الثالث والأربعين منه أن المسيح سأل تلامذته: «ومتى جاء رسول الله فمن نسل من يكون أجاب التلاميذ من داود فأجاب يسوع لا تغشوا أنفسكم لأن داود يدعوه بالروح رباً قائلاً هكذا قال الله لربي اجلس عن يميني حتى أجعل أعداءك موطئاً لقدميك فإذا كان رسول الله الذي تسمونه مسيا ابن داود

فكيف يسميه داود رباً[1]. صدقوني أقول لكم الحق إن العهد صنع بإسماعيل لا بإسحاق» والأناجيل المعترف بها تذكر أيضاً أن المسيح قد أنكر أن مسيا هو ابن داود واحتجَّ بالحجة نفسها التي ذكرها برنابا انظر (مت 22 - 41) (مر 12 - 35) وقد ناقض أصحاب هذه الأناجيل أنفسهم عندما زعموا أن المسيح ابن داود وزعموا أنه وحده المنتظر، ولم يبيّنوا لماذا احتجّ المسيح هذا الاحتجاج ونفى أن المنتظر ابن داود بخلاف برنابا الذي ألقى الضوء على ذلك.

تتفق الأناجيل المعترف بها مع إنجيل برنابا في أن المسيح انتهر تلامذته الذين قالوا عنه حين سألهم عن نفسه «مسيح الله» أي رسول الختام المنتظر، ويذكر متّى (16: 23) وبرنابا أن المسيح قال عن بطرس: شيطان، حينما قال ذلك فلماذا؟ أما تعليل برنابا فلأنه ـ أي المسيح ـ ينكر أنه رسول الختام ويشتد على من يذكر ذلك. أما عند الآخرين فلأنه لا يريد أن يُعلِم الناس بنفسه! فأي التفسيرين هو المقبول؟ هل كان المسيح يخفي هويته حتى في أحاديثه الخاصة مع صفوة تلامذته؟! وهل يستحق تلميذه الأول لقب شيطان إن صرح بالحقيقة أمامه؟ وفي أي شيء كانت مجادلات ومناقشات المسيح مع الكهنة والفرِّيسيين إن كان يخفي هويته ولا يبشر بنبي قادم؟.

يذكر برنابا أن اليهود حقدوا على المسيح لأنه يبشر بنبي من غير قومهم فجاء فيه (142 - 19) «ماذا يكون الثمر إذا تركنا هذا الإنسان يعيش؟ من المؤكد أن الإسماعيليين يصيرون ذوي وجاهة عند الرومانيين فيعطونهم بلادنا ملكاً».

أما يوحنا فيوافق على أن سبب حقدهم عليه عصبية لقومهم لكنه يقول: «إن تركناه هكذا يؤمن الجميع به فيأتي الرومانيون ويأخذون موضعنا وأمتنا.. فمن ذلك اليوم تشاوروا ليقتلوه» (يو 11 - 45 - 53).

لنناقش عبارتي هذين الإنجيلين: هل خشي الإسرائيليون من أن يأتي الرومانيون من جراء دعوة المسيح، أم خشوا من الإسماعيليين الذين يبشر بنبي منهم؟ لقد كان الرومان محتلين لأورشليم قبل المسيح بثلاث وستين سنة، وما كانت دعوة المسيح لصالح القوم الروماني، فلا شك أن عبارة برنابا هي المعقولة،

---

(1) أي كيف يدعوه سيدي ووجه الحجة أن الوالد لا يقول لابنه سيدي، وما نقله المسيح عن داود مذكور في المزامير (110).

أما عبارة يوحنا فهي متناقضة مع الواقع.

يتفق إنجيل برنابا مع الأسفار المعترف بها عند أهل الكتاب على وجود تشاجر بين برنابا وبولس افترقا بعده (أع15: 39). أما تعليل برنابا لذلك فهو وجود اختلاف في العقيدة، فبولس كان يقول المسيح ابن الله وينكر ذلك برنابا بشدة. أما أعمال الرسل (15: 39) فيرد ذلك إلى سبب تافه وغير مقنع هو أنهما اختلفا هل يصطحبا معهما مرقس في رحلة لهما أم لا. فأي التفسيرين هو المقنع؟ وإن لم يكن هنالك اختلاف حول العقيدة فما بال مراسيم عديدة تمنع تداول ما كتبه برنابا؟ ولماذا كان الموحدون أمثال (إيرانيوس) ينددون ببولس ويحتجون بكلام برنابا؟.

لا شك أن الإنجيل الذي يُظهر عبارات المسيح واضحة ومفهومة أولى بالصواب من الذي يظهرها بشكل مبهم ومتناقض.

أخيراً نجيب عن ما رجّحه خليل سعادة فهو قد غلبت عليه خلفيته المسيحية في نهاية مقدمته فرجح أن أصله عربي، وكان متحلياً بالموضوعية في بداية المقدمة، وقد استدلّ على ما ذهب إليه بأنه يتوافق مع القرآن الكريم في كثير من النقاط وبأنه ذكر اسم محمد صراحة.

أقول: إن توافقه مع القرآن لا يدل بوجه من الوجوه على أن أصله عربي، بل صحة هذا الإنجيل تقتضي أن يتوافق مع الدين الذي بشّر به كدين إلـهي صحيح، لأن الرسالات الآتية من عند إلـه واحد متوافقة ولا اختلاف فيها.

ومن غير المستنكر أن يذكر اسم محمد صراحة لأن المقام يحتاج الإبانة والإيضاح لا الإبهام.

وقد جاء اسم محمد أو أحمد في عدة نصوص كترجمة (أوسكان الأرميني) لكتاب أشعياء والتي سبق ذكرها.

وقد نقل الشيخ أحمد بيرم عن رحالة إنكليز حدثه أنه رأى في دار الكتب البابوية في الفاتيكان نسخة من الإنجيل مكتوبة بالقلم الحميري قبل بعثة النبي وفيها يقول المسيح: «ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد».

هذا وقد نقل مؤرخ يهودي سامري هو أبو الفتح بن أبي الحسن السامري في

كتابه (التاريخ مما تقدم عن الآباء) عن عالم يهودي كبير هو أبو الفرج بن كثار نصاً قديماً باللغة العبرية السامرية كانت شائعة قبل تغيير العبرانيين للخط العبري بعد الرجوع من سبي بابل، وهذا النص نقل صريح للسلف اليهود عن محمد عليه الصلاة والسلام قبل بعثته كما أوضحوا، وهذه صورة للصفحة التي يذكر فيها ذلك من كتابه[1].

صفحة من كتاب التاريخ مما تقدم عن الآباء:

مفتوحا وخرج منه كلب فلما رأوه جلوا وراءه الى الهلب وما علو
بهم وركبوا وبقى القتل فى المدينة واقاموا يوما كاملا يقتلوا فى
السوق السفلانى قبل يعلم الفوقانى لانها كانت مبنية مدينة فوق
مدينة ومن قدر يهرب فى البحر ومن استسلم لهم سلم وانفاتحت
المدينة وسكنوا فيها فلما فتحوها حلت هيبتهم على سائر الاماكن
هولاء بنى اسمعيل احاطوا كل الاماكن ورتب الجزية اربعة دراهم ومخلاة
شعير من سوى خراج الارض ومحمد ما اساء الى احد من اصحاب
الشرائع وجمعت من لفظ الحكيم وهو نقل عن كاتبه المنقول منه
العلامة فاضل الموجود الشيخ نفيس الدين ابى الفرج بن كثار ان
جاء فى نقل السلف عن محمد وهو [illegible]
[illegible].

واقام محمد فى المملكة عشر سنين وكل العالم طائعين له ومنذ
انتقلت مملكته الى اقاربه بنى امية على ما اوصاهم لم يزيدوا ولا
ينقصوا ولا اسوا الى احد قط وقام منهم تسعة عشر ملكا اولهم
محمد عاش ثلاثة وستين سنة ثلاثة واربعين سنة لم يتعرض الى
شىء وعشر سنين للحروب وعشر سنين نبى وملك ومنذ ملكه
الاسلام الى مروان الاخر من بنى امية مئة وواحدة وثلثون سنة.

1. مفتوحا cod. مفتوح — 3. السوق cod. الشوق — 7. الارض Finis narrationis e codice C. petitae. — 12. Abhinc sequitur primum hujus chronici additamentum, quod in codicibus A. C. legitur. — 14. ملكا codd. ملكى.

---

(1) نقلاً عن كتاب (البشارة ببني الإسلام في التوراة والإنجيل)، للدكتور أحمد حجازي السقا، ص49؛ وكتاب التاريخ مما تقدم عن الآباء كتبه أبو الفتح السامري 756هـ بنابلس، وطبع في ألمانيا 1865م، وقد ترجم للعربية ترجمةً ركيكةً.

ثالثاً ـ الإعجاز العلمي في القرآن الكريم

قد نشأ في عصرنا الحديث ومع الاكتشافات العلمية الحديثة ـ علم الإعجاز العلمي في القرآن، وهو ككل علم بدأ ضيقاً ووقع فيه بعض الباحثين بأخطاء، ثم أخذ يتوسع باطراد وينقح حتى غدا علماً جليلاً لا يطلع عليه منصف إلا حكم بأهميته البالغة.

ومما يشرفني أن أساهم في هذا العلم وأكشف عن إعجازات جديدة تضاف كلبنات إلى بنائه السامق.

وقد تضايق كتّاب غير إسلاميين من هذا النهج فأخذوا يهاجمونه تحت اسم موضوعية البحث العلمي، ويقولون: إن النصوص التاريخية يجب أن لا تخرج عن روح وطبيعة عصرها، فلا يجوز تفسير الكتاب والسنة على معانٍ جديدة لم تكن معروفة في العصر الأول.

نقول لهؤلاء: صحيح أنه لما يكون النص التاريخي قد قاله إنسان من عند نفسه فإنه يبقى محكوماً بمفاهيم عصره، لأن الإنسان لا يخرج بفكره عن إطار عصره، لكن لما يكون قائل هذا الكلام هو رب العالمين المطّلع على كل شيء، والذي أنزله خطاباً للناس في مختلف عصورهم، فأي مانع يمنع احتواءه على إشارات علمية؟

ونحن لا نفترض مسبقاً أن القرآن من عند الله قبل أن نقدّم الدليل على ذلك، وإنما نقول: يجب أن تفسر آيات الكتاب الكريم وفق ضوابط اللغة، ولا يجوز رد تفسير بحجة كونه يتضمن أفكاراً علمية لم تكن معروفة في عصر التنزيل، لأن الذي يقول ذلك يفترض مسبقاً أن القرآن من عند البشر لا من عند الله، وهو لم يقدِّم دليلاً على ذلك.

وسيرى القارئ الكريم أنَّ الإعجاز العلمي كثير وواضح في الكتاب العزيز من غير أن نتكلف جر العلم إليه، بل سيرى القارئ أن حجب العلم عنه فيه تكلف غير مقبول. وإليك بعض آيات الكتاب الكريم المتضمنة إعجازاً علمياً.

● **نقص الأوكسجين في الارتفاعات:**

قال الله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: 125]، تنص هذه الآية الكريمة على أن الإنسان عندما يصّعّد في السماء أي يرتفع في أعالي الجو يضيق صدره، ويشعر بالاختناق، وهذه حقيقة علمية سببها أن نسبة الأوكسجين تقل كلما ارتفعنا إلى أعلى كما يقل الضغط الجوي، وهذا السببان يجعلان الإنسان يشعر بضيق التنفس.

● **حركة النجوم والكواكب في مداراتها:**

كان الناس يرون أن الأرض مركز الكون ويدور حولها الشمس والقمر والنجوم السيارة، ويرون نجوماً ثابتة الموضع طوال السنة فيصفونها بالثبات.

ثم حدث في عصر (غاليلو) رأي يعتبر أن الأرض هي التي تدور حول الشمس والشمس هي مركز الكون؛ أما القرآن الكريم فقد رفض قبل ذلك جميع الآراء التي تزعم أن للكون مركزاً ثابتاً، قال تعالى: ﴿وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: 40]، وكان ذلك في عصره سبقٌ علميٌّ.

هذا وتفيدنا معاجم اللغة أن حركة رأس المغزل اليدوي أثناء النسج تسمى فلكة، وهي حركة بيضوية تشبه تماماً مدارات الكواكب التي قال القرآن عنها: إنها تسبح في فلك.

وقال سبحانه: ﴿۞ فَلَآ[1] أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ [الواقعة: 75 - 76]، وقال جلَّ شأنه: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ﴾ [الذاريات: 7 - 8].

الحُبُك في أصل اللغة: ما يتركه المتحرك من أثر على الرمل ونحوه، وأحسن تعبير عنه في لغتنا المعاصرة المسار.

وإنَّ قَسَمَهُ سبحانه به يدلُّ على عِظَمِ شأنه، كذلك قسَمَه تعالى بمواقع النجوم وإخباره أن ذلك قَسَمٌ عظيم.

---

(1) لا هنا ليست نافية وتسمى صلة.

ولقد وجد العلماء أن مواقع النجوم ومساراتها ليست اعتباطية؛ فالكوكب وُضِعَ في مسار بحيث لا تؤدي قوى التجاذب الكونية الكثيرة والقوى النابذة الناشئة عن الدوران إلى اضطراب كوني، ولقد اختير له المسار الذي يحقق له التوازن بين تلك القوى الكثيرة. ووجد العلماء أيضاً أن أبعاد المجموعة الشمسية تتبع سلسلة حسابية، وأنى للعربي الجاهلي الذي كان يرى النجوم مبعثرة في صفحة السماء أن يعرف من تلقاء نفسه أنَّ لمواقعها شأن عظيم.

● كروية الأرض ودورانها حول نفسها:

قال الله تعالى: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ﴾ [الزمر: 5]، أصل التكوير اللف كما تفيدنا معاجم اللغة، ومنه كار العمامة على رأسه أي لفها عليه، واللف لا يكون إلا على شيء كروي كما أن الكلمتان ـ أعني الكرة وكوّر ـ مأخوذتان من أصل لغوي واحد، وهذا لا شك فيه إشارة إلى كروية الأرض إذ لا يمكن لليل والنهار أن يلتفا على بعضهما لو كانت الأرض منبسطة، وكان ينبغي أن يقول القرآن يبسط الليل على النهار ثم يبسط النهار على الليل، أما وقد عدل القرآن عن ذلك إلى لفظ التكوير فهذا يدل بوضوح على أن القرآن يقرر كروية الأرض.

وقال الله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلۡجِبَالَ تَحۡسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍۚ﴾ [النمل: 88].

لقد كان الناس قديماً يرون أن الأرض وجبالها ثابتة، بل يضربون المثل بثباتها، فجاء القرآن ليخالف ما ألفه الناس واستقر في أذهانهم، فنصّ على أن الجبال تمر مرّ السحاب، وسير السحاب هو سير هادئ مطمئن لا ضجيج فيه، كذلك سير الجبال حسب النص القرآني.

ومن المعلوم اليوم أن الأرض تدور حول محورها، وجبالها تدور معها، فإن قلت لأي شيء خص الجبال بالذكر أقول: لو أنك أخذت كرة وأدرتها حول محورها فإن أبرز ما يُظهِر لك حركتها هو النتوءات التي فيها، وكذلك الجبال هي نتوءات على سطح الأرض، وهي أبرز ما يظهر حركة الأرض عند النظر إليها من خارجها[1].

(1) إن المفسرين القدامى لم يستطيعوا ـ وهم معذورون ـ فَهْمَ مرور الجبال هذا، فقالوا: إن=

● **أخفض بقعة في الأرض وتنبؤان مدهشان:**

قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الروم: 1 - 5].

يذكر القرآن الكريم حادثة هزيمة الروم على أيدي الفرس ويصف موضع هزيمتهم بأنه ﴿أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ﴾، وقد كنت أقرأ الآية الكريمة فيقع في نفسي أن معنى أدنى الأرض هو أخفض بقعة فيها، ولا أستطيع أن أفهم معنىً سوى ذلك لأنه هو الظاهر المتبادر، فبحثت في كتب التاريخ فوجدت أن الموضع هو أخفض بقعة على سطح الأرض حقاً، فقد ذكر المطران يوسف الدبس في كتابه (تاريخ سورية الدنيوي والديني) أن القائد الفارسي (سربار) هاجم الروم وأوقع بهم على ضفتي نهر الأردن حتى بحيرة لوط، وهي البحر الميت عام 615م[1]، وهذا الموضع هو أخفض بقعة على وجه الأرض كما هو معلوم جغرافياً.

وقد تنبأت الآية الكريمة التي نزلت بمكة عن أن الروم سيتغلبون بعد ذلك في بضع سنين ويفرح المؤمنون بنصر الله عند ذلك، وهذا على ما يبدو بشارة للمسلمين بنصر يتواقت مع نصر الروم فما حدث؟

لقد وصلت الإمبراطورية الرومانية لحالة ميئوس منها بعد أن انتزع منهم الفرس بلاد الشام وآسية الصغرى ومصر ولم يبقى بينهم وبين العاصمة إلا البسفور، وكان الروم مهددين في الوقت نفسه بأعداء آخرين على حدودهم الغربية من الآفار، فتلمس هرقل السلم بأي ثمن ورضي أن يصالح كسرى على جزية ألف تالنت[2] ذهب، وألف تالنت فضة، وألف ثوب حرير، وألف جواد، وألف

= ذلك المرور هو ما يكون من تسييرها يوم القيامة. أقول: إن هذا ليس بصحيح لأن الجبال تنسف وتتطاير يوم القيامة كالعهن المنفوش ولا يحسبها الناظر يومذاك جامدة، قال تعالى: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡجِبَالِ فَقُلۡ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسۡفٗا ۝١٠٥ فَيَذَرُهَا قَاعٗا صَفۡصَفٗا ۝١٠٦ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجٗا وَلَآ أَمۡتٗا﴾ [طه: 105- 107] كذلك لا يوصف الاضطراب الكوني يوم القيامة بالإتقان.

(1) تاريخ سورية الدنيوي والديني: 546/4 وبحيرة لوط: البحر الميت. انظر أهل العلم والحكم في ريف فلسطين، ص45، لأحمد سامح الخالدي.

(2) التالنت: وعاء يوناني يتسع لحوالي (26) كغ كما ذكروا.

عذراء؛ كما ذكر المستشرق (جبن)، واستجدى الصلح من ملك الآفار بالشروط التي يحب حتى وضع بعض أقاربه عنده رهائن؛ لكن جميع هذه المواقف المخزية لم تنفع إذ نقض كسرى الاتفاق، فلم يدرِ هرقل كيف ينقذ الدولة فحاول الهرب إلى قرطاجة تاركاً أبهة الملك والسلطان، لكن بعض رجال الدين استمالوه باسم الدين والمسيح وناشدوه أن لا يفر؛ فاستجاب لذلك.

وفجأة تبرز دولته الضعيفة دولة قوية ويبرز كقائد كبير؛ فينتصر على الفرس ويسترد في معارك متتالية جميع ما احتلوه من إمبراطوريته. لقد انتصر بعد بضع سنين كما أخبر القرآن سابقاً وكان ذلك تنبّؤاً من أعظم التنبّؤات.

أما المسلمون فقد كانوا حينما نزلت هذه الآية قلة مستضعفين بمكة، وما كان أحد يستطيع أن يتوقع أنه سيكون لهم بعد بضع سنين دولة، وأنهم يقاتلون وينتصرون، فذلك غريب جداً، والأغرب منه اجتماعه مع الأمر الغريب الثاني انتصار الروم على الفرس.

لكن تأتي الأعوام ويهاجر المسلمون من مكة ويُنشئون دولة في المدينة المنورة، ويقدم جيش من كفار مكة إلى المدينة لأجل الحرب فيوقع بهم المسلمون هزيمة نكراء وهي المسماة بغزوة بدر في العام الثاني للهجرة الموافق لـ624م وفي العام نفسه انتصر الروم على الفرس.

وقد روى الترمذي - بإسناد قال عنه: حسن -: أن الروم ظهرت على فارس في اليوم نفسه الذي انتصر فيه المسلمون في بدر، وقال المؤرخ الحافظ ابن كثير: كانت نصرة الروم على فارس يوم وقعة بدر في قول طائفة كبيرة من العلماء.

● المادة الكونية الأولى:

قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ۝١٠ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: 10 - 11].

تتفق النظريات العلمية على أن الكون كان سديماً غازياً حاراً وحدث من تكاثف هذا الغاز الأجرام الكونية، ولا يزال هنالك سدم غازية كثيرة يرصد العلماء تحولاتها، ومن ذلك نجد أن إطلاق القرآن الكريم كلمة الدخان على المادة الكونية الأولى أمرٌ متفق مع العلم؛ ولم يذكر مثل هذا الكلام في التوراة أو أي نص قديم سابق للقرآن.

● التمدد الكوني:

لاحظ علماء الفلك عند تحليلهم لأطياف المجرات أن أطياف المجرات البعيدة تنزاح نحو الأحمر انزياحاً منتظماً يتوافق مع بعد المجرة؛ وقد فسر العلماء هذه الظاهرة حسب ظاهرة (دوبلر) التي تربط بين تحرك المنبع الباعث للموجات وانزياح أطوال موجاته المستقبلة، ففهم العلماء من ذلك أن الكون في حالة تمدد.

وعندما نشأ علم الفلك الراديوي الذي يعتمد على تلقي الفوتونات الصادرة عن سدم الهيدروجين لاحظ العلماء أيضاً ظاهرة دوبلر عند تلقي الفوتونات مما يشير أيضاً إلى توسع الكون.

وقد تراكمت أدلة أخرى على هذه الظاهرة حتى أصبحت هي النظرية القياسية المعتمدة لدى الفلكيين.

يقول أدنيغتون: «يمكننا تمثيل النجوم وكأنها قائمة على سطح بالون من المطاط يجري نفخه بصورة مستمرة، وهكذا فإن الأجرام الفلكية تبتعد عن بعضها أكثر فأكثر بفعل التضخم كعنصر مستقل عن حركاتها العادية وعن الآثار المترتبة على قوى التجاذب فيما بينها، ومن المحتمل أن تكون السدم الحلزونية هي التي تظهر التضخيم بشكله المحض باعتبار أنها متباعدة جداً عن بعضها البعض بحيث أن تأثرها بالجذب المتبادل فيما بينها ضعيف جداً.

لقد عرف منذ بضع سنين أن هذه السدم تتبعثر بسرعة متباعدة عن بعضها البعض. إن معدل تقهقر هذه السدم يمكن قبوله لتقرير مدى اتساع العالم»[1].

بعد هذا نقول: سبق القرآنُ الكريم العلماءَ في تقرير هذه الحقيقة عندما قال: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَـٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: 47]. وقال جلّ شأنه أيضاً عن يوم القيامة: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَـٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: 104]، فأفاد أن السماء ـ وكل ما هو سام فوقنا من مجرات وسدم وأجرام هو سماء ـ ستُضَم وتطوى يوم القيامة لتعود كما

(1) عن الكون المتسع لـ (ج ـ سوليڤان)، ص18 - 19.

كانت في أول الخلق أي أنها كانت مضمومة في أول الخلق وتباعدت عن بعضها.

● **مستقر الشمس:**

قال تعالى: ﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ [يسٓ: 38].

وقد ثبت أن مركز الشمس ينتقل خلال مسيره في الفضاء نحو نجم النسر الواقع (Lyre) بالقرب من نجم الجاثي (Hercule) الذي توجد حوله مجموعة من النجوم المتقاربة نسبياً، حيث تستقر الشمس عند هذه الجموعة؛ وقد حدد الفلكيون إحداثيات هذا المستقر وسُمّيَ (Apex).

● **الأمواج الداخلية والسطحية:**

قال الله تعالى: ﴿أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٞۚ ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: 40].

تنص الآية الكريمة على وجود موج من فوقه موج آخر، وهذا ما كشف عنه العلم فقد لفت نظر البحارة الاسكندنا ڤيين عام (1900م) وجود أمواج عميقة داخلية ولا توجد هذه الأمواج إلا في البحار العميقة، لذلك وصفت الآية الكريمة البحر الذي يحتوي هذين النوعين من الأمواج بأنه لجي أي عميق.

ومعلوم أن السحاب يحجب قسماً من النور، واضطراب الأمواج يعمل على تشتيته، حتى إذا وصلنا إلى طبقة الماء التي تغشاها الأمواج الداخلية لم نكد نجد أثراً للضوء، والظاهر أن هذا معنى قوله سبحانه: ﴿ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ﴾.

وقد ضربت هذه الظلمات في الآية مثلاً لظلمات الكفر والعماء المحيطة بالكافرين.

ويشار هنا إلى أنه لا يمكن أن يكون أحد من الأقدمين قد غاص إلى تلك الأعماق واكتشفها لأن الضغط فيها يزداد بشكل رهيب ولا يستطيع الإنسان أن يصلها إلا بالغواصات.

● **حاجز بين بحرين مالحين:**

قال الله تعالى: ﴿ مَرَجَ[1] ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝١٩ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ[2] لَّا يَبْغِيَانِ ۝٢٠ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٢١ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴾ [الرحمن: 19 - 22]، وقال تعالى: ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ﴾ [النمل: 61].

تتحدث الآيـات الكريمـة عن بحرين يتلاقيـان وفي مكان تلاقيهما يوجد حاجز، والظاهر أنها تتحدث عن بحرين حقيقيين مالحين، وليس عن بحر ونهر لأنه قـال: ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴾، والمرجان: هو الخرز الأحمر الذي يسمى أيضاً البسّذ[3]، لا يخرج إلا من المياه المالحة، فالآية الكريمة إذن تتحدث عن حاجز حقيقي بين بحرين مالحين في مكان تلاقيهما، والبحران يتلاقيان في المضائق؛ لأنه إن لم يكن هنالك مضيق فليس من مسوغ لاعتبارهما بحرين بل يكونان بحراً واحداً.

إن هذا الذي أثبتته الآية الكريمة مستغرب جداً في عرف الناس، إذ الانطباع السائد أن المياه المتلاقية لا حواجز بينها، وما كان أحد يعرف هذه الحقيقة ولا تخطر له على بال، إلى أن اكتشفت عام (1962م)، وثبت ما قاله القرآن الكريم كحقيقة مدهشة.

فقد نشرت بعثة السير جون أفري مع بعثة الجامعة المصرية وخفر السواحل التي بعثت لدراسة أعماق البحر الأحمر والمحيط الهندي في جنوب عدن نشرت بعض الملاحظات أهمها:

أن البعثة وجدت المياه في خليج العقبة تختلف في خواصها وتركيبها عن المياه في البحر الأحمر، وتحققت البعثة بواسطة قياس الأعماق من وجود حاجز مغمور عند مجمع البحرين يبلغ ارتفاعـه أكثر من ألف متر، كذلك تبين وجـود حاجز مغمور بين المحيط الهندي والبحر الأحمر، وأثبتت التحاليل الكيميائية أن مياه المحيط الهندي تختلف في خواصها الطبيعية والكيميائية عن مياه البحر

---

(1) مرج البحرين: أرسلهما متجاورين متلاقيين.

(2) البرزخ: هو الحاجز بين شيئين.

(3) ما ذكرناه هو المشهور ويقال أيضاً: إن صغار اللؤلؤ تسمى مرجاناً، ولا أرى ذلك مراداً في الآية الكريمة، لأن اللؤلؤ مذكور والأصل في العطف أنه للمغايرة.

الأحمر، ومرجع ذلك وجود هذا الحاجز عند ملتقى كل بحرين[1].

ويذكر الأستاذ عبد المجيد الزنداني أنه سأل العلماء الأمريكيين المتخصصين عندما جاؤوا بزيارة إلى جامعة الملك عبد العزيز عن هذا الحاجز فأجاب بعضهم إنه صار مرئياً وأمكن تصويره من الفضاء.

● حقائق عن الأنهار والبحار:

قال الله تعالى: ﴿ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ [الفرقان: 53][2].

يتحدث القرآن الكريم هنا عن حاجز بين ماءين عذب ومالح متلاقيين، ومن المعلوم اليوم أن الأنهار الكبيرة كالميسيسبي والأمازون تندفع مياهها داخل البحر ويبقى ثمة خط مميز بين الماءين، يقول وحيد الدين خان: «هنالك على سبيل المثال نهران يسيران في تشاتغام بباكستان الشرقية إلى مدينة أركان في بورما ويمكن مشاهدة النهرين مستقلاً أحدهما عن الآخر، ويبدو أن خيطاً يمر بينهما حداً فاصلاً، والماء عذب في جانب وملح في جانب آخر، وهذا هو شأن الأنهار القريبة من السواحل فماء البحر يدخل تحت ماء النهر عند حدوث المد البحري ولكنهما لا يختلطان ويبقى الماء عذباً تحت الماء الأجاج، وهكذا شاهدت عند ملتقى نهري الكنج والجافون في مدينة الله آباد، فهما رغم التقائهما لم تختلط مياههما، ويبدو أن خيطاً فاصلاً يميز أحدهما عن الآخر»[3]، هذا الانفصال يعزى إلى قوى المط السطحي التي تربط جزئيات كل سائل على حده، وتجعل جزئيات كل سائل كأنهما مغلفة بشي، وبإمكانك اعتماداً على هذه الخاصية أن تضع دبوساً معدنياً في كوب ماء ممتلئ بهدوء وستجده يطفو بفعل تلك القوى.

بعد ذلك نقول إن مثل هذه الظاهرة ما كانت معروفة في البيئة الصحراوية التي عاش فيها محمد ﷺ، فتحدث القرآن عنها يعتبر إعجازاً علمياً.

كذلك حينما تحدث عن استخراج حلية من الأنهار قال تعالى: ﴿ وَمَا يَسْتَوِى

---

(1) عن كتاب مباحث في الإعجاز، للدكتور مصطفى مسلم، طبع دار القلم بدمشق.
(2) البرزخ: هو الحاجز، حجراً محجوراً: أي منعاً ممنوعاً.
(3) الإسلام يتحدى، ص124 لوحيد الدين خان، الطبعة الرابعة، المختار الإسلامي.

﴿ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ [فاطر: 12].

إنّ العرب لم يكونوا يعرفون أن الأنهار يستخرج منها حلي لذلك تجد المفسرين القدامى يحاولون صرف الآية الكريمة عن ظاهرها، وهي لا تحتاج ذلك فالأنهار الكبيرة يستخرج منها لآلئ كما تذكر الموسوعات العلمية.

● خصائص السحب الركامية ومصدر البرق:

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [النور: 43].

تتضمن الآية السابقة جوانب من الإعجاز العلمي الباهر فهي تتناول مراحل تكوين السحب الركامية وخصائصها، وتشير إلى مصدر البرق فيها، فهي تنص أولاً على أن السحب الركامية تتكون من وحدات يؤلف بينها، وما عرف إلا أخيراً كما يقول الدكتور محمد جمال الدين الفندي أستاذ علم الظواهر الجوية: «أن السحب الماطرة تتكون من وحدتين أو أكثر يتم الجمع بينهما»، وقوله سبحانه: ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا﴾، فيه إشارة إلى كون التراكم في هذا السحاب يؤدي إلى خروج الودق منه إذ ربطت الفاء بين الأمرين، ويذكر الدكتور جمال الدين الفندي أن هذا النمو شرط لابد منه للهطول[1]؛ وقوله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ﴾، فيه تشبيه للسحب الركامية بالجبال، وهو وصف دقيق مطابق للعلم إذ يؤكد العلم أن هذه السحب ذات تكوين رأسي ملحوظ فلها قمم شامخة وواضحة المعالم كالجبال[2]، ويمكن لراكب الطائرة أن يرى قممها بوضوح، وعندما يكتمل نمو هذه السحب يمكن تمييز ثلاث طبقات فيها السفلى أو طبقة الماء النامية، وهي التي تعطيها اللون الرمادي، والمنطقة الوسطى أو منطقة نقط الماء فوق التبريد، ثم المنطقة العليا وهي منطقة بلورات الجليد، فأحد أقسام هذه السحب مكون من دقائق جليد وليس من دقائق مائية، وقد أشار القرآن الكريم لذلك عندما قال: ﴿فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ﴾، فـ﴿من﴾: حرف تبعيض ويفيد أن بعض أجزاء السحاب الركامي

---

(1) القرآن والعلم، ص128، للدكتور محمد جمال الدين الفندي.

(2) طبيعيات الجو وظواهره، ص115، للدكتور الفندي.

مكوَّن من برد، وهذه حقيقة علمية، ولهذا السبب فإن هذا السحاب يمكن أن يجود بالبرد، إذ يمكن أن تحمل تيارات الهواء الصاعد نقط الماء إلى ارتفاعات عالية حيث منطقة بلورات الجليد فينمو الجليد عليها بمرورها خلال دقائقه وتتبرد فتغدو حبات برد كبيرة، ولكن ليس من الضروري أن يتشكل البرد الساقط في هذه السحب، وقد يتشكل وتحول دون سقوطه تيارات الهواء الصاعد وهذا معنى قوله سبحانه: ﴿فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصۡرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُۖ يَكَادُ سَنَا بَرۡقِهِۦ يَذۡهَبُ بِٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿يَكَادُ سَنَا بَرۡقِهِۦ يَذۡهَبُ بِٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ فانظر إلى هاء الضمير في كلمة (برقه) على من تعود؟ إنها تعود على البَرَد فهو المذكور قبلها، ولا يفهم معنى لهذه الإضافة إلا أن البرق ناتج من البَرَد، فنحن إذا قلنا البرق برق الكهرباء أفهم ذلك أنه ناتج منها، وكذلك حينما يضاف البرق إلى البرد يفهم ذلك أنه هو المولد له، ولا يظهر أي معنى للإضافة غير ذلك.

وقد ثبت علمياً أن البرق ينتج في السحب الركامية من البَرَد، فتكوّن حبات البَرَد يصحبه اكتساب شحنة كهربائية سالبة، وتخلف حبات البرد وراءها شحنة موجبة، ولما يصل الجهد الكهربائي المتراكم من جراء تكون حبات البرد وانفصالها إلى حد يعجز الهواء عنده عن العزل تفرغ الشحنة الكهربائية على شكل برق.

هذا البرق يكاد يخطف البصر ولعل الطيارين هم أكثر الناس تعرضاً لذلك خصوصاً عند تحليقهم داخل هذا السحاب؛ إذ النظر إلى البرق يمكن أن يسبب عمى مؤقتاً.

فكم من إعجاز في هذه الآية الكريمة يقول الدكتور محمد جمال الدين الفندي أستاذ علم الظواهر الجوية: «علينا أن نخبر العالم أن تكوين السحب الركامية التي عرفت بعد الحرب العالمية الثانية بدقة أول من تكلم عن هذه السحب القرآن الكريم». أقول ويجب أن يفهم العالم والمسلمون قبل غيرهم أن أوّلَ من أضاف البرق إلى البَرَد هو القرآن الكريم ولم يهتد العلماء إلى النظرية الصحيحة لحدوث البرق والتي تضيف فعل تولده إلى البَرَد إلا حديثاً[1].

---

(1) انظر النظرية الحديثة لتولد البرق في كتاب طبيعيات الجو وظواهره، ص169، للدكتور الفندي.

● **إثارة الريح لتشكل السحاب:**

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [الروم: 48]، وقال سبحانه: ﴿وَٱلذَّٰرِيَـٰتِ ذَرْوًا ۝١ فَٱلْحَـٰمِلَـٰتِ وِقْرًا[1] ۝٢ فَٱلْجَـٰرِيَـٰتِ يُسْرًا﴾ [الذاريات: 1-3].

تفهم الآية الأولى أن الرياح هي التي تثير وتهيج عملية تشكيل السحب، أما الآيات الأخرى فهي تتحدث عن الرياح الذاريات وتربط بين ما تذروه هذه الريح وبين ما تحمله حملاً خفيفاً يجري بيسر في الجو وهي السحب حيث ربطت الفاء بينهما، فلنسمع ما يقوله العلم في هذا الصدد.

يقول العلم: يمكن للجو أن يحتوي على كميات كبيرة من البخار لا تراها الأعين، ولا يتسنى لهذه الأبخرة أن تغدو سحباً من غير توفر عاملين التبريد ونوى التكاثف التي هي ضرورية لكي تعلق عليها الأبخرة المتبردة، والرياح بفعل ما تذروه من غبار وأتربة وغير ذلك تحمل معها النوى الضرورية لهذا التكاثف، ويمكن لهبات الرياح على البحار أن تزيح الطبات المتشبعة بالبخار وترفعها نحو الأعلى خصوصاً إذا اصطدمت بالريح خلال حركتها بسلاسل جبلية تسوق حركة الرياح نحو الأعلى، فإذا رفعت الأبخرة نحو الأعلى حدث لها ما يسمى بالتبريد الذاتي لانخفاض الضغط الواقع عليها وتمددها، ومبدأ عمل هذا التبرد كمبدأ عمل ثلاجات الكهرباء التي يضغط محركها نوعاً من الغازات ثم يتركه يتمدد فجأة فيحدث له تبريد، أما في الجو فإن التبريد يحدث بالرفع إلى أعلى.

ومن المعروف علمياً أن قدرة الهواء على حمل بخار الماء تقل بانخفاض درجة الحرارة، فمع استمرار التبريد يحدث التشبع ويعود جزء من بخار الماء إلى حالة السيولة ويتكاثف على شكل دقائق مائية على نوى التكاثف وهي ما تحمله الرياح من غبار وأملاح طيّارة وغير ذلك وعلى هذا النحو تتشكل السحب.

وهكذا رأينا أن الذي أثار وهيج عملية تشكيل السحاب هو الرياح، ورأينا أن ثمة ربط وثيق بين ما تذروه الرياح وتثيره من غبار وأتربة وغير ذلك وبين تشكيل السحب الذي ينشأ من تحميل تلك الدقائق المجهرية حملاً خفيفاً من الماء، كل ذلك أشار له القرآن الكريم.

---

(1) الوِقر: هو الحمل الخفيف.

ويشار هنا إلى أن القرآن الكريم ذكر الجبال مقرونة بالماء في أكثر من آية مما يدل على الربط بيهما كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا﴾ [المرسلات: 27]، وقد بيّنا العلاقة التي بينهما آنفاً.

● **هطول المطر بسبب إلقاح الريح:**

قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ [الحجر: 22].

تنص الآية الكريمة على وجود إلقاح يحصل بفعل الريح وينزل بسببه الماء من السماء حيث ربطت الفاء بين الأمرين، والإلقاح يطلق في اللغة على التلاقي والجمع بين شيئين متناظرين متجاذبين من طبيعة واحدة كذكر وأنثى، وسالب وموجب، وحار وبارد ونحو ذلك.

وينبغي أن يكون هذا التلاقي يؤدي إلى إخصاب وتولد شيء من أجل أن يسمى إلقاحاً، فهل يقوم الريح بفعل يصدق عليه هذا الوصف وينزل من جراء إلقاحه ماء من السماء كما أخبرت الآية الكريمة.

يقول الدكتور محمد جمال الدين الفندي: «المقصود بالجبهات الباردة تدفق أهوية باردة صوب مساحات يميزها هواء ساخن نسبياً، وينطلق الهواء البارد في صورة (اسفين) يحمل الأهوية الساخنة أعلاه تدريجياً ويدفعها إلى أعلى، وهو بذلك يعمل عمل الهضاب وسلاسل الجبال إلا أنه قابل للحركة، وعمليات التكاثف من ألزم ما يكون لاستمرار النشاط في مثل هذه الحالات حيث تظهر غيوم الأمطار (سحب الكيوملونميس) وينهمر منها المطر في زخات تختلف شدتها»(1).

أقول إن عمل الريح هذا يصدق عليه تماماً اسم الإلقاح ويؤدي إلى تشكل سحب الأمطار وهطول المطر منها، فما ذكرته الآية الكريمة متفق تماماً مع المعطيات العلمية(2).

---

(1) طبيعيات الجو وظواهره، ص92.

(2) فسر بعضهم الإلقاح في الآية الكريمة بأنه حمل الريح لنوى التكاثف، وقد اخترت تفسيرها على النحو المذكور أعلاه، لأن ذلك ألصق بمعنى الإلقاح المؤدي إلى هطول المطر.

● جاذبية الأرض:

قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا﴾ [المرسلات: 25-26].

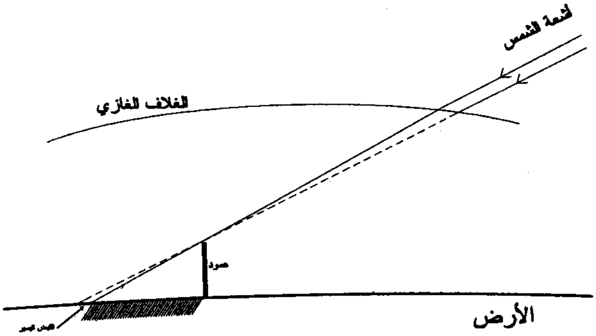
معنى كفت الشيء ضمه إليه، فالآية الكريمة تنص على أن الأرض تكفت الأحياء أي تضمهم وتشدهم إليها، وهذه إشارة واضحة إلى جاذبية الأرض، ولكي لا يظن ظان أن معنى (كفاتا) محصور في معنى ضم الموتى في تربة الأرض جاءت الآية اللاحقة لتقول: ﴿أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا﴾، فالأرض تكفت الأحياء بجذبهم على سطحها، وتكفت الموتى بضمهم في تربتها.

● تقلص الظلال بسبب انكسار الضوء:

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ [الفرقان: 45-46].

شاهدُنا عند قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾، فهو ينص على أن الظلال منقبضة شيئاً يسيراً، وتفسير ذلك علمياً هو أن أشعة الشمس لما تجتاز الحد الفاصل بين وسطين مختلفين تنكسر أشعتها، فلما تجتاز الغلاف الجوي تنكسر أشعتها وجهة الانكسار هي بحيث تقترب من الناظم على سطح الانكسار؛ إذا كان الوسط الثاني أكثف، فهي تنكسر في حالة اجتياز الغلاف الجوي كما هو موضح في الشكل، وتحدث انكسارات أخرى بسبب اختلاف كثافة الهواء ويؤدي ذلك كما يظهر الشكل إلى انقباض الظلال شيئاً يسيراً عما كان يجب أن تكون.

في الشكل المبيّن يظهر الخط المنقط مسار الشعاع فيما لو لم يكن هنالك انكسار والخط الممتلئ هو مسار الشعاع الحقيقي[1].



(1) قد أهمل في الرسم الانكسارات الناتجة عن اختلاف كثافة الهواء.

● **حقائق عن الشمس والقمر:**

قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴾ [النبأ: 13]، وقال سبحانه: ﴿ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴾ [نوح: 16].

إنّ وصف الشمس بأنها سراج يشير إلى أنها نار ملتهبة كالسراج وهذه حقيقة علمية.

وقال عن القمر: ﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ ﴾ [يسٓ: 39].

فتقدير القمر منازل هو الذي جعله يعود هلالاً كالعرجون القديم، وهذا يعني أن الأشكال التي يظهر بها القمر مردها للمواقع والمنازل التي يكون فيها، وهذه حقيقة علمية وما كان الناس يعلمونها قديماً.

ووصف القرآن الكريم للهلال بالعرجون القديم وصف مطابق للحقيقة ففضلاً عن كون العرجون القديم ـ وهو أصل عنقود الرطب ـ دقيقاً منحنياً فهو جسم خامل ولا ماء فيه ولا حياة، وكذلك القمر جسم خامل ولا ماء فيه ولا حياة.

وقال تعالى: ﴿ وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴿١﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴿٢﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ﴿٣﴾ ﴾ [الشمس: 1-3]، قال الفراء ـ وهو من أئمة اللغة ـ تلاها أخذ نوره منها يقال فلان يتلو فلاناً إذا كان يأخذ عنه(1) وقد جاء العلم موافقاً لما فهمه هذا اللغوي من قبل أكثر من ألف عام.

أما عن قوله سبحانه: ﴿ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ﴾ فيبدو فيه غرابة عن مألوف الناس لأنه جعل فعل التجلية واقعاً على الشمس، وقد جاء العلم موافقاً على ذلك فقد

---

(1) تفسير الرازي: 189/31، وقد أشار الزمخشري أيضاً لهذا المعنى، هذا وقد فهم بعضهم هذا المعنى من قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا ﴾، وقوله: ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴾، قالوا المنير ما نوره بالاكتساب ولا يقال له مضيء إلا على سبيل المبالغة والتشبيه وقد قال ذلك بعض اللغويين، وفهم آخرون من قوله تعالى: ﴿ جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً ﴾، أن شعاعها مجموعة أشعة لأن ضياء جمع ضوء وهو من صيغ جمع التكسير كثياب وثوب وسياط وسوط وقد قال: إن الضياء جمع بعض اللغويين والمفسرين كالزّجّاج، وكون شعاع الشمس مجموعة أشعة أمر موافق للحقيقة العلمية.

تبيّن أن الغلاف الجوي بغباره وجسيماته يقوم بتجلية شعاع الشمس، فالضوء لا يرى إلا بسقوطه على الأشياء، وأثناء نفاذه خلال الغلاف الجوي يتلألأ بسقوطه على الجسيمات الغبارية التي يحملها الهواء ويتشتت فيظهر لنا ضوء الشمس يعم الأرض، ونحن لا نراه كذلك خارج الغلاف الجوي فروّاد الفضاء يفقدون رؤية مثل هذا النهار بالرغم من وجود أشعة الشمس.

هذا وقد فهم بعضهم من قوله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ [يسٓ: 37]، أن نهارنا طبقة منسلخة عن الظلام لأن السلخ يستخدم في اللغة عن اجتزاء طبقة كاجتزاء جلد الشاة، وهذا الفهم موافق للحقيقة العلمية.

● جذور الجبال وأثرها في التوازن:

قال تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [لقمان: 10].

وقال سبحانه: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ [النبأ: 7].

تنص هذه الآيات الكريمة على أن الجبال على شكل أوتاد وأنها تحفظ الأرض من أن تميد أي تحفظها من الاضطراب.

ولقد غدا من المعروف علمياً أن للجبال جذوراً تغوص عميقاً في طبقة السيما، فهي على شكل الوتد الذي منه جزء كبير يغوص في الأرض، وقد وجد أن جذر الجبل يساوي أربعة أضعاف ارتفاعه تقريباً.

وقد توصل العلماء لمعرفة هذه الحقيقة في بداية الأمر من دراسة تسارع الجاذبية الأرضية، ومنحى الشاقول عند قمم الجبال والأغوار، وتبيّن أن الشاقول لا يميل بالقرب من الجبال كما تعطي الدراسات النظرية التي تأخذ في الحساب جاذبية الجزء البارز من الجبل للشاقول، وفسر ذلك بأن للجبال جذور عميقة من نوع طبقة السيال ذات الكثافة الأقل من السيما، وإن ثقل الجزء البارز من الجبل يعادل الثقل الناتج عن اختلاف الكثافة بين الجزء المزاح من السيما وجذر الجبل الأقل كثافة الذي أزاحها.

ثم دعمت هذه النظرية بأدلة أخرى وأكدتها قياسات الأجهزة فغدت حقيقة علمية، وثبت أن الجبال على شكل أوتاد مغروسة في الأرض.

هذه الجذور الجبلية لها أثرها في تحقيق التوازن على سطح الأرض لأن

باطن الأرض منصهر سائل، فلو كانت الجبال بلا جذور لشكلت ثقلاً هائلاً يمكن أن يؤدي بالقشرة الأرضية إلى التثني والتصدع، فكما لو أنك وضعت طبقة من النايلون على مادة عجينة، ووضعت على الطبقة أثقالاً غير متساوية فإنها لا تستقر فكذلك شأن الأرض.

يقول إنجلن: «من المفهوم الآن أن المادة الأقل وزناً ارتفعت على سطح الأرض على حين أصبحت أمكنة المادة الثقيلة خنادق هاوية وهي التي نراها اليوم في شكل البحار، وهكذا استطاع الارتفاع والانخفاض أن يحافظا على توازن الأرض»[1].

ومن جهة أخرى فقد اعتُمدت في علم الجيولوجيا نظرية تسمى (نظرية حركية الصفائح)، وهي تعتبر الجزء الخارجي من الكرة الأرضية وكأنها صفائح وأغطية صلبة تحيط بالكرة، هذه الصفائح في حالة حركة نسبية بالنسبة للصفائح الأخرى[2]، ويبدو طبيعياً أن الجبال التي لها جذور عميقة تغوص في طبقة السيما تحد وتعرقل من انزلاق الصفائح الأرضية الخارجية، فهي كأنها دبابيس تثبت الطبقات الخارجية بما تحتها ولولاها لزادت حركة الطبقات الأرضية بحيث تضطرب وتمنع الحياة الحضارية.

فالقوة المجهولة التي تدفع القارة الأمريكية بسرعة تزيد عن المتر في السنة رغم وجود جبال منخفضة نسبياً كان يمكن لها أن تبلغ الكيلومترات لو كانت ملساء القعر، فالجبال إذن تحفظ الأرض من أن تميد كما أخبر القرآن الكريم.

يقول الأستاذ عبد المجيد الزنداني سألت البروفيسور (الفريد كرونر) وهو من مشاهير علماء الجيولوجيا الألمان بعد أن عرضت عليه هذه الآيات من أين عرف محمد ﷺ ذلك؟ فقال وحي من فوق.

● مشارق الشمس ومغاربها:

في كل يوم من السنة يكون للأرض والشمس وضع نسبي يختلف عن وضع اليوم السابق، ونظراً لميل محور الأرض ودورانها حول الشمس فإن زاوية سقوط

---

(1) الإسلام يتحدى، ص128، لوحيد الدين خان.
(2) الأرض وتكوينها، ص136، للدكتور نزار بيضون وللمهندس نزار عكر.

الأشـعة الشمسـية ومشرق ومغرب الشمس الظاهريين يختلفان في كل يوم عن سابقه.

وتمر الشمس خلال مسيرتها الظاهرية في العام بمشرقين ومغربين مميزين تكون أشـعتها في أحدهما عمودية على مدار السرطان وفي الآخر عمودية على مدار الجدي، وبين هذين المشرقين والمغربين تقع جميع المشارق والمغارب الأخرى، ويحدث الانقلاب الصيفي أو الشتوي عندما تصبح الشمس فيهما.

فحيث قال تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ﴾ [المعارج: 40]، فالمراد بها المشارق والمغارب الـ(365) التي تمر على الأرض في العام وحيث قال: ﴿رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ وَرَبُّ ٱلۡمَغۡرِبَيۡنِ﴾ [الرحمن: 17]، فالمراد بهما على ما يظهر المشرقان والمغربان المميزان السابق ذكرهما(1)، وحيث قال: ﴿رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ﴾ [المزمل: 9]، فهو اسم الجنس الناظم لأي مشرق ومغرب.

وقال تعالى في قصة ذي القرنين: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطۡلِعَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَطۡلُعُ عَلَىٰ قَوۡمٖ لَّمۡ نَجۡعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتۡرٗا﴾ [الكهف: 90].

قد أثبت القرآن الكريم هنا موضعاً في الأرض وصل إليه ذو القرنين ولم يجد الشمس تستر فيه عن الناس، والذي يستر الشمس هو الليل(2) إذن الموضع الذي بلغه ذو القرنين قد وجد فيه الشمس طالعة دوماً، وهذا موجود على سطح الأرض في المناطق القريبـة من القطب حيث يبقى النهار سـتة أشهر، ولم يكن العرب يعرفون شيئاً عن ذلك عندما أثبته القرآن الكريم.

● نقص الأرض من طرفيها:

قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوۡنَ أَنَّا نَأۡتِي ٱلۡأَرۡضَ نَنقُصُهَا مِنۡ أَطۡرَافِهَآۚ أَفَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ [الأنبياء: 44]، وقال سبحانه: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا نَأۡتِي ٱلۡأَرۡضَ نَنقُصُهَا مِنۡ أَطۡرَافِهَاۚ وَٱللَّهُ يَحۡكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكۡمِهِۦۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ [الرعد: 41].

تنص هاتان الآيتان الكريمتان على أن الأرض تنقص من أطرافها ويبدو ـ والله أعلم ـ أن المراد بذلك نقص قطبيْ الأرض، فالقطبان ينضغطان باستمرار

---

(1) وقال بعض المفسرين المراد بهما مشرقا الشمس والقمر ومغرباهما.

(2) يشهد لذلك قوله سبحانه: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا﴾ [الشمس: 4].

ويتفلطح خط الاستواء وذلك بسبب القوة الطاردة المركزية الناشئة عن دوران الأرض حول محورها.

وهنا يرد سؤال ما هو علاقة هذه الظاهرة بتتمة الآية الكريمة وهي قوله: ﴿أَفَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾ [الأنبياء: 44].

إنّ الذي يظهر لي أن هذه الظاهرة من شأنها أن تعمق الفوالق والشقوق الأرضية، فالأرض فيها خطوط ضعيفة تتوضع على طولها بؤر زلزالية، وإن الضغط المستمر للأرض يؤثر على هذه المناطق ويعمق الشقوق، فكما لو أنك إذا أخذت كرة فيها بعض الشقوق وأخذت تضغطها من طرفيها فإن ضغطك لها يعمق هذه الشقوق، فكذا الأرض تضغط من طرفيها باستمرار فتعمق فيها الشقوق، وهذه الظاهرة التي لا يملك الإنسان إيقافها أو الحد منها تنبئ أن الأرض ساعية إلى الزوال وليست بدار مقر فلا يكون أهلها هم الغالبون.

● **البحر المسجور:**

قال تعالى: ﴿وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَـٰبٍ مَّسْطُورٍ ۝٢ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ۝٣ وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ۝٤ وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ۝٥ وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ۝٦ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ﴾ [الطور: 1-7].

يقسم الله تبارك وتعالى بالطور وهو الجبل المبارك الذي كلم عليه موسى عليه السلام بلا وساطة ولا ترجمان، وأقسم بالكتاب المسطور المبارك الذي آتاه الله هذا النبي ونشر بين عباد الله ليعم فضل الله وكرمه الجميع.

إن قسمه سبحانه بذلك ينبه على شدة عناية الله تعالى بخلقه وأنه لا يتصور منه عدم الاكتراث بشأنهم، كيف وهو الذي حبا البشر بكلامه المباشر وأنزل ألواح الحكمة والخير لتنشر بين الجميع دون أن يخفى منها شيء، إن كان الأمر كذلك لم يكن يتصور من هذا الخالق أن يدع الناس هملاً بلا حساب ولا عقاب للمجرمين، ويقسم جلّ شأنه بالبيت المعمور وهو البيت الذي تحجه الملائكة في السماء وتطوف به لنتصوّر من ذلك جلال أمر المعبود سبحانه الذي تعبده الملائكة وتحف حول عرشه وتضرب بأجنحتها خضعاناً لقوله.

ويقسم بالسماء وما فيها من إحكام وجلال يبعث على الرهبة وعلى الخشوع أمام عظمة وجلال مبدعها، يقسم جلّ شأنه بكل ذلك لنفهم جيداً أن العبث غير

جائز عليه، وأنه سيحاسب ويعاقب ولا يدع الناس هملاً.

ثم يقسم بالبحر المسجور - وهو الموقد - فهل هنالك بحر كذلك؟

لقد عرف أن هنالك بحاراً فيها أخاديد من نار كالبحر الأحمر وقاعها متقد كالجمر ويلفظ النيران وقد صوّر ذلك كله[1].

كم في هذا المنظر من روعة وجلال أن نرى البحر المملوء يتقد قاعه كالجمر الأحمر ويطلق النيران وهو تحت صفحة السماء الزرقاء.

إن هذا القسم بالبحر المسجور الذي يتقد ناراً ما كان الناس يرونها أو يتوقعونها ثم رأوها لتناسب أشد المناسبة المقسم به من وجود عقاب بنار متقدة أعدت للمجرمين لا يراها الناس اليوم وسيرونها غداً، ليُعلم أن الذي أخبر عن النار الأولى في البحر المملوء فوجدت فيه مع شدة بعدها عن توقع الناس وتصورهم هو الذي أخبر بالنار الأخرى وسيراها الناس كما رأوا الأولى.

● التنبؤ عن وسائل النقل الحديثة:

قال تعالى: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: 8].

بعد أن امتن سبحانه على الناس بخلقه لهم الدواب التي كانت وسائل نقلهم أشار في قوله: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ إلى وسائل نقل أخرى لم يكونوا يعلمونها في عصر نزول القرآن، ويُرى أنها صدقت على وسائل النقل الحديثة التي هدى الله الإنسان لصنعها.

وروى أبو داود عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «تكون إبل للشياطين وبيوت للشياطين فأما إبل الشياطين فقد رأيتها يخرج أحدكم بنجيبات معه قد أسمنها فلا يعلو بعيراً منها ويمر بأخيه المحتاج قد انقطع فلا يحمله وأما بيوت الشياطين فلم أرها»[2].

---

(1) يستبعد أن يكون المراد بالبحر المسجور: البحر الذي سيسجر يوم القيامة لأن من عادة القرآن الكريم أن يقسم لنا بما هو مرئي ومشاهد ليثبت ما هو مغيب ولا يقسم لإثبات المغيب بمغيب.

(2) قال الأستاذ عبد القادر الأرناؤوط - في تخريجه لأحاديث جامع الأصول عن هذا=

فهنا يندد رسول الله ﷺ بمن يكون لديه فضل مركوب فلا يحمل عليه أخاه المحتاج بل يدعه شاغراً، ولهذا وصف بأنه للشيطان، وقد بيّن الرسول الكريم أنه رأى ذلك في الإبل وسيكون بما هو على شكل بيوت ويقول «لم أرها» فهي لم تكن في عهده ويُرى أنها تصدق تماماً على السيارات. والله أعلم.

● الإشارة إلى علم المستحاثات:

قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ۚ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [العنكبوت: 20].

يُرى أن المراد بقوله سبحانه: ﴿فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ۚ﴾ النظر في كيفية بدء الخلق بوجه عام على الأرض، لا كيفية تخلق الفرد الواحد من البشر، لأن الخلق اسم شامل لكل ما يخلق ولأن الفاء قد ربطت بين السير في الأرض والنظر في كيفية بدء الخلق، ولا يكون لهذا الربط معنى لو كان المراد النظر كيف يخلق الفرد من البشر، إنما يكون له معنى عندما ندرك أن الآية الكريمة تشير إلى علم المستحاثات الذي يتطلب السير في الأرض والتنقيب فيها والذي يظهر لنا كيف بدأت الحياة على الأرض بعد أن كانت خالية منها، وتكون الآية الكريمة تفيد في مغزاها العميق التنبيه على أن الذي أوجد الحياة على الأرض بعد أن كانت خالية منها قادر على النشأة الآخرة.

● الإشارة إلى ساحة اللاشعور:

قال تعالى: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: 7].

أي يعلم السر وما هو أخفى من السر، فالقرآن الكريم يثبت وجود ما هو أخفى من السر، وهل هنالك شيء أخفى من السر الذي يكنّه الإنسان في نفسه ولا يطلع عليه أحد؟ نعم فقد أثبت علماء النفس وجود أمور في النفس الإنسانية لا يعلمها الإنسان من نفسه توجد في ساحة اللاشعور، وهي ساحة أكبر من ساحة الشعور كما يقول علماء النفس.

● الإشارة إلى تحنيط جثة فرعون:

قال تعالى عن فرعون بعد أن ذكر قصة غرقه: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ

= الحديث ـ: إسناده حسن.

﴿لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾ [يونس: 92].

تنصّ هذه الآية الكريمة على نجاة بدن فرعون ليكون لمن خلفه أي للآتين بعده آية، وقد حيّرت هذه الآية المفسرين السابقين لأنه لا يمكن أن يكون معنى نجاة بدنه نجاته من عذاب الله، فالله تعالى يقول عنه: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾ [هود: 98].

وقد اتضح معنى نجاة بدنه وجعله آية لمن خلفه باكتشاف جثته المحنطة من قبل (لوريت) في مصر، وهو مرنفتاح بن رعمسيس الثاني الذي يعتقد المؤرخون أنه فرعون الخروج المعاصر لسيدنا موسى عليه الصلاة والسلام.

● مصانع الغذاء في النبات:

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾ [الأنعام: 99].

من المعروف علمياً الآن أن اليخضور (الكلوروفيل) الموجود في أوراق النبات والذي يعطيها اللون الأخضر هو المسؤول عن القيام بعمليات التركيب الضوئي وإنتاج الأغذية التي تخزن في الثمار.

وقد أشارت الآية الكريمة لهذه الحقيقة، فقوله تعالى: ﴿نُّخْرِجُ مِنْهُ﴾ أي من النبات ﴿خَضِرًا﴾ وهي المادة الخضراء في الأوراق، و﴿نُّخْرِجُ مِنْهُ﴾ أي من الخَضِر فهو المذكور قبلها ﴿حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾؛ فالأغذية المخزنة في الثمار قد خرجت من الخَضِر هكذا تفيد الآية الكريمة وهذا موافق لما يقوله العلم.

هذا وقد أشار القرآن الكريم إلى علاقة الضوء بإنتاج الثمار في المثل الذي ضربه بالشجرة المباركة التي قال عنها: ﴿زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ [النور: 35]، ومعنى لا شرقية ولا غربية كما قال المفسرون الشجرة التي لا تأخذ ضوءها من المشرق فقط ولا من المغرب فقط وإنما يبقى ضوء الشمس عليها سائر النهار، وهو أجود لزيتها كذا قالوا، وهذا يعني ربطاً واضحاً بين الضوء وإنتاج الثمر وقد كشف عنه بمعرفة عملية التركيب الضوئي.

● أثر منسوب المياه على النبات:

قال تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ

أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ﴾ [البقرة: 265].

الشاهد أن الآية الكريمة وصفت الجنة الخيّرة التي أفادت من وابل المطر على أحسن وجه وأعطت الإنتاج الغزير بأنها في ربوة، وهذا الوصف له أهمية بالغة كما وجد علماء النبات، لأن المطر الغزير يؤدي إلى ارتفاع منسوب المياه في الأرض وهذا له تأثير سيء على جذور النباتات وهو يؤدي إلى قلة الإنتاج ويؤثر على جودته ومقاومته للآفات سَلْباً، لكن الجنة التي على ربوة لا تصاب بمثل ذلك من جراء المطر الغزير فهي تأخذ حاجتها من الماء وينصرف الباقي إلى أسفل وإن أصابها مطر خفيف امتصته وأخذت حاجتها.

والربوة تشجع النبات على زيادة ونمو شعيراته الجذرية لبعدها عن منسوب الماء، وسقيها بالوابل الصيّب أفضل من السقي بالري لأن المطر الهاطل ينحل به أثناء سقوطه عناصر نادرة من الجو ويحتاجها النبات[1].

وهكذا تجد أن الجنّة الخيرة في وصف القرآن الكريم تطابق الجنة الخيّرة في وصف علماء النبات.

ومما يشير إلى الأثر السيِّئ لمنسوب المياه العالي قوله تعالى عن سبأ وأهلها: ﴿ فَأَعْرَضُواْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴾ [سبأ: 16]، فسيل الماء العالي أدى إلى الإقلال من ثمرهم وأذهب جودته.

● اهتزاز الأرض وزيادتها بالمطر:

قال تعالى: ﴿ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾ [الحج: 5].

(1) يحتاج النبات بصورة رئيسية إلى النتروجين، ويمكن أن يدخل النتروجين إلى التربة عن طريق ومضات البرق التي توحّد بين قدر قليل من الأوكسجين والنتروجين، فينحلان بالمطر، وينزلان على هيئة نتروجين مركب، ويظهر أن القرآن الكريم قد أشار إلى أثر البرق هذا في إنعاش النبات وتسميده مع أثر المطر بقوله: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ﴾ [الروم: 24].

إن العلم يؤكد أنّ الأرض تهتز فعلاً بنزول الغيث عليها، فالحبوب والبصيلات والدرنات والحويصلات والجراثيم كلها تبدأ بالحركة والانقسامات الخلوية وامتصاص الماء وتحليل الغذاء المعقد إلى وحدات أقل ارتباطاً وأكثر عدداً وأكبر حجماً، وبامتلاء مسام الأرض بالماء تتحرك جزئيات الطين وتبدأ عملية تأين عجيبة في جزئيات التربة، وتنشط الديدان الأرضية في شق الأنفاق الأرضية وابتلاع كميات كبيرة من التربة المتلاصقة وإخراجها بعد ذلك مفككة، كل هذه النشاطات تؤدي إلى زيادة حجم التربة، ويمكننا رؤية صورة مصغرة لهذه العمليات بتخمر العجين وزيادة حجمه نتيجة نشاط خلايا الخمائر، وفي التربة تحدث ضروب كثيرة لمثل هذا النشاط.

من كل ما سبق نجد التوافق بين ما عرفه العلم وما وصفه القرآن الكريم.

● الموطن الأصلي لشجرة الزيتون:

قال تعالى: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْأَكِلِينَ﴾ [المؤمنون: 20]، تنصّ الآية السابقة على أن شجرة الزيتون قد خرجت من طور سيناء، وقد عيَّن علماء النبات موطن الزيتون الأصلي بأنه شرق الحوض المتوسط، وذكرته أقدم النصوص المعروفة في مصر وفلسطين[1]، فتحديد القرآن الكريم لموطنه الأصلي متفق مع تحديد العلماء إلا أن تحديد القرآن أدق وأكثر تبياناً.

ويشار هنا إلى أن القرآن الكريم أثبت بذلك أن سيناء التي كانت في عصر نزول القرآن وقبله بآماد طويلة صحراء[2]، كانت قبل ذلك ذات أشجار، وهذه حقيقة علمية يشهد لها كثرة النفط فيها، لأن النفط ينشأ من تحلل الغابات المنطمرة.

● أوهن البيوت:

قال تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: 41].

---

(1) انظر كتاب ثمار الفاكهة، ص500 - 501، للدكتور هشام قطنا.

(2) سيناء: هي صحراء التيه التي تاه بها بنو إسرائيل في عهد موسى عليه السلام.

إن قوله سبحانه: ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾، وقوله بعد ذلك: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: 43]، يشيران إلى أن وهن بيت العنكبوت المتحدث عنه وهن غير ظاهر ومعروف لدى عامة الناس، وقد ضرب هذا الوهن مثلاً لموالاة الكافرين بعضهم لبعض.

فماذا وجد العلماء عند دراسة العنكبوت؟ وجدوا أن الروابط بين أفراد العنكبوت في غاية التفكك، فالأنثى كثيراً ما تأكل الذكر بعد الإلقاح، وقد تأكل أبناءها والأبناء يأكل بعضهم بعضاً، فهو بيت متفكك متداع وذلك مثل موالاة الكافرين بعضهم بعضاً.

● البصمات وتحديدها لشخصية الإنسان:

قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣ بَلَىٰ قَـٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ﴾ [القيامة: 3 - 4].

البنـان: هي رؤوس الأصابع، وتقرير الآية الكريمة أن الله تعالى قادر على خلق الإنسـان ثانية وإعادته بعينه سـوياً كما كان، حتى رؤوس أصابعه تعود كما كانت؛ فيه إشارة لعلم البصمات وأن هذه البصمة تميز صاحبها.

● استحصال اللبن عند الأنعام:

قال تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَـٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّـٰرِبِينَ﴾ [النحل: 66].

ذكر في تعليق الخبراء على تفسير المنتخب أنه توجد في ضروع الماشية غدد خاصة لإفراز اللبن تمدها الأوعية الشريانية بخلاصة مكونة من الدم والكيلوز وهو خلاصة الغذاء المهضوم، وكلاهما غير مستساغ طعماً، ثم تقوم الغدد اللبنية باستخلاص العناصر اللازمة لتكوين اللبن من هذين السائلين الدم والكيلوز، وتفرز عليها عصارات خاصة تحيلها إلى لبن يختلف في لونه ومذاقه اختلافاً تاماً عن كل منهما.

● حقائق عن النطاف:

قال تعالى عن الإنسان: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ﴾ [القيامة: 37]. (من):

حرف جر تبعيض وتفيد أن النطفة[1] التي يخلق منها الإنسان هي بعضٌ من المني الذي يمنى وهذه حقيقة علمية، وصرح بها في الحديث النبوي فجاء في حديث صحيح رواه مسلم «ما من كل الماء يكون الولد».

على أن القرآن لا يقف عند ذلك بل يبيّن أن أصل الإنسان شيء يستخلص من السائل المنوي قال تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ [السجدة: 7 - 8].

السلالة في اللغة هي اسم لما يسل ويستخلص من غيره، ومن المعروف علمياً اليوم أن أصل الإنسان يكون من نطفة واحدة تسل وتستخلص من ذلك الماء المهين الذي يتكوّن من سائل تسبح فيه ملايين النطف.

وقال تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾ [العلق: 1 - 2]، هنالك ديدان دقيقة مدببة الرأس تسبح في الماء، وإذا وضعت على جرح فإنها تلتصق به وتمتص الدم، وتنتفخ وتسمى هذه الديدان بالعلق، ويظهر أن الآية الكريمة سمت نطف الإنسان بالعلق لشبهها بها، فالنطفة مدببة الرأس وتسبح في سائلها الخاص، وتلتصق بالبويضة الأنثوية وتمتص منها الغذاء وبعد أن تدخلها تنتفخ قليلاً، وهي في كل أوصافها تشبه تلك الديدان المسماة بالعلق[2].

ونعلم اليوم أن نطفة الرجل تمتزج بنطفة المرأة (البويضة) ويأخذ كل صبغي

---

(1) النطفة في أصل اللغة الجوهرة الصافية أو القطيرة من الماء، لذلك تقول عن شيء يتقاطر منه الماء: إنه ينطف ماء، وقد أطلقها القرآن الكريم على ما يخلق منه الإنسان، وهذا الإطلاق يفيد أن الإنسان يخلق من شيء ضئيل من هذا الماء والحقيقة العلمية كذلك هذا وإطلاق على ما يتأتى من الرجل نطفة، وما يتأتى من الأنثى بويضة اصطلاح حادث ولا يلتزمه القرآن كسائر الاصطلاحات الحادثة، فهو قد يسمى ما يتأتى عن الذكر نطفة وقد يسمى البيضة الملقحة نطفة، وكل ذلك صحيح لغةً، وجاء في الأحاديث النبوية تسمية ما يتأتى عن الأنثى نطفة.

(2) العلق مأخوذ في اللغة من التعلق الذي هو الالتصاق والارتباط، ويسمى في اللغة الدم الجامد علقاً لأنه يعلق بغيره، وقد فسّر المفسرون القدامى العلق بهذا المعنى والظاهر أن ذلك ليس بصحيح؛ لأنه لو سئل مم خلق الإنسان لانصرف الجواب إلى أصله الأول وهو المني والمني ليس دماً بالمعنى الحقيقي للدم ولا يمر الإنسان بحالة يكون فيها دماً. فتفسير العلق بالمعنى الذي ذكرناه هو المتعين وهو معنى مشهور في اللغة.

بقرينه، ثم تبدأ نواة الخلية بالانقسام مؤذنة ببدء حياة الكائن الحي، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا التمازج بقوله: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ [الإنسان: 2]، أي نطفة[1] ذات تمازج.

وأشار أيضاً إلى ان انقسام النوى هو بدء خروج الكائن الحي عندما قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ [الأنعام: 95]، إنّ الآية الكريمة تشير إلى انقسام نوى الخلايا في النبات والحيوان، والذي يكون مؤذناً ببدء الحياة، لذلك جاءت تتمة الآية ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ﴾، ولابد أن تكون بداية الآية متعلقة بتتمتها لأن لكل آية في كتاب الله وحدتها الموضوعية المميزة.

وقد حاول العلماء أن يصنعوا جديلة من صبغيات النواة تتمتع بخاصية الانقسام الذاتي الذي هو أول مظهر دال على الحياة فلم يستطيعوا، لذلك فالآية الكريمة بعد أن وضعت الإنسان أمام ظاهرة يراها بعينيه ولا يفهم لماذا تحدث ولا يحس مجاراتها ومحاكاتها قيل له ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ﴾: أي بقدرته يحدث كل ذلك، ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾.

وقال تعالى عن الإنسان: ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ﴾ [عبس: 19].

إن هذه الآية الكريمة تدل على أن تقدير الإنسان أي إعطاءه هيئته وصفاته التي يحملها هو من نطفة أي يتأتى منها، وهذا صحيح علمياً لأنها هي الحاوية على الصبغيات الحاملة للمورثات المختلفة.

وقال تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ [الطارق: 5 - 7]، أما من كون الماء دافقاً من الرجل فهو معلوم، فهل هو كذلك عند الأنثى؟ نعم فقد تبيّن أنه عندما تتفجر جريبات غراف في المبيض يندفع منها ماء يحمل البويضة فهو ماء دافق أيضاً، وأصفر اللون كلون الجريب الذي خرج منه والذي يبقى طيلة فترة الحمل يفرز الحاثات ويسمى علمياً بالجسم الأصفر، وقد جاء في صحيح مسلم مرفوعاً: «ماء الرجل أبيض، وماء المرأة أصفر»[2]، وهذا الوصف موافق للحقيقة العلمية.

---

(1) النطفة هنا البيضة الملقحة.

(2) أما الماء الذي يفرزه مهبل الأنثى فهو ماء غير دافق وليس له علاقة بتخلق الجنين، وإنما=

بقي أن نشير إلى أن الآيـة الكريمـة نسـبت خروج الماء لما بين الصلب والترائب، والترائب هي عظام الصدر وهذا مخالف للمألوف فكيف يكون ذلك؟

لقد بقيت الآية الكريمة سراً مئات السنين إلى أن تطور علم الأجنة والأحياء، وتبيّن أن الخصية والمبيض يتشكلان عند الجنين بين الصلب والترائب على جانبي الفقرات من الثامنة الظهرية حتى القطنية الرابعة، ثم يهاجران إلى مكانهما الطبيعي، وإنّ تغذية الخصية والمبيض بالدماء واللمف، وتعصيبهما بالأعصاب يبقى من حيث الأصل من بين الصلب والترائب من مكان مبدئها ومخرجها.

فالماء الدافق استقيت مواد تكوينه من بين الصلب والترائب، ومن هنالك جاءت أوامر الجملة العصبية الآمرة بالدفق، فما ذكرته الآية الكريمة متفق مع المعطيات العلمية، ومما يسوّغ العقول بالإعجاز أن الآية تقول: يخرج من بين الصلب والترائب ولا تقول ينشأ.

● **مراحل تكوين الجنين:**

قال تبارك وتعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ [المؤمنون: 12 - 14]، وجد العلماء أنّ المواد المكونة للإنسان موجودة كلها في التراب، وهذا يأتي مصداقاً للآية الكريمة التي ذكرت أنّ الإنسان خلق من سلالة من طين أي من خلاصة منه.

ووصفت الآية الكريمة الرحم الذي جعلت فيه النطفة الملقحة بأنه قرار مكين، وهذا وصف دقيق، فـالرحم محاط بجدار عظمي قـوي هو الحوض، وعظام أخرى هي العجز والعصعص من الخلف والعظمين الحرقفيين من الجانبين الذين يمتدان ليلتحما في الأمام، وللرحم أربطة تمتد بين أجزاء الرحم المختلفة تحمل الرحم وتربطه بعظام الحوض وجدار البطن وتحافظ على وضعيته الملائمة للجنين، والرحم عند بدء التعشيش فيه يتوقف بسبب هرمونات خاصة عن التقلصات الرحمية القوية ليتسنى للبيضة الملقحة القرار فيه، من كل ما سبق نجد

= يتحدث عن الماء الدافق الذي يحتوي أصل الجنين.

دقة الوصف القرآني للرحم وقت التعشيش فيه بأنه قرار مكين.

ثم تذكر الآية مراحل تخلق الجنين فلنسمع ما يقوله علم الأجنّة.

يقول علم الأجنة: إنّ البيضة الملقحة تباشر عملية الانقسام الخلوي وهي في طريقها إلى الرحم، ولما تصل إلى مكان التعشيش فيه تظهر فيها خلايا إسطوانية تنغرس في مخاطية الرحم، وتعلق به علوقاً، لذلك نجد القرآن الكريم سمى البيضة الملقحة في هذه المرحلة بالعلقة؛ وهو اسم مأخوذ من العلوق ومتفق مع الحقيقة العلمية.

بعد ذلك تصبح العلقة بقدر مضغة الإنسان، وتشبه اللحم الممضوغ بسبب الانقسامات الخلوية، ويظهر فيها اختناقات وأخاديد كأنها محل مضغ أسنان فتسمية القرآن الكريم لها بالمضغة تسمية متوافقة تمام الموافقة مع وصفها، وقد أخذ علماء الجنين بهذه التسمية القرآنية.

ويتمايز في هذه المضغة قسم يتخلق منه الجنين وقسم لأجل تغذية الجنين وتشكيل المشيمة، لذلك هو لا يتخلق ويبدو أن هذا معنى قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ﴾ [الحج: 5].

ويبدأ من المضغة تمايز وتخلق الأعضاء المختلفة فتظهر فيها الوريقات الثلاث، وكل وريقة تتمايز لتعطي الأجهزة والأعضاء المخصصة لها، ووجد العلماء أن النسيج العظمي سابق في التكوين للنسيج العضلي فهو يتشكل أولاً ويكسى بعد بالعضلات، كذا يذكر الأطباء، وقد جاء في كتاب علم الأجنة الطبي كما نقل عنه الدكتور محمد علي البار أنه في الأسبوع السادس والسابع تُكسى العظام بالعضلات.

إن هذا الذي قرره علم الأجنة متفق تماماً مع ما قرره القرآن الكريم من سبق تشكل العظام للإكساء العضلي حيث قال: ﴿فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ عِظَٰمٗا فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ لَحۡمٗا﴾، أي لحماً نضراً وهو العضلات.

ولا تقتصر هذه الآية الكريمة على هذا الإعجاز، وإنما تفيد أيضاً أن التخلق وهو تمايز الأعضاء يبدأ من المرحلة التي يكون فيها الجنين بقدر المضغة، وهذه أيضاً حقيقة علمية إذ لم يعرف أحد قبل القرآن أن فترة بدء التخلق تكون من المرحلة التي يكون فيها الجنين بقدر المضغة.

ويقول علم الأجنة إن الإنسان يكون شبيهاً بحيوان مائي كشرغوف الضفدع وأطرافه كمجاديف يسبح بها في السائل الأمنيوسي، ثم تطرأ عليه تحولات تعطيه المظهر البشري.

وبعد أن يكون قلبه بسيطاً مكوناً من حجرتين كقلوب بعض الزواحف والمائيات تظهر له الحجرات الأخرى.

وتتكامل له الرئة البشرية ليتسنّى له الانتقال من التنفس بالجهاز الغلصمي إلى التنفس بالرئة البشرية.

إن كل هذه التحولات قد عبّر عنها القرآن الكريم في بيان روائع عندما قال ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ﴾ وهذه حقيقة علمية جليلة ما كان بمقدور أحد أن يتنبأ بها أو تخطر له على بال لو لم تكن من لدن حكيم خبير.

وروى مسلم في صحيحه عن عبد الله بن مسعود، قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا مرّ بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة - وفي رواية بضع وأربعون ليلة - بعث الله إليها مَلَكاً فصورها وخلق سمعها وبصرها وجلدها وعظمها ثم قال يا رب أذكر أم أنثى...».

وفي حديث آخر من صحيح مسلم أيضاً أن الملك يقول: «يا رب أذكر أو أنثى، فيجعله الله ذكراً أو أنثى، ثم يقول يا رب سوي أو غير سوي، فيجعله الله سوياً أو غير سوي»(1).

يحدد هذا الحديث الشريف الفترة التي يتخلق منه الجنين ويأخذ صورته البشرية وتتمايز فيه الأذنان والعينان والجلد والعظام والعضلات، ويحدد بدء ذلك باثنين وأربعين يوماً أو بضع وأربعين يوماً، وقد حدد علم الجنين ذلك بأنه في الأسبوع السابع كما تجد ذلك في مختلف المراجع عن علم الجنين، أي بعد أن يكو قد مرّ على النطفة ستة أسابيع كاملة وهي اثنان وأربعون يوماً فالمدة متفقة تماماً بين علم الجنين والحديث النبوي.

ويذكر الحديث النبوي أن التمايز بين الذكر والأنثى يحدث بعد ذلك، أي

---

(1) رواه مسلم عن حذيفة.

تمايزه متأخر عن تمايزات الأعضاء الأخرى، وعلم الجنين يؤكد هذه الحقيقة ويذكر أن الجنين يكون مزدوج الجنس لم تتمايز مناسله الابتدائية إلى خصية أو مبيض، وهي تتمايز بعد ذلك التخلقات التي تقربه من المظهر البشري.

جاء في كتاب خلق الإنسان يقول كتاب (هيومان امبريولوجي)، ص338 - 400:

«لا يمكن تحديد جنس الجنين بدراسة الغدة التناسلية لجنين يبلغ طوله (17مم) من الرأس إلى المقعدة وعمره (42) يوماً إلى (45) يوماً لأن الغدة التناسلية لم تتميز بعد إلى خصية أو مبيض».

ويشار هنا إلى أن الصبغي في نطفة الرجل وإن كان هو الذي يعين جنس المولود حسبما يكون XX أو XY إلا أن لهذه القاعدة استثناءات فقد يولد ذكر من صبغي جنسي XX وقد تولد أنثى من XY، ولا يتحدد الجنس بشكل نهائي إلا في الأسبوع السابع بعد تصوير الأعضاء والحواس لذلك جاء في الحديث: «ثم قال يا رب أذكر أو أنثى».

ويقول علم الجنين عن تلك الفترة بأنها فترة حرجة في حياة الجنين وبها يتحدد وجود أو عدم وجود تشوهات به، لذلك جاء في الحديث أن الملك يقول «يا رب سوي أو غير سوي».

ويشار هنا إلى أن التخليق وتمايز الأعضاء الذي عزاه الحديث النبوي للملك لم يستطع العلماء أن يفهموا كيف يحدث ولم يجدوا له تفسيراً مادياً ملموساً، إذ المعروف أن انقسام الخلية إلى خليتين ينتج عنه خليتان متماثلتان تماماً.

● الظلمات المحيطة بالجنين:

قال تعالى: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾ [الزمر: 6]، من المعروف علمياً اليوم أن الجنين يحيط به ثلاث طبقات مستقلة تشكل ظلمات ثلاث: ظلمة ناشئة عن الغشاء الأمنيوسي، وظلمة ناشئة عن الرحم، وظلمة جدار البطن(1).

(1) فسر بعضهم الظلمات الثلاث بالطبقات الثلاث التي يتكون منها الغشاء الأمنيوسي، ولا=

● **تبدلات بطانة الرحم:**

قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴾ [الرعد: 8].

يقول علم الأحياء: إنَّ بطانة الرحم تطرأ عليها تبدلات دورية فهي تنمو وتحتقن بالدم وتزداد ثخانتها من (1/2مم) إلى (8مم) تقريباً لتحتضن البييضة الملقحة، فإن حدثت إباضة ولم تلقح البييضة توسفت هذه الطبقة وتنخرت وغاضت شيئاً فشيئاً حتى تصل إلى ثخانتها الطبيعية، وتشكل الخلايا المتوسفة دم الطمث، ويظهر أن الآية الكريمة تشير إلى هذه التبدلات الدورية بقوله تعالى: ﴿ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ﴾. وليس الغيض المذكور هو إلقاء الجنين؛ لأن هذه الكلمة تستخدم لما يتناقص شيئاً فشيئاً كماء البحيرة.

● **الزوجية في الكون:**

قال تعالى: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يس: 36]، وقال سبحانه: ﴿ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الذاريات: 49].

لقد عرف العلماء أن الزوجية لا تقتصر على الحيوانات، وأن النباتات تحتوي أجهزة مذكرة وأخرى مؤنثة، هي الأسدية والمدقات، وسواء كان النبات يحتوي على أزهار مذكرة وأخرى مؤنثة أم له أزهار خنائى تحتوي على الجهازين فهو قائم على الزوجية.

وعندما درس علماء الأحياء بنية الخلايا وتكاثرها وآلية انتقال الصفات

= أرى ذلك صحيحاً؛ لأن الطبقات المتلاصقة لا تشكل إلا ظلمة واحدة، وعدّ بعضهم ظلمة الخصية أو المبيض، وليس ذلك بصحيح؛ لأن الآية الكريمة تتحدث عن الظلمات المستقلة المحيطة بالجنين وهو يتخلق خلقاً بعد آخر، واستشكل بعضهم عد ظلمة البطن؛ لأن الآية ذكرت ثلاث ظلمات محيطة بالجنين وهو في البطن، أي أنهم رأوا أن البطن مذكور ولا يحسب أقول ليس ذلك بإشكال ألا نقول عن شيء محاط بغلاف واحد أنه داخل غلافه في ظلمة، وإن كان محاطاً بغلافين قلنا هو داخل ظلمتين وإن أحيط بثلاثة قلنا في ظلمات ثلاث.

الوراثية، وجدوا أن كل صبغي يأخذ بنظيره في البيضة الملقحة ويلتفان معاً على بعضهما، كذلك الخلايا الأخرى تحتوي على أشفاع من الصبغيات الملتفة، ووجدوا أن لكل صفة وراثية شفعاً من المورثات المتقابلة، أو عدداً من الأشفاع، ووجدوا أن الجينة المورثة نفسها مكونة من شريطين يتزاوج فيهما الأدنين مع التايمين والسيتوزين مع الغوانين، وكذلك شأن سائر الحموض النووية (DNA) الموجودة في نوى سائر الخلايا والتي تؤلف مكتبة ضخمة تحتوي على سائر التعليمات اللازمة لسير عمل الخلية وتفاعلاتها، كل هذه الحموض مكونة من شريطين فيهما التزاوج السابق.

أما الذرة فقد وجد العلماء عند دراستها أنها تحتوي الإلكترونات السالبة والبروتونات الموجبة، وعندما توسعوا في دراستها وجدوا نظيراً للإلكترون مكافئ له في الكتلة لكنه موجب الشحنة هو البوزيترون، ونظيراً آخر للبروتون لكنه سالب الشحنة هو انتيبروتون، ووجدوا الزوجية في بناء تلك العناصر، فوجدوا النترينو والنترينو المضاد، والكوارك والكوارك المضاد، وغير ذلك من الزوجيات.

وفي الفلك وجد أن القاعدة اقتران نجمين معاً يشكلان ثنائياً، أما وجود شمس مفردة كشمسنا فهو منظر فريد في الكون.

وفي مجال الفيزياء وجد العلماء أن كل وحدة عاملة لابد أن يكون بها قطبان متناظران كـ: حار وبارد، وسالب وموجب، وجاذب ونابذ، وقد نصت مبادئ الترموديناميك على وجوب وجود هذين القطبين في أي وحدة عاملة.

من كل ذلك تجد شمولية قانون الزوجية واطراده وأول من نصّ على هذه الحقيقة الهامة هو القرآن الكريم.

● توازن العناصر الكونية:

قال تعالى: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [الحجر: 21]، وقال تعالى: ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴾ [الرعد: 8].

لقد أدرك العالم بعد تطور العلم والاكتشافات أن كل شيء في هذه الحياة قد جعل له مقدار حكيم يناسب الحياة والأحياء، نسبة الأكسجين، نسبة غاز

الكربون، شدة الجاذبية الأرضية، قوة الضغط الجوي، شدة الإشعاع الشمسي، وأمور أخرى كثيرة كلها جاءت على قدر مناسب معلوم، بحيث أن أي خلل كان يمكن أن يهدد الحياة.

إن الناس قديماً لم يكونوا يدركون سر وأهمية ووجود هذه التقديرات الحكيمة عندما أثبتها القرآن وتحدث عنها.

وقال تعالى: ﴿ وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡزُونٖ ﴾ [الحجر: 19].

لم يكن الناس يعرفون ما معنى كون نبات معين موزوناً، أما اليوم بعد أن عرف أن النباتات مكونة من عناصر أولية، وهذه العناصر لها نسب ثابتة بدقة كبيرة في كل نوع مميز من النباتات، فقد أصبحت الآية مفهومة الدلالة وعُلِم أنها أشارت إلى حقيقة ما كان الناس يعلمونها.

● تنبؤات نبوية:

وعد القرآن الكريم المسلمين الاستخلاف في الأرض وتمكين دينهم وظهوره على سائر الأديان، قال تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ ﴾ [النور: 55].

وقال سبحانه: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴾ [التوبة: 33].

وفصّل الرسول ﷺ في تلك الإخبارات القرآنية، فأخبر بفتح بلاد الشام وفارس ومصر وغير ذلك، وقد حدث كل ذلك ولله الحمد، وإنك لتجد المؤرخين من الأجانب لا يستطيعون إخفاء دهشتهم الشديدة لما حصل، وهم يصرحون بأن ذلك ما كان ليستطيع أن يتنبأ به إنسان أو يخطر له على بال كيف وقد كان يجاور العرب دول قوية متحضرة كالروم والفرس، ولم يكن العرب يدانونهم في عمرانهم وشوكتهم وقوتهم.

وأخبر الرسول ﷺ بأمور كثيرة ووقعت كما أخبر، فمن ذلك إخباره عن قتال المغول والتتر، فجاء في البخاري ومسلم وغيرهما عنه عليه الصلاة والسلام:

«لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قوماً صغار الأعين حمر الوجوه ذلف الأنوف كأن وجوههم المجان المطرقة»، وفي حديث رواه مسلم يسمى أصحاب هذه الصفات: التُّرك، وهذه الصفات المذكورة تنطبق على التتار فهم من الشعوب المنغولية التي تتصف بصغرالعيون وذلف الأنوف[1]، وكانوا متوحشين يأكلون اللحم غضاً ووجوههم ممتلئة وعريضة كالمجان.

ومن المعروف أن الترك والتتار من أصول طورانية واحدة، وقد قرأت نقولاً عن قوميين أتراك يفخرون بجنكيزخان المغولي لأنه يلتقي معهم في أصل واحد، فما ذكره الحديث النبوي متفق مع الحقيقة[2].

وروى البخاري ومسلم مرفوعاً: «لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز تضيء أعناق الإبل ببصرى»، ويروى الحديث: «لا تقوم الساعة حتى يسيل واد من أودية الحجاز بالنار»، وقد خرجت هذه النار عام (654هـ)، وأرّخ لها كثيرون كالسمهودي في تاريخ المدينة، والقاضي سنان والقاشاني والقسطلاني وابن تغري بردي في الرياض الزاهرة، وقال في وصفها: «قد سال من هذه النار واد يكون مقداره أربعة فراسخ»، وحدد مكانها بأنها قرب مساكن بني قريظة أي في طرف المدينة المنوّرة إلى جهة الشرق الجنوبي»، وقال القسطلاني: «إن ضوءها استولى على ما بطن وما ظهر حتى كأن الحرم والمدينة قد أشرقت بهما الشمس وتأثر من لهيبها وصار نور الشمس على الأرض يعتريه صفرة»، وقال العماد بن كثير: «أخبرني قاضي القضاة صدر الدين الحنفي قال أخبرني والدي الشيخ صفي الدين مدرس مدرسة بصرى أنه أخبره غير واحد من الأعراب صبيحة الليلة التي ظهرت فيها هذه النار أنهم رأوا صفحات أعناق إبلهم في ضوء تلك النار»، وقال الإمام النووي: «تواتر العلم بخروج هذه النار عن جميع أهل الشام».

وقد ورد في الأحاديث النبوية تحديد مكان خروج هذه النار فجاء في حديث رواه أحمد أنها تخرج من حُبس سَيَل[3]، وفي الطبراني أن الرسول عليه الصلاة

---

(1) أي: فطس الأنوف، وهنالك روايات بهذا اللفظ.

(2) انظر تاريخ الإسلام: 131/4، لحسن إبراهيم حسن، حيث يذكر أنهم يرجعون والترك لأصل واحد، وبعض الشعوب والمؤرخين يسميهم جميعاً تركاً.

(3) قال الهيثمي في مجمع الزوائد 13/8: رجال أحمد رجال الصحيح غير رافع وهو ثقة.

والسلام سأل عن حُبْس سَيَل لما قدم المدينة وأمر رجلاً من بني سليم كان أهله فيها بإخراجهم منها لأن ناراً ستخرج منها، ويقول يوسف بن إسماعيل النبهاني في كتابه علامات قيام الساعة إن المكان الذي خرجت فيه هذه النار مما يلي المشرق بالنسبة للمدينة المنوّرة من جهة طريق السوارقية وهو جهة بلاد بني سليم، وذكر ياقوت الحموي في معجم البلدان: أنّ الحُبْس بين حرّة بني سليم والسوارقية، وذكر عن أبي فتح نصر حبس سيل إحدى حرتي بني سليم، وذكر أن السوارقية قرية بني سليم وهي في طرف المدينة الشرقي.

إذن فالمكان الذي حُدد في الحديث النبوي هو نفسه المكان الذي ظهرت فيه هذه النار، فمن كان بمقدوره أن يتنبأ بخروج هذه النار وصفتها وضوئها الساطع وموضع خروجها وسيلانها في واد ثم يكون الأمر كما أخبر ويحدث بعد ستة قرون ونصف ما لم يكن نبياً حقاً.

روى الحاكم في مستدركه مرفوعاً للنبي ﷺ: «تخرج معادن مختلفة معدن منها قريب من الحجاز يأتيه من شرار الناس»، وفي حديث آخر: «ستكون معادن مختلفة يحضِّرها شرار الناس»[1].

والظاهر أن ذلك هو النفط الذي خرج قرب الحجاز ويقوم على تحضيره أجانب ليسوا من المسلمين، ولا يقال إن النفط ليس بمعدن، لأن اسم المعدن في الأصل يطلق على كل ما يستخرج من الأرض[2]، والتقسيم إلى معادن وأشباه معادن، وغير ذلك اصطلاح حادث.

وروى الترمذي بسند جيد أنه لا تقوم الساعة حتى تكلم الرجل عذبة سوطه وتخبره بحديث أهله؛ ويبدو ذلك تنبؤا عن اللاسلكي الذي يمكن أن يشبه عقدة السوط وله شريط كالسوط، وقد وصفه النبي ﷺ للناس بما يعرفون لأنه لا يمكن وصفه بما يجهلون.

وروى مسلم في صحيحة «لا تقوم الساعة حتى يكثر المال... وحتى تعود

---

(1) الحديث الأول قال عنه الحاكم: صحيح، ووافقه الذهبي، والحديث الثاني قال عنه الألباني: صحيح.

(2) هذا الاسم مأخوذ من عَدَن بالمكان إذا أقام فيه ومنه جنات عدن: أي جنات إقامة دائمة، ويسمى ما يستخرج من الأرض معدناً لأنه مقيم فيها.

جزيرة العرب مروجاً وأنهاراً».

يثبت الحديث الشريف أنّ بلاد العرب كانت مروجاً وأنهاراً، وهذا عليه دلائل جيولوجية، فقد ثبت للعلماء أن القطب الشمالي كان مرة في غربي شمال أمريكا؛ وهذا يعني أن بلاد العرب كانت على حدود المنطقة الباردة الجنوبية حيث تكثر الأمطار وتظهر المروج، وقد اكتشف في الربع الخالي أشجار متفحمة تؤكد أن تلك المنطقة كانت ذات أشجار ومروج، وإن وجود البترول بكثرة في تلك المناطق يؤكد هذه الحقيقة؛ لأن النفط ينتج من تحلل الغابات القديمة.

ويذكر الحديث أيضاً أن جزيرة العرب ستعود كما كانت مروجاً وأنهاراً، وهذا متوقع حدوثه؛ لأنه ثبت أن القطب يزحف نحو الجنوب وسيغدو الوطن العربي وجزيرة العرب على حدود المنطقة المتوسطية الباردة حيث تكثر الأمطار.

ومن جهة أخرى فاستصلاح الأراضي جار على قدم وساق في جزيرة العرب حتى أصبحت السعودية بلداً مصدِّراً للقمح، وكل ذلك يأتي تصديقاً للحديث الشريف.

وقد تنبأت الأحاديث النبوية بأمور كثيرة ووقعت كما أخبر بها كعلو البنيان وتبرج النساء وتقليد الأمم الأخرى، وهو ما نراه في اتّباع الموضات. وذكرت أموراً أخرى ولا يتسع المجال لبسطها كلها.

وبعد:

لنسأل الآن كيف عرف محمد ﷺ بسائر تلك الحقائق العلمية والغيبية التي ما كان يعلمها أحد من الناس؟

أيمكن لرجل يحترم عقله ويحترم الحقيقة أن يقول إن سائر هذه التنبؤات العلمية والغيبية المدهشة جاءت من خيال أفاق كذاب كما يدّعي الملحدون. ومن رجل أمي؟.

خذ أي كتاب قديم تكلم عن الحقائق الكونية وحقائق علم الأحياء وقارنه بالعلوم الحاضرة فستجد فيه غرائب وإسفافات كثيرة ولو كان قائله من كبار علماء وقته.

فما بال القرآن الكريم الذي جاءنا به رجل أمي[1] نشأ في أمة أمية لا نجد به صدى لأي من المفاهيم القديمة المغلوطة، ونجده يتفق تمام الاتفاق مع المعارف الحديثة، ويتنبأ عن حقائق مدهشة كثيرة ما كانت لتخطر على بال إنسـان في تلك العصور.

لعمر الحق إن الحق لواضح لمن كان يفتش عنه ليعتقده، أما الذي فرض على نفسه الكفر سلفاً فهو لا يذعن للحق مهما كان واضحاً ولو كان كالشمس أمام عينيه، وهذا الصنف من الناس لا نلتفت له ولا نخاطبه ولن يضر وجود أمثال هؤلاء الحقيقة شيئاً.

* * *

(1) انظر قوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ [العنكبوت: 48].

رابعاً: الإعجاز البلاغي في القرآن

يتميز القرآن الكريم بوجود وجوه كثيرة للإعجاز اللغوي فيه، ولا يتسع المقام لبسطها كلها فحسبنا التعرف هنا على بعض مظاهر الإعجاز البلاغية فيه التي يمكن إدراكها بسهولة ولا تحتاج إلى مختص في اللغة، لنتبين أنه معجز حقاً في صياغته وهنالك مراجع كثيرة قديمة وحديثة لمن أراد التوسع في هذا الموضوع وهذه بعض جوانب الإعجاز الهامة فيه.

افتراقه عن الشعر والنثر وتميزه بنسيج فريد:

إن أول ما يطالعنا في الأسلوب القرآني هو انفراده بإيقاع خاص يميزه، ولاتنتج فيه الموسيقا الداخلية من الأوزان الشعرية كالنظم فهو غير ملتزم لأوزان، وإنما تنتج فيه الموسيقا الداخلية التي تميزه عن النثر بوضوح بطريقة محيرة تماماً، ولا ينازع أحد من أهل العربية في تميز القرآن الكريم بهذه الخاصية التي لا يشاركه فيها غيره، والتي تجعله نسيجاً فريداً لا يماثله شيء من الشعر أو النثر.

خذ مثلاً قوله تعالى: ﴿ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ﴾ [هود: 6]، إذا غيّرت في بنائها أي تغيير طفيف وجدت اختلال النسق والإيقاع، فإن قلت: كل دابة في الأرض على الله رزقها اختل الإيقاع، وإن قلت: ما من دابة في الأرض إلا الله يرزقها اختل النسق واتساق العبارة، وإن قلت: الله رزاق لكل دابة اختفى الجرس الموسيقي في العبارة.

خذ قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ نَطْوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ﴾ [الأنبياء: 104] آية متماسكة الكلمات تشعر بجلال وعظمة الربوبية، وإن أي تعديل في العبارة يسيء إليها، فلو قلت سنطوي السماء كما نطوي الكتب لفقدت العبارة تماسكها ولمساتها الجليلة، ولو أتممت العبارة بقولك نعيد الخلق كما ابتدأناه لنفر عن الاجتماع مع العبارة الأولى.

خذ قوله تعالى: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن: 13] وجرّب نفس المحاولة السابقة تجد النتيجة نفسها.

انظر إلى قوله سبحانه : ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ [الحشر : 23 - 24].

هذا نص قرآني يخلو من الوزن الشعري، يخلو من التقفية، وأكثره سرد أسماء، ومع ذلك فإنه يؤلف نسيجاً فريداً يختلف عن باقي الكلام.

خذ ما شئت من أسماء الله الحسنى ورتبها ترتيباً لم يذكر مثله في كتاب الله فستجد افتراق النص القرآني عنه افتراقاً واضحاً، إن كان لديك قسط ولو قليل من السليقة العربية.

فبأي أربطة خفية تشد الكلمات إلى بعضها في القرآن؟ وكيف تؤلف كلماته نسيجاً متماسكاً تنبعث منه الموسيقا الداخلية؟ كل ذلك مجهول لدينا فنحن ندرك اختلافه عن غيره ولا ندري سر هذا الاختلاف، ولا نحسن تقليده ومجاراته.

التصوير الحي في القرآن:

للقرآن الكريم خاصة متميزة في إعطاء الأشياء التي يصورها حياة وحركة وتصوغ نبرات الكلام إيقاعاً يلتئم تماماً مع دلالة المعاني المؤداة، مما يجعل الإنسان يعيش في الجو الذي ترسمه الآيات وكأنه يرى الوقائع فيها بناظريه.

فانظر إلى هذه الألفاظ المنتقاة وإيقاعها العذب في قوله سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴾ [طه : 77].

لقد ذابت العبارات في يد الخالق فأصبحت وهي موجهة للمؤمنين به في غاية الرقة والعذوبة، انظر كيف عدل عن لفظ يابس وهو اللفظ الشهير وقيل يَبَساً، وعن لفظ إدراك وقيل دركاً، لقد اختيرت الألفاظ من أرق اشتقاق لها وصيغت بعبارة لطيفة لا أحسن منها.

وإن أي تغيير طفيف في العبارة يسيء إليها فلو وضعت واواً قبل لاتخاف لما ظهرت تلك النسمة اللطيفة التي تنبعث من الآية.

ثم انظر إلى هذه اللمسات الهائلة في قوله سبحانه: ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [هود: 44].

تجد نفسك كأنك ترى الطبيعة كفت عن الزمجرة والتهطال، وصفق الدور والخيام وصمتت عقب أمر عظيم رهيب قد حدث.

اتل قول الله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴾ [يوسف: 70 - 72].

ثم انظر إلى الصورة المتحركة التي تتراءى لك من خلال النص، تجد كأن صوت ذلك المؤذن يرن في سمعك، ويتراءى لك القوم وقد عطفوا رواحلهم وأقبلوا مستفسرين مستنكرين لما نادى به ذلك المؤذن؛ وكأنك ترى جماعة الملك طفقوا يحاورونهم ولنبرات كلامهم صدى في أذنيك.

تأمل في هذا التعبير التصويري الذي تعطيه الآية الكريمة عن أهل الكهف: ﴿ ۞ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ﴾ [الكهف: 17].

إن لفظ تزاور في هذا السياق يريك الشمس وقد مالت عن كهفهم وألقت عليه بشعاع ضئيل فتسلل إليه ولم يكد يضيئه وإنك لتلمح بزوغ الشمس وارتفاعها في لفظ تزاور، ولفظ تقرضهم يريك الشمس وقد انطفأت حدة شعاعها وفترت تترك الكهف لتسقط في المغيب كليلة وانية.

وبعده تقرأ ﴿ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ﴾ فيصور لك أنهم في متسع كهفهم لا يشعرون تتالي شروق الشمس وغروبها ولا بشيء مما يجري حولهم.

تأمل في العبارة القرآنية التي تحكي لنا قصة إغواء آدم عليه السلام وحواء على يد إبليس اللعين: ﴿ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ﴾ [الأعراف: 21 - 22].

انظر كيف ذكر قسمه لهما بهذه الصيغة الفريدة ﴿ وَقَاسَمَهُمَآ ﴾ لفظ يشعرك بأنه يقول بنبرة ملئها التودد والعطف، نبرة يجعلها تنطلق من أعماق نفسه وهما يصغيان إليه ويصدقان(1).

---

(1) أشعرت الكلمة باشتراكهما بالإصغاء والتصديق؛ لأنها جاءت على صيغة المفاعلة التي تقتضي لغة صدور الفعل من أكثر من واحد.

وانظر إلى قوله تعالى: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾ هل هنالك تعبير أحسن منه تصويراً لاستنزالهما عن مقامهما العالي بخديعته التي موّهها.

خذ قوله تعالى في محاورة المشركين الذي يزعمون الملائكة بنات الله: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ۝٢١ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾ [النجم: 21 - 22]، لقد جاءت كلمة ضيزى نافرة مستغربة في هذا السياق، وما ذاك إلا لتصور لك الاستهجان والاستنكار لقولهم، وإنك لتفهم من جرس الآية الكريمة المعنى من قبل أن تفتش في المعجمات عن معنى كلمة ضيزى.

لنتناول قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ[1] ۝١٥ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ[2] ۝١٦ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ۝١٧ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ۝١٨ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [التكوير: 15 - 19]، إنه يقسم بالكواكب التي تغذ السير بهدوء وصمت فتلج في مواقعها الخاصة، ومن المعروف اليوم أن هذه المواقع والمسارات حرجة دقيقة لأن أي حيود عنها يشتت الكوكب ويدمره، فكأن الكوكب ينسل حذراً في موقعه ويدخله كالظبية التي تنسل بخفة وهدوء وحذر في مكمنها من الشجر وبلا ضجيج ولا صخب.

وتأتي كلمة (الجوار) مع (الكنس) لتفهمك أن ذلك يحدث بلا بطء وتريث. ولو أنك راقبت حركة الكواكب ووضعيات التوازن بين القوى الكثيرة التي تختلف في كل وقت حسب اختلاف مواقع الكواكب الأخرى، ووجدت الكوكب ينسحب بصمت وسرعة في مواقعه الدقيقة الحرجة لرأيت منظراً صامتاً يدعو إلى الحذر والوجل، ويصدق عليه الوصف القرآني ويطابقه تمام المطابقة.

ثم تقرأ ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴾ فتجد أن لفظ عسعس يصور لك الليل بكل ما فيه من طول وحلكة ظلام ورهبة، وهو يجر ذيوله القاتمة ويمضي ولفظ ﴿تَنَفَّسَ﴾ يعطيك أحسن تصوير لانطلاق الحياة وتجددها مع الفجر.

ولو أنا نظرنا إلى هذا القسم القرآني والصورة التي وضعها أمامنا لوجدناه يناسب المقسم عليه، وهو إثبات النبوة والوحي الإلـهي تمام المناسبة، فالنجوم المحكمة النظام التي تتلامح في الليل وضيئة زاهرة، كلها تختفي عندما يتنفس

---

(1) من خنس إذا انقبض مستتراً.
(2) جمع كانس وهو الظبي أو الظبية إذا دخلت في كناسها أي مكانها من الشجر.

الفجر وتظهر الشمس بضيائها، والليل المدلهم يدبر وينقشع بطلوعها، لذلك لا أحد ينكر الشمس ولها هذه الصفات، فكذلك الوحي المحمدي فهو الذي تبدد أمامه ليل الشرك والجهل والعصبيات والأخلاق الذميمة، وبيّن للناس نور الهداية في العقائد والشرائع والأخلاق وسائر جوانب الحياة، وتضاءلت أمام حقائقه ونصاعة براهينه ونجاحه كل النظم والأديان الأخرى تضاؤل نور الكواكب التي تخنس وتنقبض أمام نور الشمس.

إن الوحي الذي هذه صفاته لا يمكن التنكر لأحقيته وبعده عن التمويه والخداع، كما لا يمكن التنكر لنور الشمس والقول عن ضيائها خديعة لا حقيقة وراءها.

مما سبق تجد جمال وروعة التصوير القرآني وانبعاث الحياة فيه وملاءمته الكاملة للموضوع والذي يتجلى في هذا المثال الأخير في الملاءمة بين المقسم به والمقسم عليه[1].

---

(1) إن سائر القسم في القرآن الكريم فيه مثل هذه المناسبة اللطيفة ولم يعتن المفسرون كثيراً بإظهار هذه المناسبات، فلو أمعنّا النظر مثلاً في قوله سبحانه: ﴿وَالْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ۝٣ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝٤ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ﴾، لوجدنا رابطاً يربط بين هذه المقسمات وجواب القسم الذي حذف هنا، وبين تلك المقسمات مع بعضها البعض، فصورة الفجر المنبثق التي نراها بأعيننا تذكرنا بفجر الإسلام، والليالي العشر هي ليال عشر مباركة انبثق فيها فجر الإسلام، وقد كان ظهور أول خيوط النور منه في ليلة القدر التي ابتدأ نزول القرآن فيها وهي في العشر الأخير من رمضان الذي هو عشر مبارك، وعمَّ نور فجر الإسلام وظهر سلطانه في العشر الأول من ذي الحجة، ففيه فتح الرسول عليه السلام مكة وكسر الأصنام فيها وثاب الناس إلى دين الله أفواجاً، ويظهر أن قوله (والشفع): إشارة إلى أن هذين العشرين مرادان ومقسم بهما، وقوله: (الوتر): إشارة إلى أفضلية ليلة القدر التي تقع في أوتار العشر الأخير، وإلى يوم عرفة الذي يقع في العشر الثاني والذي هو أحب الأيام إلى الله والذي لم يرَ الشيطان أحقر ولا أذل منه في ذلك اليوم كما ذكر الرسول ﷺ، وقوله: (والليل إذا يسر): يضعنا فيه أمام صورة الليل الذي ينقشع ويتبدد بظهور الفجر ويذكرنا ذلك بفجر الإسلام الذي بَتَرَ ليل الكفر وبدده، ولأجل ذلك جاء كلمة (يسر): مبتورة الياء وكأنها تعبر عن بتر ذلك الليل بتراً. أما جواب القسم فهو محذوف وتقديره لينتصرن نور الإسلام ويندحر ليل الكفر، ويبدو أنه حذف لأنه في وضوح لا يحتاج معه إلى إظهار، ولأن أهل الكفر أوعدوا به ومن شأن الإيعاد أن لا يكون مفصلاً=

وجميع آيات الكتاب العزيز تتسم بإعطاء التعابير فيها حياة وحركة حتى تلك الآيات التي لا يظهر فيها صور بيانية، فلو انك تلوت قوله سبحانه: ﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [يـس: 20]، ورددتها متدبراً لها فستجد كأن ذلـك الرجل يتراءى أمامـك وهو يحـاور الآخريـن ويحاججهم

اتل أي آية في كتاب الله ورددها متدبراً لها وأنت خال في هدأة الليل تجد الآية ذات كيان خاص ينساب في نفسك ويصور لها المشاهد ويقرعها في الصميم، إنه كلام لا يشبهه أي كلام آخر، كلام له غور وأفاعيل وسحر في النفوس، جعل العرب وأقحاحهم يسجدون له.

فانظر مثلاً إلى جبير بن مطعم وهو يحدثنا عن سماعه تلاوة الرسول ﷺ

= ومبيّناً ليكون أبلغ في التخويف، ولا يهتم من يوعد به بأن يقنع المخاطبين بما يكون فيه ولكن يقول لهم انتظروا وتأتي الآيات اللاحقة لتعطينا مثلاً عن ليل كفر الأمم السابقة الذي بتره الله بتراً فيقول تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴾ [الفجر: 6]. ولو نظرنا أيضاً إلى قسمه تعالى بقوله: ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴾ [الانشقاق: 16 - 19]، ، لوجدنا به تناسباً بين القسم وما أقسم عليه، فالشفق يكون في آخر النهار ويؤذن بميلاد مرحلة جديدة، مرحلة الليل الذي يضم تحت جناحيه أموراً وأشياء شتى تغيب عن الأنظار وليس يمكن للإنسان إنكارها لأنه لا يراها، والقمر الذي اتسق أي تم يتمم قصة ظهور النور حتى اكتماله، ويبيّن أنَّ حالـة ظهور الهلال قصة تنتظر تتمتها ولابد أن تتم حتى يظهر البدر كاملاً يضيء سناه في تلكم الليالي، أما المقسم عليه (لتركبن طبقاً عن طبق): أي لتتجاوزونّ مرحلة بعد مرحلة فليسـت الدنيا بآخر مراحل حياتكم وبعدها مرحلة الحياة الآخرة، فهو متناسـب مع المقسم به، فكما أن الشفق يؤذن بميلاد مرحلة جديدة فكذا انتهاء الحياة الدنيا تؤذن بحياة بعدها، وكما أن الحياة الآخرة مغيبة عنا وتضم أموراً ليس للمرء إنكارها؛ لأنه لم يرَ مثلها فكذا الليل يضم بلفاعة القاتم أشياء وغرائب ليس للمرء إنكارها؛ لأنها مغيبة عن حواسه، وكما أن القمر الذي يتسق يتمم قصة القمر الذي ظهر ناقصاً فالحياة الآخرة تتمم قصـة الدنيا التي لم تظهر فيها قصة العدالة الإلـٰهية قـد اكتملت، وفي الآخرة يظهر نـور العدل والحق واضحاً لا لبـس فيه ويقضي الله تعالى بين الخلائـق قال سـبحانه: ﴿ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَـٰبُ وَجِا۟ىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [الزمر: 69]، هذه هي المناسبة بين القسم وما أقسم عليه، وعلينا أن نذكر أنَّ كلا الصورتين من خلق إلـٰه واحد خلق الأشياء على سنن واحدة.

بالطور وهو مشرك فيقول: «فلما بلغ ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴾ [الطور: 35 - 37] كاد قلبي أن يطير».

الصدق الكامل للأمثال والصور البيانية القرآنية:

يشترك الأدباء في الإتيان بصور بيانية وتشبيهات وتمثيلات وهم يتفاوتون في مدى انطباق صورهم البيانية مع الواقع المراد التعبير عنه، وفي مدى تحريك هذه الصور للأحاسيس والمشاعر، وفي مدى صدق هذا التصوير وإقناع المخاطب به.

وتجد الأدباء يسرحون في الخيال ويأخذون منه تقابلات وصوراً تعطي إحساساً بالجمال ولولا هذا الخيال لما ظهر هذا الإحساس بالجمال.

لكن التحليق في الخيال يجعل التعابير تبتعد قليلاً أو كثيراً عن الصدق ويظهر لدى الأدباء نوع من التعارض بين تحقيق مطلبين الصدق(1)، وتملك المشاعر والإحساس بالجمال، ولهذا قيل عن الشعر أعذبه أكذبه.

ونحن إذا انتقلنا إلى التصوير في القرآن، وجدناه يحقق كامل مطلوبات التصوير على أحسن وجه، فالصور فيه منطبقة أبدع الانطباق على ما تصوره، وهي متملكة للمشاعر والأحاسيس من غير ابتعاد عن الصدق ولجوء إلى الإغراب والمبالغات، وهي تقنع القارئ تمام الإقناع وتجعله كأنه يرى الوقائع ويقتنع بأحقيتها.

ولنضرب بعض الأمثلة على أمثاله وصوره، ونتبيّن كيف جمعت بين الصدق وروعة التصوير.

1 - قال سبحانه في وصف المنافقين أولئك الذين يظهرون الإيمان وقلوبهم مرتابة مكذبة ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة: 19 - 20].

---

(1) يمكن أن يميز بين صدق العاطفة وصدق التصوير ونريد بالصدق هنا صدق التصوير.

إن صيّب السماء ـ وهو المطر ـ يمثل الوحي المنزل من السماء فكلاهما خير نازل من السماء وبه حياة الناس والأنفس، وقوله: ﴿فِيهِ ظُلُمَٰتٌ﴾ يشير حسبما أرى إلى الإخبارات الغيبية التي جاء بها وحي السماء، والتي لا تستقر في نفوس المنافقين كحق وصدق فيقعون في غياهب الضلال.

أمّا الـرعد فهو يمثل ما يقرع أسـماعهم في هذا الكتاب من وعيد وتهديد يبعث على الخوف والرهبة، والبرق هو حقائق هذا الدين وبراهينه الساطعة التي تأبى إلا الظهور وتبهر الأبصار.

أمّا جعل أولئك أصابعهم في آذانهم خشية الصواعق فهو تمثيل لحال أولئك الكفرة والمنافقين الذين ينأون عن سماع آيات الكتاب والحق، ويصمون آذانهم بوضع أيديهم فيها لما تفزعهم آيات الكتاب بما تذكره من وعيد بقارعات تحل بالكافرين، وبعذاب مقيم، وبأدلة جلية على صحة الرسالة وما تتضمنه من تهديد، وهذا ينغصّ عليهم مذهبهم الجاحد، وغرقهم في الشهوات المحرمة لذلك هم يعرضون عن الحق، ويصمون آذانهم كي لا يسمعوه، وكأن هذا الفعل يدفع عنهم الأذى وينجيهم من واقعهم الخطر، ألا إن فعلهم هذا في اتقاء الخطر يسخر منه كل عاقل، فالله تعالى محيط بهم ومجازيهم بأعمالهم.

وعندما يومض البرق يكاد يخطف أبصارهم، فيستنيرون لحيظات بسناه ثم يُظلم عليهم فيقفون كأشباح ماثلة جامدة في الظلام لا تهتدي سبيلها وطريقها؛ هذه الصورة صورة المنافقين عندما تظهر أمام أعينهم بوارق الإسلام الساطعة فتبهتهم وتسكتهم وتخضعهم فلا يحيرون جوابا، وكما لا يمكن للمرء أن يحدق بالبرق الخاطف للبصر، فكذلك هم لا يملكون استيضاح حقائق هذا الدين ثم التنكر لها.

وعندما يغيب عن أسماعهم ذكر هاته الحقائق، تجدهم هائمين ضائعين كأولئك القوم الذين أُظلم عليهم فقاموا في الليلة الشاتية ذات الصواعق كأشباح وسط الظلام لا يهتدون سبيلاً ولا لهم ملجأ وواق.

كم في هذا المثل القرآني من جمال وروعة، وكم هو مطابق للواقع وصادق في مختلف وجوهه، ومتملك للمشاعر دون اللجوء إلى الإغراب والمبالغات.

2 - قال تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ[1] ﴾ [يس: 8].

أغلال تشد على اليدين وتجمع إلى العنق تحت الأذقان، فيُرفع الرأس بسبب ذلك إلى أعلى ويكل بصره، هذه هي صورة المتكبرين عن اتباع الحق الذين لا يذعنون له ويشمخون بأنوفهم تعالياً.

لقد صوّر تكبرهم ورفع رؤوسهم تعالياً على الحق، تصويراً صادقاً يظهرهم، بعيدين البعد كله عن تحقيق العزة والكرامة لأنفسهم، فرؤوسهم التي رفعوها ليست مرفوعة رفع العزة بل مرفوعة بالأغلال، رفع رأس المشنوق وقد منعهم هذا الرفع الذليل عن رؤية ما أمامهم وما حولهم.

هذه الأغلال المادية التي جمعت أيديهم إلى عنقهم ترمز إلى أغلال الشهوات والأنفة الجاهلية التي تفرض عليهم رفض الانقياد للحق وتمنعهم من رؤيته واستيضاح حقائقه، كما تمنع الأغلال المجموعة إلى العنق صاحبها من التعرف على ما حوله.

إنك مهما حاولت أن تجد صورة أبلغ في التشنيع على هؤلاء الكفرة ووصفهم بما هم عليه لا تجد أحسن ولا أبلغ من هذه الصورة، وهي مع ذلك صورة صادقة وواقعية.

3 - قال الله تعالى: ﴿ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ ﴾ [الحجرات: 12].

إن الله تبارك وتعالى ينهى الإنسان عن ذكر أخيه في غيبته بسوء ويصوّر ذلك بأنه كأكل لحمه ميتاً لينفر المؤمن عن هذه العادة الذميمة.

ولو تفهم الإنسان هذه الصورة القرآنية لوجدها صادقة واقتنع بأحقيتها ووقع في نفسه الاستبشاع الشديد لهذه العادة الذميمة.

لقد كان هذا التصوير صادقاً لأن التشهير والإذاعة لسيئات وسقطات الإنسان شديد جداً عليه، فكم يتأذى من ذلك؟ إن في ذلك انتزاع ما به كرامته وهو كانتزاع

---

(1) المقمح: هو الرافع رأسه الغاض طرفه.

لحمه منه، وإن غيبة المغتاب تطفئ سَورة في نفس ذلك المغتاب وتشبع نهمه فهو كمن يزدرد لحماً له شوق إليه ويشبع نفسه منه.

ولقد كان هذا اللحم ميتاً لأن المغتاب يلوك بلسانه قضايا وسقطات سيئة يجرح عرض أخيه بها ويشبع حاجة نفسه من ذلك الشيء.

فهل تجد تصويراً أبلغ أثراً وأشد تنفيراً من تلك العادة الذميمة من هذا التصوير؟ وهل هنالك أخيَر وأصدق منه؟ وهل تجد ما يقاربه ويدانيه.

التحدي القرآني:

من المعلوم أنه لا يمكن لأي إنسان ولا في أي أمة من الأمم أن يصوغ لوناً جديداً من الأدب، ويعجز جميع المعاصرين واللاحقين عن مجاراته ومحاكاته فيه، فهذه حقيقة ثابتة لا يمكن لأحد أن ينازع فيها، ولا يملك أحد مثالاً واحداً يستطيع أن يهدم به هذه القاعدة.

وهذا القرآن الكريم لفظ عربي ونسيج فريد أتانا به محمد بن عبد الله ﷺ، وقال: إنه من عند الله، وبرهاني على ذلك أنه معجز، فإن شككتم في ذلك فأتوا بمثله أو بحديث وسورة مثله قال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: 23 - 24].

ولقد كرر هذا التحدي بلهجات واخزة وألفاظ قارعة تستفز العزيمة وتستنهضها، ورغم ذلك ما استطاع العرب المشركون ولا من بعدهم الإيتان بمثله ومعارضته.

ولقد كان العرب قد برعوا في ميدان البلاغة والفصاحة واشتهروا بذلك وتباروا مع بعضهم بها، لذلك كان تحدي القرآن الكريم لهم تحدياً بما برعوا به. ولقد كان هنالك داع قوي يدعوهم إلى مباراته ومعارضته كيف وقد فتن عليهم أبناءهم وسفه أحلامهم، وسخر من آلهتهم ووصمهم بالعجز عن معارضته، ولم يكن هنالك أي مانع يمنعهم من المعارضة، لكنهم سكتوا وخنعوا أفتراهم يحجمون عن تسديد طعنة إلى الإسلام هم قادرون عليها؟؛ وهل يدعون العجز والعار لاصقاً بهم لعجزهم عن معارضته، وهم أبعد الناس عن السكوت على الضيم وتحمله؟.

وهل يمكن لقوم حرصوا على إبطال دعوى خصمهم وطمس دعوته حتى بذلوا في ذلك أنفسهم وأموالهم، أن يسكتوا عن إبطال حجة خصمهم التي تمسك بها وهم قادرون على ذلك؟.

إن التاريخ لم يحفظ لنا محاولة جادة للمعارضة تستحق النظر، وكل ما حفظه لنا ترهات كترهات مسيلمة الكذّاب وابن الراوندي مما كان مثار سخرية الناس والأدباء، ومما لا يستطيع كافر أن يرفع به رأساً، واسمع ما يقوله الشاعر المعري في كتاب ابن الراوندي، الذي عارض به القرآن وسماه (التاج)، مع كون المعري غير معروف بالنزعة الإسلامية: «وأما ابن الراوندي فلم يكن إلى المصلحة بمهدي وأما تاجه فلا يصلح أن يكون نعلاً، ولم يجد من عذاب وعلا (أي ملجأ) ويجوز أن ينظم تاجه عقارب فما كان المحسن ولا المقارب»[1].

إن ظاهرة انفراد القرآن بنسيج خاص لا يشاركه فيه غيره، وعجز سائر الناس عن الإتيان بمثله رغم التحدي الصريح في ذلك، هو دليل ساطع على صحة هذا القرآن وإلـهية مصدره، ولا يمكن لأحد أن يخمش في صحة هذا الدليل طالما هو واقف مع غيره على عتبات العجز، وطالما هو لا يجد تفسيراً لهذه الظاهرة التي لا مثيل لها في التاريخ، ولا عند أي أمة من الأمم.

ومن جهة أخرى فكلنا يعلم أن لكل كاتب وأديب أسلوب معين في الكتابة ومسحة خاصة تميز أدبه عن أدب غيره، ولو طلبت من كاتب يتميز أدبه بالجزالة والرصانة كالرافعي أن يكتب بأسلوب كأسلوب طه حسين مثلاً لما استطاع لأن الإنسان لا يمكنه أن يخرج عن أسلوب نفسه، وأسلوبه يميزه كما تميز البصمات صاحبها عرف ذلك من عرف وجهله من جهل.

بعد ذلك انظر إلى القرآن الكريم والحديث النبوي إنهما متمايزان مفترقان افتراقاً شديداً، فإن كان الإنسان لا يستطيع أن يخرج عن أسلوب نفسه إلى أسلوب أديب آخر، فكيف يخرج عن أسلوب نفسه وأساليب جميع الناس في كتاباتهم؟ إلى كلام له مميزاته الخاصة التي تفرده وتميزه عن كلام سائر الناس.

وإن سائر أهل اللسان وأرباب الفصاحة قد أقروا بإعجاز القرآن حتى

---

(1) رسالة الغفران، ص479.

الأدباء النصارى الذين تذوقوا لغة العرب لم يملكوا إلا القول بإعجاز القرآن، ويذكر الرافعي أن إبراهيم اليازجي وهو أبلغ كاتب أخرجته المسيحية قد أقرّ بإعجاز القرآن أمامه، وأشار أيضاً إلى ذلك في مقدمة كتابه (نجعة الرائد)، وكذلك الأستاذ المسيحي خليل مطران[1]، وهذه أبيات مما نظمه الأديب نيقولا حنا في كتابه من وحي القرآن:

يقولون ما آياته ضل سعيهم ... وآياته ليست تعد عظام
كفى معجز الفرقان للناس آية ... علا وسما كالنجم ليس يضام
فكل بليغ عنده ظل صامتاً ... كأن على الأفواه صُرَّ كمام
فصيح بليغ نطقه وبيانه ... قريب بعيد فهمه ومرام
تنزه عن هجر فما اللفظ موحش ... ولا فيه بهتان وليس يذام
تجاوب أصداء التلاوة في قُبا ... فشُق لها في المشرقين إمام

* * *

(1) وممن أثنى عليه أيضاً مارون عبود ومي زيادة، وذكر بعض الأدباء أن بشارة الخوري الشاعر المعروف كان يطلب من زوّاره المسلمين آخر حياته تلاوة القرآن.

خامساً: الإعجاز التشريعي في القرآن

لنلقِ الضوء على بعض مظاهر الإعجاز التشريعي في رسالة محمد ﷺ، لنستوضح الإجابة على السؤال القائل هل يكون بمقدور رجل من عصر ظهور الرسالة ان يأتي من عند نفسه بمثل تلك التشريعات التي جاءنا بها محمد ﷺ.

لما كان التشريع القرآني يعتمد على جذور اعتقادية تشكل الأساس الراسخ لبنائه التشريعي، يحسن بنا أن نستوضح السمات الأساسية لهذا الاعتقاد.

أولاً ـ من ملامح الاعتقاد في القرآن:

1 - وضوح العقيدة وموافقتها للفطرة: إن عقيدة الإيمان بالله تعالى في القرآن هي عقيدة واضحة بيّنة يقتنع بها العقل، ويصدق بها بسهولة ويطمئن لها الوجدان، وتحبب إلى النفس لموافقتها الفطرة الإلهية التي فطر الناس عليها، فهي تقول بالتوحيد الخالص وتنزيه الله تبارك وتعالى عن سائر النقائص والطبائع البشرية التي لا تليق بمقام الألوهية، لذلك فهذه العقيدة لا تصطدم مع العقل أو الوجدان، ولا تجد ما يعكر صفاءها أو يعترض وجودها في النفس، لذلك تثبت بلا تردد وتفيض روحانياتها على الإنسان.

فالإيمان بجلال الله وعظمته وصفاته وأسمائه الحسنى يملأ على المؤمن نفسه، ويكون له بالغ الأثر في نظراته وتصرفاته، أي أن اعتقاده بعظمة وجلال وكبرياء الخالق يعكس على نفسه وتصرفاته أثراً جليلاً، أما الذين يعتقدون بالخالق صفات هي من الطبائع البشرية الهزيلة فلا يعكس اعتقادهم على حياتهم إلا أثراً هزيلاً.

ولو أنا نظرنا في كتب ديانات أخرى وجدناها تصف الله بأنه على صورة البشر، وأنه يفعل الفعل ثم يندم عليه ويتأسف، يخلق ثم يجلس ليستريح، يتمشى في الجنة فيختبئ منه آدم وحواء لأنهما أكلا من الشجرة التي نهاهما عنها وهو لا يعلم بما صنعا.

أما في القرآن الكريم فالله تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: 11] وهو الذي خلق سائر المخلوقات والسماوات ﴿وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ﴾ [الانشقاق: 33] وهو الواحد الأحد الذي لم يتخذ صاحبة ولا ولدا، ولم يكن له شريك من ذل ولم يتجسد في مخلوق، وهو الذي لم يسبق علمه جهل ولا يتبدى له أمر جديد يندم عليه.

أي كتاب ديني يعطي مقام الألوهية حقها من التنزيه والجلال والتميز عن البشر مثل ما يعطيه القرآن؟ وأي عقيدة تتوافق مع فطرة الإنسان كما تتوافق عقيدة القرآن؟

2 - **لا كهنوت ولا عنصرية**: القرآن الكريم لا يُحمِّل الناس لعنة الخطيئة التي ارتكبها آدم وحواء عليهما السلام، فالإنسان لا يحاسب إلا بما اكتسبه هو قال سبحانه: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ(1) أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: 15]، وليس في شريعة القرآن أحد مفوض بالغفران عن الله تعالى، وليس فيه رجال دين لهم صلاحيات ليست لغيرهم، إنما فيه فقهاء وعلماء، لا يتميزون عن غيرهم من أبناء المسلمين إلا بأنهم أكثر دراسة لعلوم هذا الدين لذلك يرجع إليهم في تعلم علومه، وليس لهم أية صلاحية في الغفران قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: 53]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: 186]، وقال: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: 255].

ليس في عقيدة القرآن أن الله يقدم (ابنه) إلى القتل لتكفير الخطيئة تنفيذاً للنص القائل «بدون سفك دم لا تحدث مغفرة»، بل هو الإله الجليل الذي يغفر الذنوب بلا شرط ولا تعاظمه خطيئة قال تعالى: ﴿۞ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: 53].

وليس في شريعة القرآن شعب مختار وجنس مميز، فالتفاضل لا يكون إلا

---

(1) الوزر: في الأصل الحمل الثقيل، ويراد بها في الاية حمل الآثام ومعناها لا يحمل أحد إثم أحد.

بالتقوى، والله تعالى رب جميع الشعوب والعوالم فهو رب العالمين كما يصفه القرآن، وليس بقدوس إسرائيل كما تصفه التوراة.

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾[الحجرات: 13] وقال سبحانه: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: 92].

تنص هاتان الآيتان على وحدة الأمة البشرية، فأصلهم واحد وربهم واحد والتفاضل لا يكون إلا بالتقوى، وقد جعلهم خالقهم شعوباً ليتعارفوا فيما بينهم لا ليتفاخروا ويتعالوا على بعضهم.

إن هذه الآيات الكريمة تسوي بين بني البشر من حيث الأصل وتنكر التفاضل بالأعراق والألوان، وتبرز أول وأوضح دعوة أممية عالمية؛ فأين هي وأين نصوص كتب أخرى يقال عنها مقدسة وتفوح منها رائحة العنصرية.

3 - **لا تجميد للعقل ولا إكراه على الإيمان:** حارب القرآن الكريم التقليد الأعمى واتباع الآباء على غير هدى، وحاجج الآخرين في وجوب تحرير عقولهم وأفكارهم من ربقة التقليد قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: 170].

ونهى سبحانه عن اتباع مالا دليل عليه قال سبحانه: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء: 36]، وما يأمر القرآن به هو اليقين لا الظن قال الله تعالى: ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴾ [يونس: 36].

فالإسلام لا يجمد العقل ولا يريد من أتباعه أن يعتنقوه بلا دليل، والقرآن دائماً يحث على النظر في الكون والتفكر فيه؛ ومن إكرامه للعقل أنه منع الإكراه على الإيمان قال الله سبحانه: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ﴾ [البقرة: 256]، وقال الرسول ﷺ: «نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال رب أرني كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي» رواه مسلم، فبيّن عليه السلام أن من آمن بعد تفكير ونظر خير ممن آمن بلا نظر ومناقشة عكس نظرة الأناجيل.

وقال سبحانه: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء: 15]، فمن سبقته رسالة الرسل لا يسأل عنها لعدم قيام الحجة عليه، ومن لم تبلغه دعوة الإسلام فله حكم هؤلاء وكل ذلك إكرام للعقل وانسجام لأحكام القرآن معه.

ثانياً ـ كيف جعل الإسلام الإنسان ملتزماً للفضائل:

إن الرقي المادي يحقق للإنسان ألواناً من الرفاهية ويُذهب عنه مصاعب كان يكابدها، لكن هذا الرقي لا يجعل الإنسان فاضلاً ولا سعيداً و لا يمنع الأشرار من مقارفة شرورهم وإساءاتهم إلى الآخرين.

وإن مطلب غرس الفضائل الإنسانية في المجتمع وتحقيق التوازن الأخلاقي هو مطلب أهم من مطالب تحقيق الرقي المادي، فما قيمة الرقي المادي إذا كان يمكن أن يستخدمه الإنسان للإضرار بأخيه الإنسان.

ولقد شغلت مسألة التوازن الأخلاقي وكيف يفرض في المجتمع بال كثير من المفكرين ولم يصلوا إلى حل هذه المعضلة، حيث وجدوا أن اقتناع الإنسان بأن عملاً ما فضيلة وآخر رذيلة لن يجعله يتنكر لشهواته الجامحة؛ ومن العسير أن يقدِّم المرء مصلحة المجتمع تلقائياً على مصلحته الذاتية وإن كانت مصلحة المجتمع أهم وأخطر.

وفي ظل أي من القوانين الوضعية يستطيع القائمون عليها ومن بيدهم زمام الأمور الالتفاف والدوران عليها وتسخير مناصبهم لتحقيق مصالحهم الذاتية فما هو الضمان لعدم انحرافهم؟

إن الحل القرآني يمكن استيضاحه من خلال النقاط التالية التي اعتمدها:

1 - جاء القرآن الكريم وربط بين تصرفات الإنسان في حياته وبين نظرية عن الكون والحياة، لا يأباها العقل ولا الفطرة والوجدان لذلك لم يطلب منه أن يغمض عينيه لكي يعتقدها.

هذه العقيدة تغير في نفس الإنسان مفهوم المصلحة الذاتية السائدة في المجتمعات المادية، لأن الإنسان يعتقد عندئذ أنه يعاقب على الإساءة للمصلحة العامة، وثَمّ تشريعات تبيّن له بدقة ما لا يجوز له لهذا يزول التعارض عنده بين المصلحة الذاتية والمصلحة العامة.

كما أن إيمان الإنسان بهذا القرآن وبهذه الرسالة يجعله يرتقي روحياً فهو يأنس في مناجاته لخالقه في صلواته وذكره وتلاوة كتابه، وتشحن نفسه بشكل مستمر بالمعاني الخيّرة وينمو لديه صوت الضمير، ذلك الواعظ الداخلي في النفس الإنسانية الذي يأمره بالإحسان ويرتاح إليه، والذي يجد غذاء له في مناجاة الخالق وعبادته.

والقرآن الكريم يحرر النفس الإنسانية من سائر أمراضها فلا يضعف الإنسان ولا ينهار أما صدمات الحياة؛ لإيمانه بأنه مستند إلى إلـه قدير يرعى شؤونه ولا ينساه، ولا يتكبر ويتعالى على الآخرين لإيمانه بأنه المفاضلة بالتقوى كما قرر القرآن وأن الله تعالى هو أعلم بالمتقين وليس له تزكية نفسه.

ويتحرر من الشح والبخل، ولا يهلع من الفقر والفاقة، لإيمانه بأن الرزق بيد الله تعالى، لا يرده حسد حاسد ولا يجلبه حرص حريص.

والقرآن الكريم له أثر بعيد الغور في النفس ولا يماثله أسلوب أي حكيم أو مصلح لأن المؤمن يعتقد فيه أنه كلام رب العالمين وأن سائر ما فيه من وعود حق وصدق؛ وانظر مثلاً إلى قوله سبحانه: ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [فصلت: 34 - 35]، لقد بيّن سبحانه أن الحسنة لا تستوي عند الله ولا عند الناس مع السيئة وطبيعي أن يفتش الإنسان عن الأحسن ليفعله، لذلك يقول له ادفع بالتي هي أحسن، أي تصرف بما هو حسن وفاضل لأنه الأحسن، ثم يظهر له جدوى هذه المعاملة وفائدتها ليزيد اقتناعه بها فيقول: ﴿ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾ فالمسيء إذا قوبل بالإحسان يخجل من فعلته ويؤنبه ضميره ويلام من الناس، لذلك يظهر بعد ذلك كالولي الحميم.

والقرآن وإن رسم للناس التصرفات المثلى وشد الناس إليها لكنه لم ينسَ واقعيته فأوضح ميزان العدالة في آيات أخرى، وشرع حق القصاص وبذلك فقد أراح المظلوم نفسياً حيث شرع سلطاناً يؤيد الحق، ثم دعاه وهو صاحب الحق إلى العفو والإحسان بمنطق رصين وأسلوب حكيم.

2 - بفضل الأساليب التي ذكرناها جعل الإسلام أكثرية المجتمع تسلك

السبيل القويم، وما يبقى من أفراد لم يخالط الإيمان ببشاشته قلوبهم، ولم يلتزموا أوامر الله فهؤلاء يمنعون بقوة السلطان الذي يدفع الناس قسراً عن مقارفة المنكرات ويفرض السلوك الأخلاقي ويعاقب المخالف عقوبات رادعة.

وتعين الطائفة التي التزمت أوامر الله تعالى الحاكم على تحقيق ذلك، فيقف كل فرد منها حارساً على شرع الله تعالى قال تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ [آل عمران: 104].

هذا والحاكم الذي يختار ليكون حارساً على شرع الله، يشترط فيه أن يكون ممن التزم هذا الشرع وحدوده وطبّقه على نفسه، ولم يُعَرف عنه الانغماس في المنكرات، وبذلك يكون لعقيدة الحاكم السليمة وفيضها الأخلاقي أثر كبير في توجيهه، كذلك يراقبه سائر المؤمنين ويوجهونه؛ لأن ذلك واجب شرعي.

ويجب أن يلاحظ أن الشرع الإسلامي اعتمد على هذه العوامل معاً فلم يهمل جانب السلطان الذي يدفع الناس قسراً عن مقارفة المنكرات، ولم يتخذ من الجانب الروحي بديلاً عن التشريعات القضائية، وحكم السلطات التي تسهر على تنفيذها، وإنما جعل للناس عقيدة تملي عليهم أن التزام الفضائل وسبل الخير للجماعة خير لفاعله، وأمر السلطان بتنفيذ هذا السلوك ومعاقبة مخالفه، وأمر جميع المؤمنين بمساعدة السلطان في ذلك، ولم يدفع القرآن الناس بمجموعهم إلى التزام أوامر يجمحون جميعهم إلى مخالفتها.

3 - ومما يجعل التزام الأوامر القرآنية ميسورة ويجعله ناجحاً في تحقيق أهدافه، أنه لا يتنكر لحاجيات الإنسان، وينكر أن تكون مخالفة النفس فيما تشتهيه فضيلة لمجرد المخالفة؛ فما نهى القرآن عن شيء إلا أوجد البديل الصحيح عنه الذي يضمن تحقيق حاجة الإنسان دون الإساءة لغيره.

والقرآن الكريم يراعي طبيعة الإنسان فهو يعامله كعقل يطلب الفكر والدليل، وروح تطلب الأنس والنقاء، وجسد له حقوق ومطالب، ولا يتنكر لشيء من حاجيات الإنسان ومطالبه، وهو الوحيد من بين النظم والأديان الذي يطالب بتحقيق هذه المطالب الثلاثة وبتوازن لا شطط فيه.

وقد منعت شريعة القرآن كل ما يدعو إلى انتشار المنكرات ويؤدي إليها، فمنعت مثلاً تبرج النساء، وانتشار الصورة العارية، وخلوة الرجل بالمرأة الأجنبية؛

لأن ذلك يؤدي إلى انتشار الفجور ويساعد عليه، والفجور يجلب الويلات للمجتمع، ويهدم كيان الأسرة، وبذلك تجد أن الإسلام يغلق باب الفساد من أساسه ويطفئ شرر الضرر قبل أن يستحيل ناراً ذات أوار من الصعب إطفاؤها.

ومن فوائد الأحكام والتوجيهات القرآنية أنها بيّنت معاني الفضيلة وحدودها، لئلا تكون مفاهيم مميعة تفسرها كل طائفة من الناس حسب هواها.

بهذه الأساليب المتضافرة استطاع الإسلام أن يوجد المجتمع الفاضل لا المدينة الفاضلة فحسب، أوجده على أرض الواقع لا في مملكة خيالية في السماء.

قارن بين نجاح النبي الأميّ عليه الصلاة والسلام في تطبيق القانون وكيف استأصل الشر من المجتمع وبين التشريعات الوضعية التي تفشل عند أكثر الأمم تحضراً.

فمثلاً عندما جاء الرسول عليه الصلاة والسلام بتحريم الخمر كان أبو طلحة الأنصاري رضي الله عنه في ثلة من أصحابه يدار عليهم الكأس، فلما سمعوا بتحريمها قال أبو طلحة لأنس بن مالك: «قم فأهرقها»، وفعل باقي الصحابة مثل ذلك حتى سالت المدينة أياماً بالخمر.

ولما تحرم الدول المتقدمة تجارة المخدرات وتعاطيها نجد كيف تتشكل العصابات المسلحة التي تتصارع صراعاً دموياً مع السلطة، وتفشل السلطات في منع تفشيها الكبير بين المواطنين.

لقد بحث جان جاك روسو وغيره في التوازن الأخلاقي وكيف يتم تحقيقه في المجتمع، ولم يصلوا إلى حل لذلك بعقولهم لكن الله تعالى الذي أنعم على الإنسان نعماً لا تحصى، لم يضن كرمه عليه في أن يهديه السبيل إلى تحقيق هذا التوازن المنشود.

ثالثاً ـ سمات ومبادئ تشريعية متفرقة:

تتسم أحكام الشريعة الإسلامية بأنها تعتمد على جذور اعتقادية تجعلها راسخة ومحترمة ولا يملك أحد التلاعب فيها أو تجاوزها وتعديلها، لذلك هي تحفظ الراعي والرعية من التناقض والتطرف، وتحفظ من التحيز والانقياد للهوى، كما تتسم أحكام الشريعة بالشمولية فهي قد شرعت أحكاماً ووضعت

قواعد أساسية لتنظم سائر جوانب الحياة صغيرها وكبيرها، وهي تراعي المصالح المختلفة بتوازن وشمولية، فتنظر إلى مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة، والمصلحة العاجلة والمصلحة الآجلة، وتراعي سد أبواب الضرر، وحصر نطاقها قال عليه الصلاة والسلام: «لا ضرر ولا ضرار»، أي أن الضرر يُزال شرعاً ولا يتوسع في دائرته ولا يقابل بالضرر الذي يمكن تجنبه، وقد اتخذ الفقهاء من هذا الحديث الشريف قاعدة فقهية فرعوا عليها(1).

ومن سمات الأحكام الشرعية الاعتدال والواقعية، وهذا يعني الخيرية والاستقامة لأن الاعتدال يمنع من ظهور ردة الفعل على التطرف ويحقق رضا الأطراف المختلفة، ومن اعتدال القرآن الكريم في أحكامه أنه لم يحبذ الانقطاع للعبادة وترك الدنيا كما هو الحال في أديان أخرى قال تعالى: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ [القصص: 77].

ومن سمات أحكام القرآن أنها جاءت متفقة مع طبيعة الإنسان والأعراف البشرية السليمة فالشريعة الإسلامية تطلب تحقيق أهدافها من أبوابها الطبيعية، ولا تلجأ إلى وجه شاذ في العرف يصطدم مع طبائع الإنسان، قال تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: 199].

فالقرآن الكريم يأمر هنا بمراعاة العرف البشري الخيّر، وقد فهم الفقهاء ذلك ووضعوا القاعدة القائلة: «العادة محكّمة».

ونجد اليوم الأنظمة التي تجاهلت هذه القاعدة وفرضت على الإنسان أموراً تخالف طبيعته كمحو الملكية الفردية تنهار رغم السور الحديدي الذي قامت عليه، وتعود تجتر الهزيمة.

ولا بأس أن نركز الآن الضوء على أحكام شرعية ومبادئ خاصة ونتبيّن وجه الحكمة فيها.

---

(1) عند تعارض ضررين ينظر في عدة اعتبارات:
1 - الفردية والشمولية والأشمل يراعى أكثر.
2 - عمق الضرر من حيث ترتيب الضروريات والحاجيات الذي بيّنه الأصوليون.
3 - درجة التحقق مع نتائج الفعل الجالب للضرر.
4 - الثبوت الأصلي للضرر، إذ يحرص على عدم الابتداء بالضرر ما أمكن.

الرضائية في العقود:

اعتبر في شريعة القرآن أن رضا المتعاقدين في العقد على أمر مباح في الأصل كاف لإنشاء التصرفات وإثبات التملك دون أي اشتراط لشكلية معينة.

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ﴾ [النساء: 29][1].

وجاءت السنة النبوية لتؤيد هذا المعنى أيضاً، ولم يشترط أي شكلية معينة للمعاوضات، وقد تفهم الفقهاء قديماً نصوص الشريعة هذه ونصوا على القاعدة الفقهية القائلة: «العبرة للمقاصد والمعاني لا للألفاظ والمباني».

ولو أنا نظرنا إلى القوانين التي عاصرت الرسالة أو كانت بعدها نجدها قد انطبعت بالشكلية، فالقانون الروماني نص على أن: «الاتفاق المجرد لا تنشأ عنه دعوى» ثم بعد احتكاكهم بأمم أخرى وتعقد الحياة عُدِّل القانون الروماني قليلاً تجاه الشكلية لكنه بقي يصر على أن كسب الملكية لابد فيه من الالتجاء إلى إحدى الطرق التي نص عليها القانون كالدعوى الصورية، ولم يظهر سلطان الإرادة في التشريعات الغربية كافة إلا في القرن الخامس عشر أو السادس عشر تحت وطأة الضغوط التجارية والاجتماعية التي لفظت الشكلية التي تعوق تقدم التجارة.

ويذكر بعض الباحثين أن الغربيين اقتبسوا هذا المبدأ من المسلمين في الأندلس وغيرها.

فانظر إلى هذا المبدأ كم عانت القوانين الوضعية وكم انتظرت لتستفيد من التجارب الحياتية حتى وصلت إليه، أما في شريعة الإسلام فهو أمر منصوص عليه في البداية.

التعسف في استعمال الحق:

منح للإنسان حرية التصرف في أمور كثيرة ليحقق بذلك مصالحه ورغباته،

---

(1) الاستثناء في الآية الكريمة منقطع كما قال المفسرون، ومعناها: لا تتعاطوا الأسباب المحرمة في اكتساب الأموال، إنما المتاجرة المشروعة هي التي تكون عن تراضٍ من الطرفين فافعلوها.

ولكن حرية التصرف هذه تغدو في بعض الأحيان مضرة بالآخرين ويظهر مسوغ موضوعي لتقييدها، مثال ذلك أن الإنسان أعطي الحرية في البيع والشراء فلا يؤمر أو ينهى في الأصل عن أي منهما، لكن إذا نظرنا إلى حال المحتكر وجدناه يستغل حاجة الناس لسلعة معينة، فيخفيها عن البيع ليرتفع ثمنها ويستفيد هو من ذلك فهو لم يستخدم حق البيع لتحصيل مصلحة مشروعة، وإنما تعسف في استخدام هذا الحق حتى أضر بالآخرين.

ونجد أن أحكام الشريعة الإسلامية قد تنبهت إلى هذه الدقيقة فحرّمت الاحتكار، قال عليه الصلاة والسلام فيما رواه مسلم في صحيحه: «لا يحتكر إلا خاطئ»، والخاطئ: هو متعمد الخطأ الآثم فيه.

وروى أحمد مرفوعاً للنبي عليه السلام: «من احتكر طعاماً أربعين يوماً يريد به الغلاء فقد بريء من الله وبريء الله منه».

وأشارت نصوص أخرى إلى هذه القاعدة الجليلة فمن ذلك قوله تعالى عن المطلقات: ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا﴾ [البقرة: 231]، فهذا كما ترى تطبيق لهذا المبدأ العام.

وقد تفهم الصحابة هذا المبدأ عن الله سبحانه وتعالى ورسوله ﷺ، فقد روي في الموطأ أن سيدنا عمر رضي الله عنه قال لرجل يتعسف في منع شيء يفيد أخاه ولا ضرر فيه عليه: «لم تمنع أخاك ما ينفعه ولا يضرك»، فلما أبى وأصر على ذلك ألزمه إلزاماً بما ينفع أخاه.

من كل ذلك تجد أن الأحكام الإسلامية قد قررت من البداية قاعدة منع التعسف في استعمال الحق، وهي نظرية دقيقة لا يتنبه لها إلا بعد نظر عميق، لذلك جهلتها القوانين القديمة، وما تنبهت لها القوانين الحديثة إلا بعد تجارب بشرية طويلة الأمد نبهت إلى ضرورة اعتبارها فالتفتت لها القوانين الحديثة في بعض المسائل.

التوازن بين حق الفرد والجماعة:

عاشت البشرية في ظل النظام الإقطاعي ثم الرأسمالي وهما يقدسان الملكية الفردية ولا يقيدانها بأية قيود، ولمست البشرية من ذلك الظلم الكبير

والويـلات؛ لأن الوضع الاقتصـادي يؤهل أصحاب رؤوس الأموال الكبيرة للتحكم في مصير الناس ووضعهم المالي كما يشاؤون؛ فهم بإمكانهم تحديد ثمن الأجور والأسعار كما يشاؤون، ويقرضون المحتاجين إن شاؤوا بالنسبة الربوية التي يريدون، ولا تسـتطيع الطبقات المسـحوقة أن تقف في وجـه تعسـفاتهم وظلمهم لأن وضعهم الاقتصادي لا يسمح لهم إلا بالخضوع.

وفي ظـل هذا الـوضع تجتذب رؤوس أموال المجتمع وتتمركز وتـزداد بـاطراد في أيدي فئة قليلة من الناس؛ تستطيع أن تمتص خير المجتمع حسـب شـريعة الغاب التي تقول الحياة للأقوى، وينجم عن ذلك أن تـرى الكلاب في بيوت الأثرياء أكثر تنعماً ومصروفاً من بني البشر الفقراء في البلد الواحد.

وأمام هذا الظلم كـانت ردة الفعل عنيفة، فوجد النظام الذي يـروم محو الملكيـة الفرديـة لأجل تحقيق الضمان الاجتماعي، ورعايـة حقوق الطبقات المسحوقة، فهل نجح هذا النظام؟.

لقد اصطدم هذا النظام مع صخور الواقع والفطرة البشرية، فحب التملك فطري في الإنسان والشعور به أصيل في كيانه، وهو جزء من كرامته، فما هو الفرق بين الإنسان الذي يعمل طول النهار ثم يدفع له ما يحتاجه وبين الثور الذي يحرث عليه في النهار ثم يؤمن له ما يحتاجه من العلف والمأوى؟ إذا كان كلاهما مقيد الحرية مسلوب لحق التملك.

وإن من الدلائل على فطرية حب التملك أنك ترى الطفل الذي وجد نفسه في أسرة تعطف عليه وتكفيه مؤنة العيش يحب أن يتملك رغم ذلك، فإذا جلب لأسرته خروف ونحوه يحب أن يتملكه فإذا قال له والده هذا لك تراه يعطف عليه ويوليه عناية خاصة، وماذاك إلا لأن حب التملك شعور أصيل في كيانه ويدفعه لتنمية المملوكات.

ولما كان حذف الملكية الفردية على خلاف الطبيعة البشرية فإن حذفها يتطلب قوة حازمة حديدية تطبق الايديولوجية المختارة بالقوة، وتكبت كل صوت معارض، وهذا الذي نراه في الواقع ويعترف به أصحاب هذا النهج ويسمون ذلك بدكتاتورية البروليتاريا.

إذن السبيل الذي اتخذه هؤلاء لتحقيق الضمان الاجتماعي يتطلب حذف

الملكية الفردية التي يقتل بحذفها الدافع الذاتي للعمل وتكبت حرية الأفراد، أما النظام الرأسمالي فهو يقدس الحرية الفردية ولا يقيدها بأية قيود ويتجاهل الضمان الاجتماعي وحقوق الطبقات المسحوقة.

وإن من حق الإنسانية أن لا تضحي بشيء من مقوماتها مادامت غير مضطرة إلى ذلك، وهي تقف موقف التخيير بين ترك الضمان الاجتماعي للطبقات الفقيرة الذي هو حق مادي للإنسانية، وبين ترك الملكية الفردية التي يقتل بحذفها الدافع الذاتي للعمل وتكبت الحريات ـ وهذا فيه حق مادي ومعنوي للإنسانية ـ إذا أعوزها النظام الذي يجمع بين تحقيق الحقين ويوفق لحل المشكلتين.

لقد جاء الإسلام بتشريعاته ليحقق هذين المقومين ونجح في ذلك حتى وجد المجتمع الذي ليس فيه فقير في عهد عمر بن عبد العزيز، ولم يستخدم الإسلام العنف أو يكبت الحريات فكيف صنع ذلك؟

لقد قيّد الإسلام الملكية الفردية بقيود ذكية وواعية لئلا يؤدي طغيانها وجموحها إلى الإساءة للحق العام، وأوجب على الحكام رعاية حقوق الطبقات الفقيرة وحمايتها، وأثبت لهم حقاً سنوياً في مال الأغنياء يؤخذ منهم، وعلى السلطة أخذه عنوة من الأغنياء إن أبوا دفعه طواعية.

ومن القيود التي حددت بها الملكية الفردية أن قُيِّد شمولها، فمنع وحرّم الاستثمار الشخصي للموارد الطبيعية فقال الرسول ﷺ: «الناس شركاء في ثلاث الماء والكلأ والنار»[1]، ووردت أحاديث صحيحة أخرى في تحريم بيع فضل الماء، وبذلك تجد أن شريعة القرآن وإن اعترفت بالملكية الفردية لكنها حددت شمولها في هذه الأحاديث التفاتاً لحق الجماعة الذي هو ألزم هنا.

كما قيدت تصرفات الأغنياء فمن ذلك تحريم الاحتكار والربا، وقد تكلمنا عن الاحتكار، أما الربا فقد حُرِّم في القرآن الكريم وتوعِّد فاعله، والحكمة من ذلك أن المرابي يعيش متطفلاً على جهود الآخرين، وكلما كان المدين أعجز عن الوفاء كلما تراكمت عليه الديون وعاش في شقاء، وينعم المرابي من جرّاء شقائه، والربا يتضخم بشكل أُسِّي ويغدو مع الزمن ذا مقادير رهيبة لا يمكن لنمو

---

(1) الحديث رواه أحمد وأبو داود. وقال الحافظ: رجاله ثقات.

المال الطبيعي أن يواكبها، وقد اعترف علماء كبار في الاقتصاد كإدوار سميث بأن الربا سرطان في جسم الاقتصاد.

أما البديل الذي جاءت الشريعة به فالقرض الحسن للمحتاج والذي يمكن للدولة أن تقوم بجزء منه بفضل ما تجمعه من أموال زكوية، وتبرعات موقوفة مرصد ريعها على سبل الخير.

وأوجدت الشريعة أيضاً نظام المضاربة الذي يدفع بموجبه صاحب المال ماله لقاء نسبة معلومة من الربح وإن حدث خسران تحمله رب المال وحده، فأي النظامين نظام الجشع والاستغلال، هل الذي يقول لصاحبه أريد ربحاً مضموناً سواء ربحت أم خسرت؟ أم الذي يقول له نشترك معاً في الربح وإن حدث خسران تحملته أنا، ولا أحمِّلك عبئاً لا تستطيع حمله؟.

ومن قيود القرآن الكريم على التصرف بالمال تحريم الميسر والمقامرة فقد حرمه القرآن الكريم وسماه رجساً لما فيه من إساءات وتطفل، كذلك حرّمت البيوع والمعاملات التي تخفي نوعاً من المقامرة الناتجة عن جهل في السلع، وتسمى هذه ببيوع الغرر وقد جاء تحريمها في صحيح مسلم وغيره.

ولكون الشرع الإسلامي شرعاً واقعياً فقد سومح فيه بمعاملات فيها غرر طفيف يعسر الاحتراز عنه.

ولوحظ في شريعة القرآن أن السفيه المبدد لماله يسيء إلى المجتمع لأن ملكيته لهذا المال ملكية مؤقتة ولأن للمجتمع حق سنوي في ماله يؤخذ كل عام ولأن القوة الاقتصادية في المجتمع والتي تهم المجتمع كله تتشكل من رؤوس أموال الأفراد؛ لهذا كله أمر القرآن بالحجر على هؤلاء قال سبحانه: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٥﴾﴾ [النساء: 5]، ومن الملاحظ أن القرآن قال: ﴿أَمْوَٰلَكُمُ﴾: فنسب المال للمجتمع تنبيهاً لحق المجتمع فيه فتأمل في هذه الالتفاتة التشريعية الذكية كم هي عميقة وواعية.

أما عن مسألة تمركز رؤوس الأموال بأيدي فئة من الأغنياء ووجوب كسر نطاق الاستفادة الضيقة منها والخاصة بعدد ضئيل من الناس؛ فإن القرآن التفت لذلك، وشرع أحكاماً خاصة بهذا الشأن، فجاء في القرآن الكريم بعد الأمر بتوزيع

أموال الفيء والغنائم على المستحقين: ﴿ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ ﴾ [الحشر: 7].

وشرع نظام الميراث الذي لم يحابِ به طرفاً واحداً كالابن الأكبر أو الزوجة اللذين يحظيان بكلٍ أو بأكثر التركة في بعض الأنظمة، ولم يجز الوصية بأكثر من ثلث المال تحقيقاً لوجوب تبديد الثروة الزمني، ليستفيد منه أكبر عدد من الأقارب.

وشرع القرآن نظام الزكاة لحل أزمة الفقر واستفادة الطبقات الفقيرة من أموال الأغنياء، وبموجب هذا النظام يؤخذ (2,5%) من أموال الأغنياء سنوياً لترد إلى الفقراء[1]، وأناط الإسلام هذه المهمة بالدولة لتأخذها بالقهر ممن يريد أن يمنعها، وهي لا توزع على القادر على العمل ولا تعلِّم التواكل، وتُعطى لمن أصاب ماله جائحة بشكل كاف يدفعه إلى شاطئ السلامة في العودة إلى ممارسة العمل الشريف.

وثمة مصادر أخرى لحل أزمة الفقر كأموال الأوقاف التي يتبرع المسلمون بأصولها ويرصدون غلاتها وريعها على جهة خيّرة، ومنها أموال الكفّارات والصدقات.

والدولة تقف راعية لكل ذلك وتراقب حقوق الطبقات الفقيرة، وتمنع عنها الاستغلال، ويمكن أن تشارك الدولة في الوحدات الإنتاجية والتجارية لتقود الأسواق نحو الأحسن وتراعي مصلحة سواد الشعب.

فانظر إلى هذه التشريعات المتوازنة الواعية، فنظام القرآن لم يتنكر لحقوق الطبقات الفقيرة ويتركها تُستغل وتسحق، ولم يقتل الدافع الذاتي للعمل بإلغاء الملكية الفردية، ولم يكبت الحريات، ولم يحقق أهدافه بسيل من الدماء لأن أحكامه متوازنة ومتفقة مع الطبائع البشرية.

وانظر إلى المبادئ الأخرى التي تتخبط بها البشرية وانظر إلى التراجعات الفكرية والنكسات الاجتماعية التي تصيبها، والتي تثبت يوماً بعد يوم الفشل الذريع للأنظمة المخالفة لنظام القرآن.

---

(1) هذا بالنسبة لرؤوس الأموال وعروض التجارة، أما بالنسبة للزروع والثمار والمواشي فلها أرقامها الخاصة التي تعلم من كتب الفقه.

محاربة تضخم الوسطاء غير المنتجين:

لوحظ في شريعة الإسلام أن النقد وسيلة لتحقيق تبادل السلع الذي هو الغاية التي يحتاجها الناس، فمن يتاجر بالسلع يربح مقابل تأدية خدمة للمجتمع، لكن من يربح من جرّاء بيع رأس مال برأس مال هو لم يحقق خدمة أساسية للمجتمع، وعندما تنمو طبقة تتلاعب بالأوراق المالية وتكسب منها الربح الوفير تكون هذه الطبقة متطفلة على جهد المجتمع ولا يحتاجها المجتمع، ووجود طبقة من هؤلاء هو ظاهرة مرضية، لذلك حارب الإسلام هذا الاتجاه الذي يحرف التجارة عن وجهها المفيد، فحرّم عند تماثل رؤوس الأموال التفاضل في مبادلتها سواء كان التبادل لأجَل أم تبادل حاضر، حتى لو كان بعضها يستحصل عليه بيسر أكثر من بعضها الآخر، وأوجب التقابض في المجلس عند صرف المال بمال آخر.

هذه الأحكام الإسلامية متفق عليها بين الفقهاء لثبوت الأحاديث التي تبيّنها عن الرسول ﷺ، وهي أحكام تقف عقبة في وجه الطبقة المتطفلة في المجتمع التي تريد أن تستبز منه ربحاً دون أن تقدم خدمة إليه، ويقطع السبيل أمام هؤلاء في حرف التجارة عن وجهها المفيد المحتاج إليه، فتأمل في هذه الأحكام الإسلامية كم هي عميقة الغايات وواعية.

هذا وقد حارب الإسلام تضخم الوسطاء غير المنتجين في مجالات أخرى فمن ذلك ما ثبت في الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ: «لا تلقوا الركبان[1] ولا يبع حاضر لباد» قلت لابن عباس ـ والقائل طاووس ـ ما قوله ولا يبع حاضر لباد قال لا يكون له سمساراً[2].

من أحكام الزواج:

أوجب الله تعالى المهر على الزوج في عقد الزواج، ولم يجوّز الاتفاق على إسقاطه أو تمويله عن الزوج، قال الله تعالى: ﴿فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ [النساء: 24]، ولهذا الحكم حكمة جليلة وهي أن قانون العرض والطلب يفرض

---

(1) تلقي الركبان أن يستقبل أهل الحاضرة من يقصدون سوقهم لبيع سلعهم فيستقبلونهم قبل أن يصلوا إلى السوق ويعرفوا أثمان السلع، لأجل أن ينفرد هؤلاء المستقبلون بالفائدة دون غيرهم لذلك نهي عن ذلك.

(2) يمكن أن يكون لهذا النهي حِكَمٌ أخرى مع حكمة محاربة تضخم الوسطاء غير المنتجين.

أن يكون من يدفع المال هو الطالب والآخذ هو المطلوب، وإن الطبيعة التكوينية للمرأة لا تسمح لها بأن تكون هي الطالبة للزواج، وذلك مستهجن عرفاً وذوقاً ولا تسمح به فطرة المرأة السليمة، كذلك فإن تكليف المرأة بالمهر هو عبء عليها ولا تستطيعه في أحيان كثيرة، لهذا كله أوجب الإسلام المهر على الزوج إيجاباً ولم يسمح للأعراف الاجتماعية بأن تغيره لما في ذلك في قلب للعلاقات الطبيعية وهضم لحق المرأة وإمكانية استغلالها.

وقد قلبت الأعراف الاجتماعية عند أمم أخرى هذه العلاقة الطبيعية تحت عامل كثرة الإناث المحتاجات إلى الزواج، وأدى ذلك إلى أضرار اجتماعية كثيرة.

فتأمل كيف روعي في شريعة القرآن الوقوف بوجه الأعراف الفاسدة التي قد تنشأ في المجتمعات نتيجة عوامل معينة.

وقال الله سبحانه: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة: 222].

لقد حرّمت هذه الآية الكريمة إتيان الزوجات وهن في حال الحيض، وعللت ذلك بأنه أذى، وقد أمرت الآية بعدم الاقتراب منهن حتى يطهرن من حيضهن ويغتسلن منه، ولهذا الحكم القرآني حكمة جليلة وهي أن الأنثى تكون معرّضة في تلك الأثناء إلى المرض أكثر من أي أوقات أخرى، فالمهبل يفرز إفرازاً حمضياً يساهم في تطهيره من الجراثيم الممرضة، وأثناء الحيض يجعل هذا الوسط قلوياً أو متعادلاً بسبب وجود الدم وهو وسط ملائم لهجوم الجراثيم الممرضة، والجماع في تلك الأثناء يزيد من التلوث الجرثومي، وقد يحدث تخريشات تؤدي إلى حدوث الالتهابات والأمراض، أما غشاء الرحم المخاطي فيكون في حالة توسف وانسلاخ وكأنه جرح مفتوح، مما يساعد على حدوث التهابات باطن الرحم والتي يمكن أن تمتد إلى ملحقاته وقد تسبب العقم.

والجماع في تلك الفترة أيضاً يحدث احتقاناً دموياً يؤدي لزيادة النزف الحاصل ويزيد الأمر سوءاً.

أما بالنسبة للرجل فيمكن أن يتعرض للأمراض بتضمخه بتلك النجاسات

وتكون نفسية المرأة في تلك الأثناء لا تقبل الجماع وحالتها منفرة منه.

لهذا كله حرّم القرآن إتيان النساء أثناء الحيض.

وقد حرّمت الآية الكريمة أيضاً وبعبارة مهذبة إتيانهن من غير المأتى الطبيعي وذلك في قوله سبحانه: ﴿ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ ﴾ ولهذا الحكم أيضاً حكمة جليلة، لأن مخالفة هذا الأمر تؤدي إلى أضرار جسدية بالأنثى، وإلى تضمخ بالنجاسات وتعرض للأمراض وإلى انحراف نفسية الطرفين وشذوذها.

وقال الله تعالى: ﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا ﴾ [البقرة: 228].

توجب هذه الآية الكريمة على المطلقة وجوب البقاء في منزل الزوجية ثلاثة قروء، وقد بيّنت السنة النبوية أنه لا يجوز إيقاع الطلاق إلا في طهر لم يمسها فيه، ولهذه الأحكام حكمها الجليلة فإيجاب الانتظار على الزوج بالطلاق إلى طهر لم يمسها فيه يفسح المجال إلى أن يذهب من نفسه ما يجد تجاهها حيث تكون قريبة منه وفي فراشه، ثم إن أوقع الطلاق بعد هذا الانتظار وجبت إقامتها في منزل الزوجية ثلاثة قروء[1]، فعسى في هذه المدة أن تنطفئ جذوة الغضب ويعود التفاهم فيردها إليه.

ومن حكمة هذا الحكم أيضاً التاكد من براءة رحمها من الحمل منه، من أجل إن تزوجت بغيره لا يحدث ذلك اختلاط أحساب[2]، وقد أمرت الآية الكريمة المطلقة بالانتظار حتى ظهور الحيضة الثالثة منها، ولهذا الحكم حكمة طبية شرعية جليلة وهي أن الحمل يمنع الحيض عادة حيث يلجم الجسم الأصفر بحاثاته التي يفرزها النخامى عن إفراز الحاثات المنمية للجريبات في المبيض، وبالتالي لا يحدث الطمث أثناء الحمل، ولكن في بعض الحالات الاستثنائية لا تلجم النخامى عن إفراز حاثاتها، إما لفرط إفرازها أو لسبب آخر فتنمو الجريبات

---

(1) القرء: يطلق لغةً على الطهر أو الحيض. والظاهر أن عدَّة المطلقة تنتهي بدخولها في الحيضة الثالثة، لأنه عندئذ يقوم الدليل الثالث على براءة رحمها، أي أن حساب الأقراء يكون بالأطهار، وهذا مذهب المالكية والشافعية.

(2) لا يجوز للزوج أن يخلو بالمطلقة أثناء عدتها.

ويحدث الطمث رغم وجود الحمل، وإن حدث ذلك فإنه يكون لمرة أو لمرتين فقط، لذلك كانت الحيضات الثلاثة تعطي دليلاً صحيحاً على براءة الرحم من الحمل؛ وفي حالات جد نادرة كأن تكون المرأة تملك رحمين مستقلين ولا تلجم نخاماها عن الإفرازات المنمية للجريبات فيمكن في هذه الحالة أن يستمر الطمث لأكثر من حيضتين، لهذا خاطبت الآية الكريمة هؤلاء وأمرتهن أن لا يكتمن ما خلق الله في أرحامهن من الحمل، لأن الحمل بعد مضي ثلاثة أشهر يصبح محسوساً لديها ويمكن أن تشعر به؛ ومن جهة أخرى فالآية الكريمة تلتفت إلى حق الجنين الذي يتضرر من الطلاق فتأمر الأم بتبيين الحال وتوجه الزوج إلى عدم هدر حق الجنين فتبين له أن إعادتها هو الأصلح في هذه الحال[1].

وبعد:

لنسأل الآن من أين أتى محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام بهذه التشريعات الجليلة؟.

كيف يتنبه إلى اعتبارات إنسانية وتشريعية عميقة وواعية ومتوازنه ويكون التشريع الذي جاء به أكثر نجاحاً على ساحة الواقع من كل التشريعات الأخرى؟.

أيمكن لراعي غنم أمي عاش في أمة قبلية جاهلية أن يأتي بهذه التشريعات من عند نفسه؟.

لو أنا نظرنا إلى الأمة الرومانية لوجدنا أنها كانت متحضرة أكثر من الأمة العربية بكثير، وكانت منفتحة على الثقافات العالمية وفيها مدارس تشريعية ومع كل ذلك لو قارنا التشريعات القرآنية بالقوانين الرومانية القديمة لوجدنا الفرق شاسعاً بينهما وهو كالفرق بين العدل والظلم.

---

(1) من أجل تضييق أبواب الطلاق وجّه القرآن الكريم في أمر معاملة المرأة الناشز إلى أن تعامل بالموعظة والحكمة، فإن لم ترتدع أمره بهجرانها لعلها ترتدع، فإن لم يكفِ ذلك، طلب القرآن أن يؤتى بحكمَيْن من أهله ومن أهلها لفضّ الخلاف وتسوية النزاع، فإن لم يزل الخلاف يمكن أن يلجأ إلى الطلاق، وإنما لم تحرّم الشريعة الإسلامية الطلاق مطلقاً لأنه يكون أهون الشرين في بعض الأحيان، ومن الواقعية أن يلتفت له عند ذاك، وإنك لتجد أن النظم والأديان التي حرّمت الطلاق مطلقاً لم تستطع أن تقف على أرض الواقع فخولفت.

ولو نظرنا إلى القوانين والمبادئ الحديثة لرأينا كيف تصاب بتراجعات فكرية ونكسات توجب تغييرها، أما شريعة القرآن فهي بريئة من كل ذلك لا تصطدم مع الواقع وتنجح في الأمة المسلمة كل النجاح.

فهل من تفسير لهذه الظاهرة غير كون محمد ﷺ نبياً حقاً يبلغ رسالة من ربه بأمانة وصدق.

لقد أجرى الله تعالى معالم رسالته بشكل يوضح لكل ذي عينين أنها إلـٰهية وليست بتطور بشري.

فهي قد ظهرت في أمة أمية غير منفتحة على الثقافات العالمية ولم تظهر فيها نبوات سابقة لكي لا يقال إن رسالة الإسلام نتجت من خلفية ثقافية معينة.

وكانت أمة فخر وخيلاء شغل أفرادها الغزو والعصبية لكي يعلم أن الرسالة التي جاءت تنكر التفاضل بالأجناس والألوان وتسوي بين العرب وغيرهم، لم تأت من الخلفية الاجتماعية ذات العصبية المستحكمة.

وكان أخيراً صاحب الرسالة رجلاً أمياً كي لا يقال إنه نقل من كتب السالفين، مع أن رسالته أسمى وأكثر إحاطة وكمالاً من كل ما سبقها.

* * *

الباب الخامس

أركان الإيمان

﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾

[البقرة: 285]

تمهيد

أوضح الكتاب والسنة ما يجب على المؤمن الإيمان به، ومن الأحاديث الشريفة التي ذكرت أركان الإيمان بشكل كامل ما رواه مسلم في صحيحه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «بينما كنا جلوس عند رسول الله ﷺ ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبي ﷺ، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه[1]، وقال: يا محمد أخبرني عن الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: الإسلام أن تشهد أن لا إلـه إلا الله وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً، قال: صدقت، قال: فعجبنا له يسأله ويصدقه، قال: فأخبرني عن الإيمان، قال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره، قال: صدقت، قال: فأخبرني عن الإحسان، قال: أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك، قال: فأخبرني عن الساعة، قال: ما المسؤول عنها بأعلم من السائل، قال: فأخبرني عن أمارتها، قال: أن تلد الأَمَةُ ربتها[2] وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان، قال: ثم انطلق فلبث ملياً ثم قال لي يا عمر: أتدري من السائل، قلت: الله ورسوله أعلم، قال: فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم».

فلنتكلم عن أركان الإيمان التي ذكرها الحديث وهو ما يخص موضوع دراستنا هذه.

أولاً ـ الإيمان بالله تعالى:

هو الإيمان به سبحانه كما وصف نفسه في كتابه واحد أحد، فرد صمد[3]

---

(1) الظاهر أنه وضعهما على فخذي نفسه، وتلك جلسة المتأدب.

(2) أي تتحكم البنت بأمها وتفرض رأيها عليها كأنها هي سيدتها.

(3) الصمد الذي يحتاجه غيره ويلتجئ إليه وهو مستغنٍ عن كل ما سواه.

لم يتخذ صاحبة ولا ولداً، ولم يولد و﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى : 11]، و﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ [الصمد : 4]، وهو على كل شيء قدير، وبكل شيء عليم، فعّال لما يريد، والخير والشر بقضائه وقدره. وقد سبق وفصلنا القول في ذلك كله.

ثانياً - الإيمان بالرسل:

الرسول: هو الذي يبلّغ الناس رسالة أوحاها الله تعالى إليه، وأمره بتبليغها الناس.

والنبي: هو كل من يوحى إليه بواسطة الملاك يقظة، وكل رسول نبي، ولكن هل كل نبي رسول؟ اختلف في ذلك ولا يهمنا هذا الخلاف كثيراً على أن الشائع لدى العلماء أنه لا يشترط في النبي أن يؤمر بتبليغ شرع أي لا يشترط أن يكون رسولاً.

من هذا التعريف تعلم أن النبوة لا تاتي عن طريق الكسب، وليس لتفسيرها علاقة بالإشراقات الروحية أو الوجدانية.

والرسل يتصفون بالصدق والأمانة والفطانة والسلامة من العاهات؛ لأن الحكمة تقتضي أن يكون المرسل كذلك، ليكون قدوة في الخير ولا ينفر منه الناس وهو المرجع لهم في أمور دينهم.

ومن صفات الأنبياء أيضاً الذكورة؛ لأن تحمل أعباء الرسالة لا ينهض بها إلا رجل قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم ﴾ [يوسف : 109].

والأنبياء عليهم الصلاة والسلام يتصفون بالأخلاق الكريمة، والبعد عن المعاصي والمنكرات؛ لأنهم بعثوا لأجل إقامة الحياة والأخلاق الكريمة، لذا هم أول من يتصف بذلك مع كونهم بشر فيهم كل النوازع البشرية، قال سبحانه بعد ذكر عدد من الأنبياء: ﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴾ [الأنبياء : 73]، وقال سبحانه: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَغُلَّ ﴾ [آل عمران : 161].

وقد بعث الله سبحانه رسلاً منذرين في سائر الأمم قال جلّ شأنه: ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [فاطر : 24].

فهنالك أنبياء كثر غير من ذكروا في القرآن الكريم قال سبحانه: ﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ﴾ [النساء: 164].

وقد كان سائر الأنبياء السابقين يبعثون لقومهم خاصة وقد بعث محمد ﷺ إلى الناس عامة، وهو رسول كل الأمم الذي بشرَّ به الأنبياء السابقون، وهو آخر وخاتم الأنبياء، قال الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [سبأ: 28].

وقال سبحانه: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ [الأحزاب: 40]، لقد أخبر سبحانه بأنه محمداً عليه الصلاة والسلام آخر الأنبياء، وقد جاءت القرون المتطاولة بعده لتصدق هذه الحقيقة فلم يستطع أحد منذ عهده إلى اليوم أن يثبت صحة نبوة لغيره، مع أن الأنبياء كانوا يبعثون بكثرة في العهد السابق لعهده.

ولقد كان ينبغي أن يكون في هذه الفترة الطويلة ما يدعو أهل الكتاب الذين ينتظرون نبياً إلى الصواب في الإيمان بنبوة محمد ﷺ، ولم لا يؤمنون به؟ ألأنه من غير قومهم، وهل من حقهم اختيار وضع الرسالات الإلهية عند الأمم التي يريدون؟

أم لأنه خالف ما يذكره بعض أهل الكتاب من اعتقادات أثبت علماء الآثار الأجانب أنها مستمدة من وثنيات قديمة[1]، وجاء بالتوحيد الخالص معطياً الألوهية حقها من التنزيه والمخالفة للنقائص البشرية، وأكد بشرية سائر الرسل

---

(1) أكد العالم جار سلاف كريني أستاذ الحفريات في جامعة أكسفورد في كتابه (ديانة قدماء المصريين) أن عقيدة التثليث مستمدة من الوثنية الفرعونية. انظر: محمد في التوراة والإنجيل والقرآن، ص10، لإبراهيم خليل أحمد، الذي كان قسيساً في السابق؛ وانظر: في سلسلة مقارنة الأديان المسيحية، ص181، لأحمد شلبي، حيث ينقل عن كتّاب أجانب تطابقات كثيرة استخرجوها بين الوثنيات القديمة وما عند أهل الكتاب، وقد أشار القرآن الكريم لهذه الحقيقة التي اكتشفها باحثون أجانب عندما قال: ﴿ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ﴾ [التوبة: 30]، ويعتبر ذلك من إعجازاته. وقد أكدت دائرة المعارف الفرنسية وكذا البريطانية على أن المسيح عليه السلام ما قال للناس إلا أنه رسول الله وأكد ذلك باحثون بعد دراستهم لوثائق البحر الميت.

الكرام ونزههم عن الموبقات كالزنا وعبادة الأصنام[1] التي تذكرها الكتب المقدسة عند هؤلاء.

أيعتبر ذلك منقصة ومغمزاً في دينه الذي جاء به؟

إن كل عاقل حر حرر إنسانيته وفكره من عبودية تقليد الآبائية ومن التعسف والهوى يعلم أن الأدلة التي تثبت بها النبوة حيثما وجدت وجب أن نؤمن بما دلّت عليه، وإن أي مقياس يوضع لإثبات النبوة تجده يثبت لنا أول ما يثبت صحة نبوة محمد ﷺ، فهو الذي ثبتت نبوته بفيض كثيف من الأدلة الملزمة، فأي مسوّغ يبقى عند هؤلاء الذين صدقوا بنبوة أنبياء سابقين وكفروا بنبوة محمد ﷺ.

إن العقل يوجب التسوية في الحكم بين كل شيئين استويا من حيث انطباق البرهان عليهما، فيكف يُصدّق بنبوة الأنبياء السابقين، ويكفر بنبوة محمد ﷺ والأدلة على صدق نبوته لإنسان هذا العصر أجلى وأنصع بكثير من نبوة أي نبي آخر؟ فهو الذي بشّر به الأنبياء السابقون تبشيراً واضحاً وكثيراً، وهو الذي جاءنا بالقرآن الكريم المعجز الذي تتجدد معجزاته أمامنا ومنها الإعجاز العلمي الذي أوضحنا فيضاً من آياته.

فسبحانك اللهم أنت الذي تحكم بين عبادك فيما اختلفوا فيه ويختلفون.

ثالثاً ـ الإيمان بالملائكة:

أخبر الله تبارك وتعالى في كتابه بالملائكة، وعُدَّ الإيمان بهم في الكتاب والسنة من أركان الإيمان لذا كان إنكار وجودهم كفراً قال الله سبحانه: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

والملائكة عليهم السلام لا يتصفون بذكورة ولا أنوثة ولا يتناسلون، وقد أنكر القرآن الكريم على العرب الجاهليين في زعمهم أن الملائكة بنات الله قال سبحانه: ﴿ أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴾ [الإسراء: 40].

---

(1) انظر: سفر التكوين (9: 21 - 28)، وصموئيل (11: 1 - 27)، وملوك أول (11: 1 - 12).

والملائكة عليهم السلام مخلوقون من نور كما ثبت في حديث صحيح رواه مسلم، وهم مجبولون على طاعة الله لذلك هم يعبدونه دائماً ولا يعصونه قال الله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴾ [النحل: 49 - 50][1]، والملائكة عليهم السلام لهم قدرة على التشكل والظهور بمظهر البشر، وقد تشكلت الملائكة بصورة البشر عندما جاءت رسل منهم إلى سيدنا إبراهيم وسيدنا لوط عليهما الصلاة والسلام كما نص القرآن.

ومن مهام الملائكة النزول بالوحي على الأنبياء، وقد جعل ذلك من اختصاص جبريل عليه السلام وهو من الملائكة المقرَّبين.

قال سبحانه: ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: 97]، وقال جلَّ شأنه: ﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ [النحل: 102]، وقد أنكر سبحانه قول الذين يقولون بألوهية الروح القدس والمسيح عليهما السلام، وبيّن أنهما مقران بالعبودية له لا يبتغيان عنها بديلاً، قال سبحانه: ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ [النساء: 172].

ومن أعمال الملائكة كتابة أعمال الإنسان فقد وكّل الله تعالى بكل إنسان ملكين يكتبان الخير والشر الذي يفعله قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الانفطار: 10 - 12]، وقال الله سبحانه: ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ ﴾ [سورة قٓ: 17 - 18]، فالملتقيان في هذا النص القرآني هما الملكان المرافقان للإنسان وكل منهما رقيب عليه وعتيد أي مهيأ لكتابة ما يصدر عنه.

وقد كلفت بعض طوائف الملائكة بحفظ الإنسان من مكروهات، قال تعالى: ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾ [الرعد: 11]،

(1) تشير هذه الآية إلى وجود دابات في غير الأرض وليست هي الملائكة، لأن الملائكة مذكورة في الآية والعطف للمغايرة، كما أن الدابة اسم لما يدب دبيباً، وليست الملائكة كذلك، هذا الذي أثبته القرآن هنا لم يكن من تصورات الناس وقت نزول القرآن، وإنما هو من مظنونات ومتصورات أهل عصرنا، لذا فإنه يعتبر من إعجازات القرآن.

والملائكة عليهم السلام يستغفرون للمؤمنين قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [غافر: 7 - 9].

فإن كان الأشداء من الملائكة يشفقون على بني البشر ويدعون للمؤمنين بهذا الدعاء الجميل الرقيق لما يعلمون من شدة العقاب، فما أحرانا نحن البشر الذين سنُحاسب ثم يُمضى بنا إلى أحد السبيلين، أن نتفهم ذلك ونعلم أن الأمر جُد خطير فنستغفر الله تعالى ونتجنب معاصيه.

عالم الجن:

يسوقنا الحديث عن الملائكة إلى الحديث عن عالم الجن؛ وهو عالم حقيقي غير وهمي، والدليل على ذلك الخبر الصادق الذي هو القرآن الكريم والذي ثبتت إلـٰهيته بالأدلة القاطعة.

قال الله سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ [الذاريات: 56]، وقال سبحانه: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلۡجَآنَّ مِن مَّارِجٖ مِّن نَّارٖ﴾ [الرحمن: 14 - 15].

ومن صفات الجن أنهم يتزاوجون ويتناسلون، وهم مكلفون منهم المؤمن ومنهم الكافر قال تعالى: ﴿وَإِذۡ صَرَفۡنَآ إِلَيۡكَ نَفَرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْۖ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوۡاْ إِلَىٰ قَوۡمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُواْ يَٰقَوۡمَنَآ إِنَّا سَمِعۡنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الأحقاف: 29 - 30].

والجن لهم قدرة على التشكل والتخفي قال الله تعالى عن إبليس اللعين: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ﴾ [الأعراف: 27].

وإبليس اللعين هو الذي عصى أمر ربه سبحانه في السجود لآدم أبي البشر فاستحق بذلك الطرد من رحمة الله، فنصّب نفسه لإغوائهم مع كفرة الجن، وهو

من الجن وقد يكون هو أبوهم ؛ لأن الكتاب ذكر ان له ذرية قال سبحانه : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴾ [الكهف : 50][1].

وتلاوة القرآن الكريم تبعد كفرة الجن وهم الشياطين قال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴾ [الإسراء : 45].

وقال الله تبارك وتعالى : ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴾ [النحل : 98 - 100].

ما أحرى المؤمنين أن يتفهموا هذه الآيات الكريمة، ويدركوا تماماً أن توكلهم على ربهم وثقتهم برعايته للمؤمنين به، وتمسكهم بكتابه وتلاوتهم له يبعد عنهم أذى الشياطين ويمنع سلطانهم عليهم، فلا داعي للالتجاء إلى المشعوذين وأضرابهم الذين يزعمون التعامل مع الجن ويُقصدون لكف أذاهم.

أخيراً: نذكر أن الإيمان بالجن لا يخالف العقل بشيء وإن كنا لا نراهم لأن عيوننا لا ترى كل موجود، وليس جهل العلم الطبيعي لقضية هو إثبات العلم الطبيعي لعدم وجودها.

والذين يريدون أن يؤمنوا بالمادة وينكروا كل شيء وراءها يفاجؤون ويدهشون من ظاهرة تحضير الأرواح التي تتكرر أمامهم، ولا يجدون لها تفسيراً حسب نظراتهم المادية.

أما نحن معشر المؤمنين فلا نفاجأ بهذه الظاهرة لأننا لم نقف عند حدود المادة، والظاهر من شأن محضري الأرواح أنهم يحضرون الجن لا أرواح الموتى[2]، ومن الجن من يعرف بعض شؤون الإنسان، وعلى كل حال فمثل هذه

---

(1) المراد بالسجود: سجود الإكرام والتحية، لا سجود العبادة، ويبدو أنه انحناء، يقال: سجدت النخلة إذا مالت، وفي أمر الله تعالى الملائكة بالسجود لآدم عليه السلام الذي هو أصل الجنس البشري دليل على أفضلية الإنسان من حيث كونه إنساناً.

(2) إن هذه الظاهرة تثبت أن ثمة كائن يكلمك، ولكن لا يلزم أن يكون ما يقوله أو يكتبه حقاً، وإن أصحاب هذه الظاهرة يريدون أن تكون دعوتهم هدّامة عندما يزعمون أن الأرواح=

الظاهرة تثبت وجود عالم وراء المادة، وإلا فما هو التفسير لظاهرة رجل يقول لك: اكتب أي سؤال لك في قطعة ورق وألقها في هذه السلة الفارغة أمامك، ثم بعد قليل تظهر ورقتك وقد كتب عليها الجواب، أيمكن لكتابة أن تكون بلا كاتب؟ ثم أصحاب هذه الأعمال يستطيعون تكرار ذلك أمامك مرات ومرات، وقد يجعلون طفلاً أمامك يحاورك ويجيب عن أسئلتك بلغة أجنبية لم يتعلم منها حرفاً في حياته، إن كل ذلك شاع في أنحاء من أوروبة وغيرها واعترف بذلك كحقيقة وظاهرة، ولم يستطع الماديون أن يجدوا لكل ذلك تفسيراً.

أقول: كما أنه لا يجوز لعالم طبيعي أن يثبت نظرية على أنها حقيقة علمية، وثمة ظواهر طبيعية تنقضها نقضاً، فكذلك لا يجوز لأحد أن يدّعي أن لا موجود إلا المادة وهنالك ظواهر تدحض هذا الزعم دحضاً، وليس له الحق في أن يتنكر لها ويعزف عنها فعند البحث عن الحقيقة لا يجوز التنكر لثبوت أي ظاهرة ثبتت ثبوتاً حقيقياً.

رابعاً ـ الإيمان بالكتب المنزلة:

قد أنزل الله تبارك وتعالى كتباً على الأنبياء رحمةً وهدًى لبني البشر، وكان آخرها القرآن الكريم، وهذا من عظيم فضله سبحانه ومن مقتضيات الكمال والرحمة والعدل اللائقة بجلال الألوهية قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ﴾ [المائدة: 48].

فالقرآن الكريم قد صدَّق الكتب السماوية السابقة التي بشّرت بالإسلام وجاءت أصوله متوافقة مع أصولها الصحيحة الثابتة، وهو كتاب مهيمن عليها أي محيط شامل يشمل الأصول التي غطتها تلك الكتب ويزيد عليها.

وقد جعله الله سبحانه مشتملاً على سائر الأساسيات التي تهم الأمة المسلمة،

= كلها في خير، قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ﴾ [المطففين: 7]، والسجِّين: مأخوذ من السجن، فليست أرواحهم حرة طليقة كما يدعى، ولكن المتكلم شيطان من الشياطين يلهو بخداع الناس، وقد ذُكر لنا أن رجلاً ممن حُضِّرت أمامه الأرواح ـ حسب زعم المحضر ـ أقسم على المتكلم أن يخبره أليس هو من الجن، فقال: نعم.

فما من أصل من أصول الدين إلا وتجد الكتاب قد أدلى عليه بالشواهد، وما من بدعة يحدثها أصحاب البدع إلا وتجد عليها ردوداً من الكتاب الحكيم، وهو مع ذلك كله قريب من الأفهام ويتعامل مع مستويات كافة الناس قال الله سبحانه: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: 89].

وقد أخبر الله سبحانه بأنه سيحفظ هذا الكتاب سالماً كاملاً قال جلَّ شانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: 9]، وكتصديق لهذا الوعد الإلـهي فقد وصلنا القرآن الكريم منقولاً بالتواتر حفظاً وكتابةً، وقد تلقاه جهابذة العلماء بالأسـانيد المستفيضة المبيّنـة، وكان في كل عصر من عصور الإسـلام الآلاف المؤلفة من حفظة هذا الكتاب، إن كل ذلك ما كان ليحدث لو لم يكن وعد رب العالمين الذي لا يمكن إلا أن يتحقق؛ فكم من كتاب فُقِد، وكم من كتاب حُرِّف وبُدِّل، وكم من كتاب اختلف فيه، بل لم ينقل أي كتاب قديم بالموثوقية الكاملة غير القرآن الكريم.

هذا والقرآن الكريم وسائر الكتب السماوية المنزلة هي من عند الله تعالى لفظاً ومعنى نزل بها الملاك يقظة على الرسل.

فنحن المسلمون لا نؤمن بكتاب صاغه تلميذ رسول يَدَّعي أنه ملهم كما يزعم أهل أديان أخرى.

وقد أخبـر القرآن الكريم أن أهـل الكتاب نسـوا حظاً مما ذكّروا به، وأنهم حرّفوا نصوصاً في كتبهم، قال سبحانه: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ [المائدة: 13].

لذلك فنحن إذا وجدنـا في كتب أهل الكتـاب ما يكذّب القرآن حكمنـا بكذبه، وما كان لا يكذّبه ولا يخالف العلم الصحيح ولا يثبت أموراً تحاربها سائر الرسـالات الإلـهية كالعنصرية فمن الممكن أن يكون صحيحاً، ولكن لا يجب علينا الإيمان به لأنه لم يصلنا من طريق موثوق تماماً.

خامساً ـ الإيمان باليوم الآخر:

هو اليوم الذي يبعث الله تعالى فيه الناس جميعاً للحساب، ويجازي المحسن المؤمن الجزاء الحسن الذي هو الجنة، ويعاقب الكفرة والظالمين بالنار.

هذا اليوم العظيم قد اختصّ الله تعالى بعلم وقته ومتى يكون قال سبحانه عن الساعة: ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: 187].

لكن الرسـول الأكرم ﷺ بيّن لنا علامـات لاقتراب هذا اليـوم العظيم، وهنالك علامات قد ظهرت، وهنالك علامات معينة كبرى لم تظهر بعد ولنذكر بعضاً من كل ذلك.

من العلامات الصغرى:

جـاء في حديث جبريل عليـه السلام المشـهور الذي رواه مسـلم: «قال فأخبرني عن أماراتها قال أن تلد الأَمَةُ ربتها، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان»، ومعنى قوله ﷺ: «أن تلد الأَمَةُ ربتها»: أي تصبح البنت تفرض رأيها على أمها وتتحكم بها كأنها هي سيدتها، وهذا الأمر وعلو البنيان الذي أخبر به في الحديث مما نراه اليوم.

وروى الإمام أحمد عن ابن مسعود عن النبي ﷺ: «إن بين يدي الساعة تسليم الخاصة[1]، وفشو التجارة حتى تعين المرأة زوجها على التجارة وقطع الأرحام وشهادة الزور وكتمان شهادة الحق وظهور القلم»[2].

وفي حديث أخرجه الحاكم: «إذا اقترب الزمان كثر لبـس الطيالسـة[3] وكثرت التجارة وكثر المال وعُظم رب المال بماله وكثرت الفاحشة وكانت أمارة الصبيان وكثر النساء وجار السلطان وطفف في المكيال والميزان ويربي الرجل جرو كلب خير له من أن يربي ولداً له ولا يوقر كبير ولا يرحم صغير وتكثر أولاد الزنى حتى أن الرجل ليغشى المرأة على قارعة الطريق فيقول أمثلهم في ذلك الزمان لو اعتزلتما عن الطريق ويلبسون جلود الضأن على قلوب الذئاب أمثلهم في ذلك الزمان المداهن».

وروى البخاري في حديث: «إذا ضُيِّعت الأمانة فانتظر الساعة قال وكيف إضاعتها قال إذا وسِّد الأمر غير أهله فانتظر الساعة».

---

(1) أي: لا يسلم الرجل إلا على الخاصة التي يعرفها.
(2) أي: انتشار الكتابة.
(3) الطيالسة: ثياب قوم من غير العرب، وربما أريد بها انتشار لبس ثياب الإفرنج.

وقد تحدثت أحاديث أخرى عن علامات للساعة منها كثرة الفتن والقتل، وكثرة الشُرَط، وزخرفة المساجد والتباهي بها، ورؤية الأمور العظيمة التي لم تكن ترى من قبل، والتلاعن عند اللقاء، ومقاتلة المسلمين لليهود وانتصارهم عليهم أخيراً.

العلامات العشر:

روى مسلم في صحيحه عن حذيفة بن أسيد الغفاري رضي الله عنه قال: «اطلع رسول الله ﷺ علينا ونحن نتذاكر فقال ما تذاكرون قلنا الساعة قال إنها لن تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات فذكر الدخان والدجال والدابة وطلوع الشمس من مغربها ونزول عيسى بن مريم ويأجوج ومأجوج وثلاثة خسوف خسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب وآخر ذلك نار تطرد الناس إلى محشرهم» ولا بأس عن نتكلم عن كل منها.

أ ـ الدخان: رأى جمهور المفسرين أن ذلك الدخان هو المذكور في قول الله تعالى: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ۝١٠ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١١ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ۝١٢ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ۝١٣ ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ۝١٤ إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ۝١٥ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ [الدخان: 10 - 16].

إن العقل لا يستبعد طرو مثل هذا الدخان، فمن المعلوم اليوم أنه يوجد في الفضاء الكوني غازات دخانية حارة وسدم غازية، ويبدو أن الأرض ستمر خلال مسيرها في الفضاء في موضع تصاب فيه بشيء من هذا الدخان فترة من الزمن.

ب ـ ظهور الدجال: هو إنسان يخرج في آخر الزمان وهو من أصل يهودي، ويجري الله تعالى على يديه بعض الخوارق ابتلاءً واختباراً للناس، والخوارق التي يظهرها ليست بريئة من معارضة العقل كمعجزات الرسل، لأنه يدعي الألوهية وعينه عوراء وهذا عيب حتى في البشر فكيف بالإلـه، وهو ـ أي الدجال ـ مكتوب بين عينيه ك. ف. ر يتبيّنها كل مؤمن، وهو يخرج من خلة بين الشام والعراق، ويطوف في الأرض ويُمنَع من دخول مكة والمدينة، ويلبث أربعين يوماً حتى يُنزِل الله تعالى المسيح ابن مريم فيطلبه بباب لدّ بفلسطين ويقتله.

جاء في صحيح مسلم مرفوعاً للنبي عليه الصلاة والسلام: «. . . . فبينما هو كذلك إذ بعث الله المسيح بن مريم فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق بين مهرودتين[1] واضعاً كفيه على أجنحة ملكين. . . فيطلبه حتى يدركه بباب لدٍّ فيقتله. . . .»، وجاء في صحيح مسلم أيضاً وصف الدجال: «إنه شاب قطط[2] عينه طافئة كأني أشبهه بعبد العزى بن قَطَن فمن أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف».

جـ ـ ظهور دابة الأرض: هي دابة نَكِلُ إلى الله تعالى شكلها ونوعها، تخرج في آخر الزمان تسم الكافر بوسم الكفر وتطبع المؤمن بطابع الإيمان، وحينئذ لا ينفع نفساً إيمانها إن لم تكن آمنت من قبل قال الله تعالى: ﴿ ۞وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ [النمل: 82]، أي تكلمهم أن الناس كانوا لا يصدقون بالمعجزات الإلـٰهية والدلائل الناطقة بصدق الرسالة.

د ـ طلوع الشمس من مغربها: جاء عن النبي ﷺ في حديث رواه البخاري: «لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا جميعاً فذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل»، فالشمس إذن ستبدو طالعة من المغرب بدل المشرق وهذا ليس بمستنكر، فمثل ذلك يمكن أن يحدث إذا تباطأت الأرض ثم غيرت جهة دورانها، فكوكب الزهرة القريب من الأرض يدور بشكل معاكس لدوران الأرض، والذرة التي هي نموذج مصغر عن المجموعة الشمسية تقلب الالكترونات الدائرة حول نفسها جهة هذا الدوران فجأة في كل مدة كبيرة وليس معروفاً لم يحدث ذلك[3].

وقد يحدث ذلك بسبب آخر كانزلاق القطب الشمالي نحو الأسفل، فالجيولوجيون يذكرون أنه تاه في الماضي كالثمل فكان في الجزء الغربي من

---

(1) أي: بين ثوبين أو حليتين تضربان إلى الصفرة.

(2) قطط: متجعد الشعر.

(3) عند قلب هذا الدوران ينطلق فوتون، ويعتمد علم الفلك الراديوي على تلقي الفوتونات الصادرة عن سدم الهيدروجين عندما تقلب في ذراتها جهة دوران الإلكترون حول نفسه، وبذلك تسبر هذه السدم.

أمريكة الشمالية ثم تحرك متجهاً نحو الباسفيك مخترقاً الصين وسيبيريا إلى مقره الحديث، فإن تحرك حركة شبيهة بالماضي وانزلق نحو الجنوب ستبدو الشمس طالعة من المغرب، والله سبحانه أعلم كيف سيحدث ظهور الشمس طالعة من المغرب.

هـ ـ نزول المسيح عليه السلام: إن الله تبارك وتعالى قد أنجى المسيح عليه السلام من مكيدة الصلب التي دبّرت له ورفعه إلى السماء[1] وقد نص على ذلك قوله سبحانه: ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: 157 - 158].

فالمسيح عليه السلام رفع إلى السماء، ولما كان جميع الناس سيعودون إلى الأرض لقوله تعالى: ﴿ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾ [طه: 55]، فإن المسيح سيعود للأرض وقد صرحت بذلك أحاديث نبوية كثيرة وصحيحة وأشير إلى ذلك أيضاً في القرآن الكريم قال تعالى: ﴿ ۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ [الزخرف: 57 - 61][2]، الشاهد في الآية الكريمة عند قوله سبحانه: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ ﴾، والظاهر أن الضمير يعود على المسيح عليه السلام ومعنى كونه علماً للساعة أي نزوله من علاماتها.

هذا وإن لم نعد الضمير على المسيح سيعود على الملائكة على معنى أنهم سيخلفون في الأرض، وهذا لم يقل به أحد ولم يذكر في أي حديث إذن يتعين الأول.

---

(1) انظر الحاشية التي ذكرناها في بحث البشائر، عند كلامنا على إنجيل برنابا، حيث ذكرنا نصوصاً عند أهل الكتاب تؤيد حقيقة نجاة المسيح عليه السلام من الصلب.

(2) المثل الذي ضربه المشركون هو أنهم قالوا: هل المسيح من حصب جهنم، فقد عبده النصارى، والقرآن يقول: ﴿ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾، وقولهم هذا مغالطة لأن «ما» تستخدم في اللغة لغير العاقل، فلو أريد شمول جميع العقلاء لقيل: «أنتم ومن تعبدون» لذلك قال تعالى: ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾ أي مخصومون بالحجة.

وقد استفاضت السنة النبوية بالأحاديث المصرحة بنزوله فمن ذلك ما رواه الشيخان البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً مقسطاً فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال حتى لا يقبله أحد وحتى تكون السجدة الواحدة خيراً من الدنيا وما فيها».

وصح في الأحاديث أن نزوله شرق دمشق حيث يكون فيها آنذاك إمام صالح يصلي المسيح عليه السلام خلفه(1)، وقد وصف رسول الله المسيح عليهما السلام بأنه رجل مربوع إلى الحمرة والبياض كأن رأسه يقطر وإن لم يصبه بلل.

و ـ انتشار يأجوج ومأجوج: هما أمة كبيرة تنتشر في الأرض قبيل الساعة وتأكل من خيراتها ويُحدِث ذلك جوعاً، وقد ذكر القرآن الكريم أنهم مفسدون في الأرض وأن ذا القرنين بنى سداً بينهم وبين جيران لهم عندما طلب منه ذلك وذكر أن السد من زبر الحديد أي قطعه الكبيرة والقِطر أي النحاس.

وقال تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء: 96 - 97].

وروى الشيخان وغيرهما عن زينب بنت جحش أن النبي ﷺ استيقظ من نومه وهو يقول لا إلـه إلا الله ويل للعرب من شرقد اقترب فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا وعقد الراوي بيده عشراً».

---

(1) يذكر بعض أهل الحديث هذا الحديث في مصنفاتهم في باب المهدي، مشيرين إلى أن هذا الإمام هـو المهدي، والحديث في الـواقع يحتمل ذلك لكنه ليس صريحاً تماماً؛ والمهدي رجل من نسل الرسول ﷺ ينصر الله الدين على يديه، وبداية أمر ظهوره أنه يعوذ بالبيت الحرام فيبعث جيش لغزو البيت الحرام الذي هو فيه مع أصحابه فيخسف بذلك الجيش في بيداء، فيبايع الناس المهدي بين الركن والمقام، وينبغي أن يُعلَم أن المهدي لايقول في البداية: أنا المهدي، وإنما يعرفه الناس بعد ظهور تلك العلامة، وكل مَنْ يدّعي المهدوية ويجمع الناس على هذه الدعوة فهو كذَّاب، وقد ظهر في التاريخ من فعل ذلك كثيراً.

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا من هم يأجوج ومأجوج وأين سدهم؟ .

أقول ذكر المفسر القاسمي أنه كان وراء جبل من جبال القوقاز قبيلتان تسمى إحداهما آقوق والثانية ماقوق فعربهما العرب باسم يأجوج ومأجوج، وذكر بعض الكتّاب أن هنالك كانت قبائل تسمى ميكاك عند اليونان ومنكوك عند الصينيين[1]، ومنها انتشرت قبائل المغول والتتر المفسدون في الأرض .

وينقل المراغي في تفسيره عن المقتطف أن تيمورلنك اجتاز بجيشه السد الذي يدعى سد باب الحديد وهو بمقربة من ترمذ ومرّ به (شاه روخ) وكان من بطانته العالم الألماني (سيلد برجر) وذكر السد في كتابه، وكان ذلك في أوائل القرن الخامس عشر وكذلك ذكره المؤرخ الأسباني (كلا فيجو) في رحلته سنة 1403م وكان رسولاً من ملك كستيل (قشتالة) بالأندلس إلى تيمورلنك، وقال إن سد مدينة (باب الحديد) على الطريق الموصل من سمرقند والهند[2] .

وقد ذكر أبو الكلام آزاد أن هنالك جبالاً شاهقة تمتد من البحر الأسود حتى بحر قزوين، وهي جبال شامخة متجانسة إلا من كتل هائلة من الحديد المخلوط بالنحاس الصافي في سد داريال تلك هي الثغرة المسدودة التي كان وراءها قبائل متوحشة يغيرون منها، ويشار إلى هذا السد في الأطالس الجغرافية الحديثة بين تلادي وكوكس. وكان يعرفه سكان جورجيا باسم الباب الحديدي .

مما سبق يمكننا أن نفهم أن يأجوج ومأجوج هم قبائل المغول والتتر التي موطنها الأصلي مما وراء جبال القوقاز إلى الشرق من آسيا، وهم من فجر التاريخ مفسدون في الأرض، ويرجح أن تكون حملات تيمورلنك هي الشر الذي اقترب والذي أخبر به الرسول ﷺ فقد ذكر أن تيمورلنك اجتاز سد باب الحديد في زحفه المدمر على بلاد الإسلام .

ومما يعزز كون المغول والتتر هم يأجوج ومأجوج أن الأحاديث النبوية الصحيحة أخبرت عن قتال الترك ووصفتهم بأنهم عراض الوجوه صغار الأعين كأن وجوههم المجان المطرقة، وجاءت تسمية أصحاب هذه الأوصاف بيأجوج

---

(1) عن كتاب الصين ويأجوج ومأجوج، ص93، لعبد العزيز بن عبد الرحمن المسند .
(2) تفسير المراغي: 15/16 .

ومأجوج في حديث صحيح يقول فيه الرسول عليه الصلاة والسلام: «إنكم تقولون لا عدو وإنكم لن تزالوا تقاتلون حتى يأتي يأجوج ومأجوج عراض الوجوه صغار العيون صهب الشعاب[1] من كل حدب ينسلون كأن وجوههم المجان المطرقة»[2].

ومن المعروف عند المؤرخين أن المغول والتتر من أصول تركية، ويذكر بعضهم أن جد المغول والتتر اسمه ترك، والصفات المذكورة في الحديث تنطبق عليهم تماماً، وقد ذكر في الأحاديث أنهم أول من ينتزع من هذه الأمة ملكها، وهم الذين دمروا بغداد وأنهوا الخلافة العباسية وقتلوا الخليفة.

بقي أن الأحاديث النبوية أخبرت أنهم ينتشرون قبيل قيام الساعة كعلامة من علاماتها الكبرى، وذكر في بعض الأحاديث أن ظهورهم وانتشارهم يكون في عهد المسيح عليه السلام بعد نزوله، وحملات المغول والتتر قد مضت من زمن بعيد فكيف يكون ذلك؟

أقول: إن ظهورهم الأول وجلبهم للعرب الويل كما ذكر في الحديث لا ينفي انهم سينتشرون مرة أخرى قبيل الساعة، بل إن تأمّل الأحاديث النبوية يدلّ على أن الظهور الأول ليس هو الانتشار الذي يكون في عهد المسيح عليه السلام؛ لأن الأحاديث النبوية أفادت أن أصحاب تلك الصفات والذين سموا بيأجوج ومأجوج في بعض الأحاديث وبالترك في بعضها الآخر يقاتلون، أما في الانتشار الأخير فهم لا يقاتلون من قبل المسلمين جاء في صحيح مسلم: «. . . فبينما هو كذلك إذ أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام أني أخرجت عباداً لي لا يدان لأحد بقتالهم فحرِّز عبادي إلى الطور ويبعث الله يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون. . .».

إن هؤلاء القوم قد تناسل منهم كثير من أمم شرق وأواسط آسية، ويبدو أنهم هم الذين سينتشرون في الأرض ويأكلون من خيراتها حتى يحدث ذلك جوعاً كما ذكر في الأحاديث والله أعلم.

---

(1) الصهبة: حمرة يعلوها سواد.

(2) رواه أحمد والطبراني، وقال الحافظ الهيثمي: رجالهما رجال الصحيح.

ز ـ الخسوفات الثلاثة: هي علامات ثلاث متفرقة لذلك عدت في الحديث ثلاث علامات، وقد حدث في التاريخ خسف في المشرق وآخر في المغرب ربما كانا هما المرادان بخسفي المشرق والمغرب، فقد ذكر في تاريخ الخلفاء أنه خسف عام 208هـ بـ(13) قرية في المغرب، وفي خلافة المطيع سنة 346هـ وقع بالرّي وهي في المشرق زلازل وخسف ببلد طالقان وخسف بـ(150) قرية من قرى الري واتصل الأمر بحلوان فخسف بعضها[1]، وقد يقال كيف يكون هذان الخسفان من علامات الساعة ووقعا من زمن بعيد؟ وقد يجاب على ذلك بأن الحديث النبوي قال: لا تقوم الساعة حتى تروا كذا وكذا، ولم يحدد فترة لظهور أي منها، هذا ومن الممكن أن يكون الخسفان المقصودان لم يظهرا بعد، والخسف في جزيرة العرب لم يحدث على كل حال.

ح ـ نار تطرد الناس إلى المحشر: هي نار تخرج من قعر عدن كما صح في الأحاديث، يفرُّ الناس منها فيساقون إلى أرض الشام، ويبدو أن المراد بأرض الحشر هنا مكان يتجمع فيه الناس الأحياء قبيل الساعة، وليس المكان الذي تكون فيه الخلائق كافة بعد بعثها من الموت والله أعلم.

نفخة الصور

قال الله سبحانه: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨].

إنها النفخة التي تنتهي بها الحياة الدُّنيا، نفخة صاخة قارعة تميت الأحياء على الأرض وعلى غير الأرض، وتتطاير لها الجبال الراسيات تطاير الصوف المندوف، وتضطرب الأكوان، فنجوم تطمس، وكواكب تنتثر وتتفجر، والسماء تبدو حمراء ذات انفطارات قال الله تعالى: ﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ [القارعة: 1 - 5].

إن الناس يقومون من قبورهم بعد النفخة الثانية، يهيمون مترنحين كالسكارى فلا شيء يثبت تحت أنظارهم لا شيء يعتمد عليه، فالجبال الراسيات تنسف

---

(1) تاريخ الخلفاء، ص637.

وتتطاير وكأنها هائمة ومذعورة مثلهم، قال سبحانه: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴾ [طه: 105 - 107].

البحار تسجر وتملأ ناراً قال تعالى: ﴿ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴾[1] وأفواج الناس مبثوثة كالفراش لا تستطيع أن تتقي ضرراً أو تدبر أمراً، بل تهيم كالسكارى، قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ [الحج: 1 - 2].

في ذلك الحين يصحو المكذبون على الحقيقة ويقولون ﴿ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴾، أجل إنه يوم الجزاء قد أقبل أقبل ليقال للمكذبين ﴿ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴾ فإلى أين الملجأ؟ إنه لله ولله وحده قال الله تعالى: ﴿ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾ [القيامة: 7 - 13][2].

يومئذ ترد الخلائق إلى مولاها الحق، ملك يوم الدين والجزاء الذي يرحم ويعدل ولا يظلم قال الله تعالى: ﴿ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِا۟ىٓءَ بِٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [الزمر: 69].

يوم الحساب

هو اليوم الذي فيه تقف سائر الخلائق بين يدي بارئها بقلوب واجفة وأبصار خاشعة لترى مصيرها إلى الجنة أو النار، فالمؤمن المحسن ليس كالجاحد الظالم في حكم الإلـه الحق ملك يوم الجزاء.

في ذلك اليوم يخرج الله تعالى لكل إنسان كتاب أعماله ويهيّئ الله تعالى

---

(1) لقد كان يصعب على الإنسان القديم أن يتصور أن البحار ـ وهي ماء كثير يطفئ النار ـ تسجر وتحترق، ولكن اليوم بعد أن عرف الإنسان أن الحرارة الشديدة تشرد الماء إلى عنصريه وهما الهيدروجين الذي يحترق، والأوكسجين الذي يساعد على الاحتراق؛ فلم يعد ذلك مستبعداً وعلم أن الآية الكريمة أثبتت أمراً علم إمكانه حديثاً.

(2) الوزر: ملجأ أو ناصر.

المؤمنين لأن يتلقوه باليمين وغيرهم يتلقاه بشماله، أو من وراء ظهره.

قال الله تعالى: ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ [الإسراء: 13 - 14]، وقال سبحانه: ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الجاثية: 27- 28]، ولأجل أن يرى الإنسان تحقق العدالة مجسداً أمام عينيه، فقد جعل سبحانه في ذلك اليوم موازين ـ هو أعلم بها ـ توزن بها الحسنات والسيئات[1]، ليعرف الإنسان أن مصيره في الحياة الآخرة نتيجة ما تصرفه في الدنيا، وزرعه فيها فتوزن أعماله كما توزن نواتج الزرع في يوم الحصاد، في الميزان الذي يعرف الناس أنه عادل ولا يحيف.

هذا ويكون طول الحساب وقصره وصعوبته ويسره مختلف باختلاف الناس ودرجاتهم وأعمالهم قال الله تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴾ [الانشقاق: 7 - 12][2].

الجنة والنار

هي العاقبة التي ينتهي إلى إحداهما الإنسان لا محالة، ونعيم الجنة وعذاب النار، حسّيان للروح والجسد بلا خلاف عند المسلمين، لأن آيات الكتاب الحكيم وصفت تنعم المؤمنين بأجسادهم في الجنة، وعذاب الكافرين بأجسادهم في النار، ولأن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [البقرة: 28]، ويقول: ﴿ لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ﴾ [الكهف: 48]، فالإنسان أحيي الحياة الأولى في حياته الدنيا هذه ثم يموت فيها، ثم يحييه الله تعالى يوم القيامة ويرجع إليه،

---

(1) إما أن الحسنات والسيئات تجسد أو توزن صحائفها، ويرجح هذا الأخير الحديث المسمى حديث البطاقة.

(2) الحساب اليسير هو عرض أعماله عليه وغفران ذنوبه وليس مناقشته في ذنوبه، فقد صحّ في الحديث أن من نوقش الحساب عُذِّب.

وإنما يرجع إليه كما خلق أول مرة كما تنص الآية الكريمة أي بالروح والجسد[1].

وقد استفاض الكتاب الكريم في وصف الجنة ونعيمها، ووصف جهنم وعذابها، فمن وصفه للجنة قوله جلَّ من قائل: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۝٨ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ۝٩ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝١٠ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ۝١١ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ۝١٢ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ۝١٣ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ۝١٤ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ۝١٥ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾ [الغاشية: 8 - 16][2]، وقال تعالى: ﴿يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ۝٦٨ الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ۝٦٩ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ۝٧٠ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝٧١ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٧٢ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٧٣﴾ [الزخرف: 68 - 73].

إنها جنة عدن جعلها الرحمن في جوار عرشه، ونشر على أهلها رضوانه، تنساب الأنهار خلال أشجارها الملتفة وتحت ظلالها، وساكنوها على أبهى زينة وأتم حال، يلبسون ضروب الحرير على اختلاف أنواعه، ويتكئون مع أزواجهم الحور العين على الوسائد في سرر منيفة، ولهم ما تشتهيه أنفسهم، وتلذ أعينهم به، وتطيب قلوبهم له قال سبحانه: ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [سورة قَ: 35]، والملائكة تدخل عليهم وتسلم من كل باب، ورضوان من الله تعالى أكبر، فهو سبحانه يُحلُّ عليهم رضوانه ويكرمهم بكلامه، وينضِّر وجوههم بالنظر إلى وجهه الكريم قال الله تعالى في حديث قدسي: «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر»[3].

أما جهنم ـ أعاذنا الله منها ـ فقد وصفت بآيات كريمة كثيرة منها قوله سبحانه: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ۝٤٣ طَعَامُ الْأَثِيمِ ۝٤٤ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ۝٤٥ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ۝٤٦ خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ ۝٤٧ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ۝٤٨ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الدخان: 43 - 49].

---

(1) تدل الآية الأولى التي ذكرناها على بطلان تناسخ الأرواح الذي يتوهمه بعض الطوائف من الناس.
(2) ناعمة: من التنعم.
(3) متفق عليه.

فشجر الزقوم المشهور بمرارته هو طعام الأثيم في جهنم، إنه يغلي في بطونهم كغلي عكر الزيت، ويقال للزبانية ﴿ فَٱعْتِلُوهُ ﴾ : أي جروه بقهر ومهانة إلى وسط الجحيم، وصبّوا العذاب فوق رأسه صباً، فهو الذي كان يتعالى عن اتباع الحق يروم بذلك العزة، فليرَ العزة التي طلبها ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴾ [الدخان: 49].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: 56]، فكلما أكلت النار طبقات الجلد والأعصاب الخارجية بدلت بغيرها لأجل أن يبقى العذاب، هكذا تفيد الآية الكريمة، وقد فُهم مغزاها بعد أن عرف أن مستقبلات حس الألم وهي النهايات العصبية العارية تتفرع في سوية الأدمة والبشرة لتزيد من نقل الإحساس، كما تنقل الإحساس بالحرق جسيمات رافيني التي تكون في الأدمة وتحتها، فلو اتلفت كل هذه الطبقات فإن عامة الشعور بألم الحرق يذهب، لذلك كانت تبدل ليبقى العذاب.

وروى الترمذي عن أبي هريرة رفعه إلى النبي ﷺ: «أوقد على النار ألف سنة حتى احمرّت، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى ابيضت، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى استودّت، فهي سوداء مظلمة»(1).

وقد غدا معلوماً اليوم أن الجسم المعرّض للحرارة يحمر أولاً، فإن زادت الحرارة كثيراً فإنه يبيض، فإن زادت أكثر فأكثر يأخذ في السواد ويزداد سواده، فما ذكره الحديث متطابق مع العلم ليُعلَم أن الوعيد بالنار وعيد صحيح لا مرية فيه.

قال سبحانه: ﴿ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴾ [غافر: 81].

ويشار أخيراً إلى أن النار لا تفنى ويبقى عذاب الكفرة فيها للآيات الكريمة التي ذكرت الخلود فيها.

نعم ذكرت آيات كريمة الخلود معلقاً على مشيئة الله تعالى كقوله سبحانه: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ

(1) لهذا الحديث شاهد موقوف في الموطأ بإسناد صحيح.

﴿فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: 106 - 108].

هذه الآيات الكريمة تبيّن أن لا واجب على الله تعالى، وهو يفعل ما يريد ولا يسأله أحد عما يفعل، لكنه سبحانه لن يُخرج المؤمنين من الجنة، وإن لم يكن بقاؤهم فيها واجباً عليه سبحانه؛ لأنه وعدهم بالخلود فيها في آيات كثيرة منها الآية السابقة في قوله: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾: أي غير منقطع وهذا وعد من رب العباد لا يمكن إلا أن يصدق.

أما الذين أُدخلوا النار فالله تعالى يفعل ما يريد بهم، وقد صحَّ في الأحاديث أنَّ المؤمنين الموحّدين لا يخلدون في النار بل يخرجون منها بعد مدة ويدخلون الجنة، فالإيمان والاعتقاد الصحيح لا ينجي وحده من النار إن غلبت المعاصي على صاحبه، وإن كان ينجي من الخلود[1] الذي يكون لكفار عرفوا الحق أنه حق وعادوه وكذبوا الرسل.

أما الذين وُجدوا قبل انتشار الرسالة الإلـٰهية أو لم تصلهم دعوة الرسل، ففي هؤلاء يقول الله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: 15].

حكم استجماع أركان الإيمان:

من اعتقد بسائر أركان الإيمان السابق ذكرها والتي حددها الحديث النبوي الصحيح السابق وأذعن لها فهو مؤمن لا يجوز تكفيره، وإنما نقول وأذعن لها لأنه لا يكفي الاعتقاد الصحيح إذا كان المرء قد اتخذ لنفسه وجهة هي ضد الدين كإبليس اللعين الذي أخذ على نفسه محاربة الإيمان فكان من الكافرين، وكالمنافقين الذين كانوا في عصر الرسالة وكانت وجهتهم التي ارتضوها لأنفسهم مخادعة الرسول والمؤمنين والكيد لهم، فهؤلاء كفار كما بيّن القرآن الكريم، ولو كان أحدهم يعلم في قرارة نفسه أن محمداً عليه الصلاة والسلام نبيّ حقاً.

وإن الإيمان هو الذي يدفع الإنسان إلى التزام الطاعات والبعد عن المنكرات، ولهذا تصدر في الكتاب العزيز آيات الأوامر والنواهي بقوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ . . .﴾و فهو يذكّرهم بالإيمان الذي أخذوه على أنفسهم

(1) ذكر في أحاديث صحيحة كثيرة أن الموحدين يخرجون من النار ولا يبقى فيها مَنْ في قلبه شيء من إيمان.

وسلكوا سبيله ثم يبيّن لهم المأمورات والمنهيات؛ لأن التزام ذلك من معالم الإيمان ومقتضياته.

وفي نفس الإنسان تتصارع دواعي الإيمان وتأمر بالالتزام مع أهواء النفس وتزيينات الشيطان التي تأمر بالمخالفة، وتطلب المعاصي دائماً تبريراً دائماً للوقوع فيها وذلك لا يكون إلا بالكفر، كما تزيد الطاعات من تمكن الإيمان في النفس، فالإيمان يزيد وينقص، وقد نصّت آيات كثيرة على ذلك كقوله تعالى: ﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًىۗ ﴾ [مريم: 76]، وقوله: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا ﴾[التوبة: 124]، وأصل الإيمان هو التصديق فهو الذي يزيد وينقص، ولا معنى للتأويلات المختلفة التي تخرج الآيات الكريمة عن ظاهرها(1).

هذا ولا يقع الإنسان في المنكرات إلا إذا تناسى معالم الإيمان وإلا إذا جُعلت عقائده ضبابية الأثر في نفسه ولم يستحضرها ويظهر أن هذا معنى قوله عليه السلام: «لا يزني العبد حين يزني وهو مؤمن ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ولا يقتل وهو مؤمن»(2)، وقوله في الحديث الآخر: «إذا زنى العبد خرج منه الإيمان فكان على رأسه كالظلة فإذا أقلع رجع إليه»(3)، من كل ما سبق نجد أن الصلة وثيقة بين الإيمان والعمل، وكل منهما يؤثر في الآخر، والعمل الصالح من معالم الإيمان، وقد سميَ إيماناً في بعض النصوص كقوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة: 143]، وإنما نزلت هذه الآية في الذين توفوا من الصحابة قبل تحويل القبلة عن بيت المقدس فسُئل الرسول عنهم فنزلت هذه الآية وهي تدلُّ على أن الصلاة من الإيمان، وقد عدّ رسول الله ﷺ إماطة الأذى عن الطريق والحياء من شعب الإيمان في الحديث الصحيح. وقد بيّنت النصوص أن العمل الصالح دليل على صحة الإيمان كقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِۖ ﴾ [الممتحنة: 10]،

---

(1) يقول بعضهم: إن الإيمان لو نقص لأمكن أن ينعدم، وهو لا ينعدم إذن لا ينقص. أقول: جاء عن الرسول ﷺ في وصف الناس قرب الساعة: «يصبح الرجل فيها مؤمناً ويمسي كافراً. . .» وهذا واضح في أن الإيمان قد يزول عند بعض الناس، والعياذ بالله تعالى.

(2) رواه البخاري وغيره.

(3) رواه أبو داود والحاكم، وصححه الألباني.

فقد أمر بامتحان المؤمنات وذلك يكون بتصديق الفعل للقول.

لكل هذا لم يستسغ علماء السلف من هذه الأمة أن يقال: الإيمان تصديق فحسب؛ بل قالوا: هو اعتقاد وقول وعمل، على أنهم لم يكفِّروا من تصدر منه مخالفة، وهذا هو الصحيح خلافاً لرأي الخوارج ولأقوام معاصرين، يريدون أن يبعثوا من جديد قول الخوارج.

والدليل على أنَّ الإنسان لا يكفر بمجرد المعصية أمور:

1 - قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ [النساء: 94]، فكل من أعلن إيمانه بالإسلام وسالم المؤمنين ولم يَكِدِ للإيمان وأهله لم يجز أن نقول عنه كافر.

2 - قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء: 48]، والمعاصي أقل من الشرك فهي معرضة للغفران خلافاً للكفر.

3 - قوله تعالى: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات: 9،] وقال بعد ذلك: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: 10]، فانظر كيف لم يسلب عنهم وصف الإيمان وأمر بإصلاح ذات بينهم؛ لأنهم مؤمنون مع أنهم مرتكبون لمعصية كبيرة هي الاقتتال.

4 - حكم القرآن بقطع يد السارق وجلد الزاني والقاذف يدلُّ على أنهم ليسوا كفاراً؛ لأن عقوبة الكافر المرتد القتل لقوله عليه السلام: «من بدَّل دينه فاقتلوه»[1]، وقد نُقل أن سيدنا علياً رضي الله عنه احتجّ على الخوارج بأنه عليه السلام رجم الزاني وصلى عليه وقتل القاتل وورث أهله ميراثه وجلد القاذف وشارب الخمر وأسهم لهما بالفيء فلم يستطيعوا رد حجته.

5 - ما جاء عن الرسول ﷺ في الصحيحين من حديث أبي ذر: «أتاني جبريل فبشرني أنه من مات من أمتك لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة فقلت وإن زنى وإن سرق فقال وإن زنى وإن سرق».

---

(1) ظاهر الحديث دون استتابة. أما حديث «أي رجل ارتد من الإسلام فادْعُهُ فإن عاد وإلا فاضرب عنقه، وأيما امرأة ارتدت عن الإسلام فادعُها وإلا فاضرب عنقها» وكأن الحديث فيه استتابة وإلا فالقتل. (الناشر)

بعد هـذا الإيضاح قد يطرح سـؤال هو أن بعض النصوص قـدمت بعض المعاصي كفراً كقوله عليه السلام: «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر»، فكيف يجتمع هذا مع ما قررناه؟ والجواب أن من قاتل المسـلمين لأنهم مسـلمون فهو كافر، وكذلك كل من فعل معصية واستباحها، وإن المنغمس في المنكرات تطلب نفسه التبرير الدائم لذلك والتبرير كفر، لذلك فإن ارتكاب المعاصي بداية الطريق نحو الكفر فسمي بمآله كما سمي استعطار المرأة وخروجها أمام الرجال زنا مع أنه ليس بالزنا الذي يوجب الحدود. ولم تفصل الأخبار في ذلك لغرض إبقاء التنفير شديداً عن المنكرات.

وقد ذكر أبو عبيد أحد علماء السلف أن المعاصي والذنوب لا تزيل إيماناً ولا توجب كفراً، لكنها تنفي عن الإيمان إخلاصه وتقطع عنه لوازمه وما اشترطه الله على عباده في كتابه كقوله: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبة: 111]، فكان فاعل المعاصي غير متحقق بمظاهر الإيمان ومزاياه غير أنه لم يـزل عنه اسـم الإيمان لبقاء التصديق بأركانـه والاعتراف بـه موجوداً.

والحق أن اسم الإيمان قد يطلق على من هو غير كافر فيشمل عندئذ المؤمن الفاسق الذي يرتكب المحرمات وقد يطلق ويراد به فقط المتحقق بلوازم الإيمان، وعند ذلك لا يشمل الفاسق ومن ذلك قوله سبحانه: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ﴾ [السـجدة: 18]، فواضح من هذه الآيـة أنَّ دلالة المؤمن فيها لا تشمل الفاسق.

ولا يسمى صاحب المعصية مؤمناً على هذا التعريف الأخير، وهذا لا يعني الخروج عن الملة. ويظهر لي أيضاً أن الآثار التي نصت على أنَّ: «من قال لا إلـه إلا الله مخلصاً بها دخل الجنة»، وفي بعضها الآخر: «حرمه الله على النار»، إنما هي للمؤمن المخلص المتحقق بالإيمان فهذا موعود بالغفران بقوله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: 31]، لأن المؤمن المخلص بإيمانه لا تصدر عنه إلا هفوات يسيرة يتوب منها سريعاً ولا يفعل الكبائر ولا يصر على الصغائر.

* * *

الباب السادس

مناقشات متفرقة

قال رسول الله ﷺ: «قد تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك...».

[رواه أحمد في مسنده]

المعجزات وموقف العقل منها

المعجزة: هي أمر خارق للعادة والمألوف، ويمكن أن يجريه الله تعالى على يد نبي من الأنبياء، ويكون ذلك عادة لأجل إظهار صدقه في ادّعاء الرسالة الإلـٰهية.

قد كانت المعجزة تعطي دليلاً للنبي على صحة ادّعائه؛ لأن كل ظاهرة تحتاج إلى تفسير، ولا تفسير لظاهرة المعجزة التي تحدث على يد مدّعي النبوة، إلا أنَّ الله تبارك وتعالى مؤيد له، وقد جعلها الله تجري بقدرته على يديه إظهاراً لصدقه، ويجب أن تكون المعجزة بعيدة عن نوع حيَل المشعوذين والسحرة وسليمة من المعارضة[1].

لنسأل الآن ما هو موقف العقل والعلم منها؟.

أما العلم الطبيعي التجريبي فيقول لك: إنني أدرس الظواهر، وأسجّل النتائج الاستقرائية وسننها التي تسير عليها في حالتها الطبيعية، ولكن ليس من شأني واختصاصي الحديث عن إمكان تغيير هذه السنن بقدرة الخالق الذي خلقها وسيّرها على هذه السنن.

أما العلم بمفهومه العام والذي يدخل فيه الاعتقادات المبرهن على صحتها بالأدلة العقلية والعلمية، فيقول لك: إن الذي خلق العالم وسيّره على سنن معينة قادر على تغيير تلك السنن متى شاء، ومن صدّق بأن الله تعالى قد أوجد المادة من العدم لا يعسر عليه التصديق بأن سنناً طبيعيةً معينةً قد غيّرت بقدرة هذا الإله؛ لأن الإيجاد من العدم معجزة أيما معجزة، ومن ينكرها فهو محجوج بالأدلة العقلية التي ذكرناها.

---

(1) المعارضة العقلية مثل ما يكون لخوارق الأعور الدجال، فإنها معارضة بأنه مكتوب على جبينه كافر، ومعارضة بأن عينه عوراء، وهذا معيب عند الناس وهو يدّعي الألوهية.

وما مثل هؤلاء المنكرين للمعجزات إلا مثل كلاب بافلوف التي قُرن تقديم اللحم لها مع رنين الجرس، فحسبت أن الأمرين لا يمكن أن ينفكا، وغاب عنها أن الإنسان الذي اصطنع هذا الترابط قادر على أن يفكه متى شاء، كذلك منكر المعجزات يظن أن السنن التي يراها لا يمكن أن تنفك ويغيب عن ذهنه أن الله الذي سيرها على هذه السنن قادر على تغيير سننها متى شاء.

وهب أن إنساناً من العصور الحجرية حُدِّث عن التلفاز والطائرة والحاسوب الإلكتروني، فأنكر ذلك اعتماداً على أنه خارج عن مألوفاته، وقال آخر من نفس ذلك العصر: إن ما آلفه ليس حدوداً على الممكن والمعقول، فيمكن أن يكون ذلك الأمر صحيحاً، أي الرجلين يكون أوسع مداركاً وأبعد نظراً؟ لاشك أنه الذي لم يجعل من مألوفاته حدوداً على الإمكان، فكذلك المؤمن بالمعجزات الإلـٰهية أوسع مداركاً وأبعد نظراً ممن ينكرها اعتماداً على أنها تخالف مألوفاته وكأنه يرى أن مألوفاته حدود على قدرة الخالق.

ويشار هنا إلى أن المعجزة وإن خرجت عن المألوف لكنها لا تخرق قواعد الإمكان العقلي، وقد فرّق المناطقة بين المستحيل عقلاً والممتنع عادةً، والمعجزة هي من نوع الممتنع عادة[1].

ونحن وإن آمنا بإمكان حدوث المعجزة بقدرة الله تعالى، لكنا نعلم أنَّ الله تعالى أجرى الكون على سنن معينة، وهذه السنن لا تخرق بشكل اعتباطي، وإن خرقت لحكمة بشكل استثنائي على يد الرسول الحق إظهاراً لصدقه، لذلك نحن لسنا مطالبين بحكم كوننا مسلمين بالتصديق بكل ما يتناقله الناس والصوفيون من أقاصيص غريبة وخوارق[2]، إنما نصدّق بالمعجزات النبوية التي وردتنا بالأسانيد الصحيحة، وقد ثبتت المعجزات لنبينا محمد ﷺ بأسانيد كثيرة مستفيضة ومبيّنه ومدروسة من قبل أهل الحديث ومحكوم بصحتها، وقد اتفق على

---

(1) المستحيل عقلاً ما لا يتصور وجوده ولو بفعل فاعل قادر كظهور جسم بلون أبيض ناصع وأسود لراصد واحد وبظروف واحدة، ومثل أن يكون الشيء موجوداً ومعدوماً بآن واحد، والمستحيل عادة ما لا يجري بنفسه ولكن يتصور وجوده بفعل فاعل ويمكن أن نرى مثله على شاشة التلفاز مثل تحرك جسم بلا مؤثر ظاهر.

(2) نحن لا ننكر إمكانية الكرامة ولكن لا نقول بوجوب التصديق بها.

إثبات المعجزات له جميع الصحابة ثم التابعين ومن بعدهم، ولا يمكن لأمة ولا في أي عصر من العصور أن تتواطأ على خداع نفسها، وإنَّ إنكار معجزات محمد ﷺ أمر لا يقل غرابة عن إنكار ثابت من ثوابت التاريخ كوقعة القادسية، فليست المعجزات بلوثة في الدين إنما هي دليل آخر على صدق نبوة محمد ﷺ.

فإن قلت إن هنالك غرائب يقوم بها المشعوذون فلماذا لا تكون معجزات الأنبياء من هذا القبيل؟.

أقول فضلاً عن كون الأنبياء يتحلّون بفضائل الأخلاق ويتميزون بالسيرة الحسنة، فإن معجزاتهم ليست من نوع خوارق السحرة والمشعوذين، فرسول الله ﷺ نبع الماء من بين أصابعه وروى منه جمّاً غفيراً من الناس، ولا يمكن لجيش أن يشرب ويرتوي من شعوذة، وقد طلبوا منه معجزة فأراهم انشقاق القمر ولا يمكن لمشعوذ يخرج الغرائب من أكمامه أن يري الناس القمر منشقاً في مختلف مواضعهم.

وقد عرضت جريدة الإنسان التي كانت تصدر في الأستانة مقالاً عن الصحف الأجنبية ذكر فيه أنه عثر على بناء في الصين كتب عليه أنه بُني عام كذا وكذا الذي وقع فيه حادث انشاق القمر، والتاريخ المذكور يوافق التاريخ الذي ذكر فيه انشقاق القمر كمعجزة لمحمد بن عبد الله ﷺ.

ونقل الأستاذ محمد محمد حسين خبرين عن انشقاق القمر من أمهات كتب التاريخ عند الأمم الأخرى في كتابه الذي سماه الرسالة ونال به شهادة الدكتوراه[1] وفي هذه المناسبة أذكر أن أحد الملحدين سألني قائلاً هل صحيح أنه ذكر في الإسلام أن القمر قد انشق بمعجزة للرسول، فإني سمعت فايز فوق العادة يقول في محاضرة علمية له: «إن هنالك كتابات تاريخية تذكر حادثة انشقاق القمر، وذلك مذكور أيضاً كمعجزة للنبي محمد ﷺ، ثم ذهب يفسر علمياً كيف حدث ذلك فهل صحيح أن ذلك مذكور في الإسلام؟».

قلت نعم ذكره القرآن الكريم في قوله: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ [القمر: 1 - 2]، واستفاضت الأحاديث

(1) عن كتاب المعجزة الخالدة، ص56، لحسن ضياء الدين عتر.

النبوية في ذكره، فتعجب من ذلك، فسألته ما هو تفسير هذه الظاهرة عندك تذكر النصوص التاريخيـة حادثة ظهور القمر منشقاً، وتذكر النصوص الإسـلامية أن محمداً عليه الصلاة والسلام طُلبت منه معجزة، فأراهم انشقاق القمر؟ فقال لما طلبوا منه المعجزة: صدف أن حدث هذا الحادث السماوي الذي هو ظهور القمر منشقاً؛ فانتبه هو إلى ذلك قبلهم فقال: انظروا هذه معجزة؟!! فتأمل[1].

أخيراً: نذكر أنه لم يجعل في رسالة الإسلام للمعجزات الماديـة المقام الأول في إثبات صحة الرسالة، وإنّما اعتمد على الأدلة العقلية بالدرجة الأولى.

لذلك فالقرآن الكريم يلفت نظر الناس مـراراً إلى التفكر في السـماوات والأرض، ويثبت لهم بالحجج البيضاء قدرة الخالق سبحانه ووجوده ووحدانيته، ويحثهم على التفكر في القرآن، ويتحدى الناس في الإتيان بمثله ليدرك الناس إعجاز القرآن الكريم الذي يثبت إلـٰهيته؛ ولـم يستجب الله تعالى في الغالب إلى طلبات المعجزات المادية التي يطلبها المشركون، والحكمة من ذلك كي يعلم أن الإسلام قام على أدلة عقلية نيّرة ولم يكن عمود بنائه الخوارق.

قال الله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَـٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَـٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [العنكبوت: 50 - 51]، وعندمـا استجاب الله تعالى لطلب المعجزة جاءت معجزة كونية شاملة هي معجزة انشقاق القمر، لكي يظهر بُعدها الشديد عن خوارق السحرة والمشعوذين وأشباههم، ولأجل أن يعلم أن الرسول محمد ﷺ مؤيد بالمعجزات وإن لم يتخذها دليله الأول.

وقد أكرم الله تعالى نبيه محمد ﷺ بمعجزات أخر لم تأت استجابة لطلب

---

(1) سألت المهندس فايز فوق العادة عما ذكره وما مصدره في ذلك، فأخبرني أنه قرأ في مجلة علمية أجنبية مقالاً يفسر حادثة انشقاق القمر التي أرّخها كهنة عندهم، وتفسر المجلة ذلك بنيزك كبير ضرب القمر فأحدث فيه حفرة ثم ارتدّ عنه وظهر القمر بفعل ارتداد النيزك مع الحطام المتناثر منشقاً، ويوجد على سطح القمر حفرة رآها رواد الفضاء، ويعود تاريخها حسب تقدير العلماء إلى التاريخ الذي أرّخ حدوث انشقاق القمر [كذا تذكر المجلة].

المشركين، وإنما إكرام من الله تعالى لنبيه كمعجزة الإسراء والمعراج؛ التي زار فيها الملأ الأعلى واطّلع على عجائب من ملكوت الله تعالى.

وقد يستغرب ذلك بعض الناس لضيق أفقهم ومداركهم فيقولون كيف سار بتلك السرعة الهائلة وقطع تلك المسافات الكونية الشاسعة؟ أقول لا يمكن أن تحدد قدرة الخالق تعالى أشياء وأمور هو خلقها، ثم إن السماوات التي هي مسكن الملائكة غيب عنا لا ندري أين هي، وقد ذكر دانيال في الإصحاح السابع من سفره في الرؤيا المطابقة للأحداث التاريخية بشكل كامل: أنه سيمر على الديار التي كان فيها أربع ممالك ثم يحمل ابن الإنسان على السحاب ويزور الملأ الأعلى ويتلقى منه القوة والسلطان إلى الأبد، ثم تدفع المملكة إلى قديسي العلي، وقد تتالى على حكم الديار التي كان فيها منذ عهده أربع ممالك كان آخرها الدولة الرومانية ثم دفعت البلاد إلى أصحاب محمد ﷺ الذين أخبر نبيّهم أنه زار الملأ الأعلى، فما هو تفسير هذا التطابق هل هو مجرد صدفة؟.

* * *

النصوص الإسلامية والعلوم

يسود في أوروبة عداء بين الدين والعلم، حتى إن بعضهم أخذ يدعو إلى تخليص الدين من براثن العلم، وليس في أوروبة اتجاه فكري يتبنى فكرة عدم التعارض بين الدين والعلم؛ لأن مثل هذا التوفيق عندهم عسير.

أما نحن معشر المسلمين فلا يتعارض كتابنا مع العلم في شيء، بل يشهد له العلم كما أظهرنا ذلك واضحاً في بحث الإعجاز العلمي في القرآن.

وإنه ليلاحظ لدى المسلمين أن أكثر المتدينين تمسكاً من الطليعة المثقفة وطلاب وخريجي الجامعات، وهذه ظاهرة لا تلاحظ عند أهل دين آخر، لذلك فنحن لا ندعو إلى فصل الدين عن العلم بل لو وجدنا نحن أن الدين يتناقض مع العلم لأخذنا بالعلم وتركنا كل ما سواه [1]، لأن كل قدسية تدعي لشيء يخالف العلم هي قدسية زائفة ويجب ان لا تحترم.

هذا وتأتي بعض الأسئلة على أحاديث نبوية يظهر لبعض الناس تعارضاً بينها وبين العلم.

أقول إن مرد ذلك إلى أسباب عدة منها عدم ثبوت الأثر الشرعي، فقد يكون سند الحديث فيه ضعف ما، وقد يكون الحديث صحيح السند لكن بعض الرواة رووه بالمعنى وأخطؤوا في فهمه فظهر مخالفاً للعلم، وقد يكون الحديث معلولاً بعلة خفية لم يستدركها علماء الحديث [2]. لذلك فنحن نقول عن حديث الآحاد

---

(1) هذا افتراض لأن ديننا لا يمكن أن يتعارض مع العلم الصحيح الثابت.

(2) الحديث المعلول هو الذي فيه علة تقدح في سلامته مع أن ظاهرة السلامة منها مثل أن يسقط أحد الرواة الأثبات أحد رجال السند الذين روى عنهم سهواً ويصدف ألا يظهر السند منقطعاً بهذا السقوط، فيظهر السند صحيحاً، وقد يكون ضعيفاً إن كان الرجل الساقط ليس ثقة. وقد استدرك علماء الحديث علل كثير من الأحاديث، لكن جهدهم رضي الله عنهم جهد بشري، فلا يقال عنه إنه أحاط بسائر العلل.

إنه ظني الثبوت وكذلك يقول علماء هذا الشأن، وليس معنى ذلك أنا لا نصدق به بل نحن نصدق به ونعمل بما فيه طالما أن ظاهره السلامة. لكن إن تعارض مع العلم الثابت ولم يكن الجمع بينهما ممكناً حكمنا بأن ذلك الحديث على الوجه المنقول فيه غير صحيح.

وقد يكون مرد ظهور التعارض مع العلم عدم فهم النص الإسلامي على وجهه الصحيح، أو حمل عباراته على اصطلاحات لفظية حادثة، فيجب أن يتنبه إلى تغير مدلول الكلمات مع تغير العصور؛ وينبغي أن يُلاحَظ وجود بعض التسامح في العبارات واستخدام المجازات أحياناً لتقريب المفاهيم إلى أهل العصور القديمة.

هذا وبعض صور التعارض المزعوم مع العلم مردها إلى أن النظرية العلمية المتعارض معها لم تثبت بعد ولم تصح كحقيقة علمية، أو تكون النظرية العلمية تتحدث في غير المجال الذي تحدث عنه النص الإسلامي.

ولنذكر بعض النصوص الإسلامية التي استشكلها بعض الناس والكتّاب رأوا فيها مخالفة للعلم ولنحلّ هذه الإشكالات.

جاء في الحديث الصحيح الذي رواه الشيخان البخاري ومسلم وغيرهما (لاعدوى)، وقد استشكل ذلك بعضهم لأن العدوى ثابتة علمياً، أقول: «إن الحديث النبوي لا ينفي أصل العدوى بالأمراض بدليل أن الرسول ﷺ ذكر في نفس هذا الحديث كما روى البخاري: «وفرّ من المجذوم كما تفر من الأسد»، إنما مغزى الحديث النبوي أن يعرف المؤمن ويظل ماثلاً في ذهنه أن جميع الأمور بيد الله تعالى، فلا يستحسن منه أن يحيل الأسباب إلى مسبباتها القريبة ويسكت بل عليه أن يحيلها إلى من بيده كل شيء، ويجري كل شيء بإذنه وهو الله تعالى.

هذا التوجيه مثل التوجيه القرآني في قوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ [الأنفال: 17].

وقد صحّ في الأحاديث قول الرسول ﷺ: «لا يُورِدُ مُمْرِضٌ على مُصِحٍّ»، أي لا تورد الإبل المريضة وأشباهها على الصحيحة، وهذا يؤكد أنَّ الرسول ﷺ لم ينفِ أصل العدوى.

وروى البخاري ومسلم وغيرهما أنَّ النبي ﷺ قال: «إذا سمعتم بالطاعون

بأرض فلا تدخلوها وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها».

إنَّ هذا التوجيه النبوي له حكمة جليلة؛ لأنه يحصر نطاق الطاعون ويحد من انتشاره بين الناس، لأن تفرق الناس الذين وجدوا المرض بينهم سينشر المرض حتى لو كان المنتشرون غير مصابين به، لأنهم قد يحملون جراثيمه بأمتعتهم وأدواتهم.

وجاء في الحديث: «تنكبوا الغبار فمنه تكون النسمة»[1]، وهذا أمر بالتحفظ من الغبار لأن منه ما يضر وفيه نسمة أي حياة، وهذا على ما يبدو تقرير لحقيقة وجود الجراثيم وقد صحّ في الأحاديث الأمر بتغطية الأواني وربط الأسقية وهذا يمنع التلوث عنها.

من كل ما ذكر تجد أن التوجيهات النبوية لم تخالف العلم إنما جاءت متفقة معه.

جاء في البخاري ومسلم مرفوعاً للنبي عليه الصلاة والسلام: «اشتكت النار إلى ربها فقالت ربِّ أكل بعضي بعضاً فأُذن لها بنفسين نَفَس في الشتاء ونَفَس في الصيف، فهو أشد ما تجدون من الحر وأشد ما تجدون من الزمهرير».

قد يتبادر إلى الذهن أن المراد بالنار في الحديث نار جهنم، ويستغرب جداً ما ذكر عنها خاصة حدوث الزمهرير على الأرض من جرّاء نفس لها فكيف يكون ذلك؟ أقول قد ذكر في أكثر من حديث نبوي أن الشمس تكوّر وتلقى في نار جهنم أي أنها ستكون جزءاً منها، ويمكن أن ينسب أثر الجزء إلى الكل بوجه عام، ومثل ذلك مستخدم بكثرة، وقد يكون المراد بالنار جنس النار التي خلقها الله تعالى وليست نار جهنم على وجه الخصوص وعلى ذلك فلا إشكال.

وقد عُرف علمياً أن الشمس تفور باللهب، ويحدث فيها اندفاعات لهب ضخمة تمتد إلى آلاف كثيرة من الكيلو مترات، كما يحدث فيها هيجانات معاكسة للأولى، حيث يظهر فيها انخفاضات وامتصاص للغازات التي تندفع بشدة إلى باطنها ونتيجة لذلك تظهر البقع الشمسية أو الكلف الشمسي.

---

(1) ذكر في الكتب الحديثية وإن لم يكن مشهوراً وفيه ضعف.

فنار الشمس إذن لها نَفَسان ويمكن أن نسميهما بالشهيق والزفير[1].

ومن المعلوم أن شدة الهيجان الشمسي والاندفاعات الهائلة من اللهب فيها يؤثر على جو الأرض بارتفاع حرارته.

كما لوحظ أن تغيّرات الطقس في الأرض تحدث بعيد ظهور العواصف الشمسية وبلوغ البقع الشمسية ذروتها حيث تحدث العواصف على الأرض ويشتد البرد في بقاع منها وتكثر الفيضانات.

إذن هنالك نار لها نَفَسان كما أخبر الحديث النبوي، ويُحدثان على الأرض حراً وبرداً شديدين فما أثبته الحديث النبوي لا يخالف العلم؛ بل هو قد أثبت حقيقة علمية مدهشة ما كانت لتخطر على بال إنسان، وذلك من إعجازاته العلمية.

جاء في حديث رواه البخاري: «إذا وقع الذباب في إناء أحدكم فليغمسه ثم لينزعه فإن في أحد جناحيه داء وفي الآخر شفاء».

يبادر كثير من الناس إلى استنكار هذا الحديث الشريف لاستغراب أن يحتوي الذباب شيئاً فيه شفاء.

أقول لا وجه لهذا الاستغراب فقد استخرجت مضادات للجراثيم من أشياء مستقذرة كتراب المقابر. وقد نقل الدكتو عزّ الدين جوالة تحقيقاً للطبيبين المصريين محمود كمال ومحمد عبد المنعم حسين يذكران فيه أن الأستاذ الألماني (بريفلد) من جامعة هال بألمانيا وجد أن الذبابة المنزلية مصابة بطفيلي من جنس الفطريات سماها (امبوزاموسكي)، وهو طفيلي يعايش الذبابة على الدوام وفيه نوع من الفطور الأشنية التي تسمى (انتوموفترالي) ويقضي هذا الطفيلي حياته في الطبقة الدهنية الموجودة داخل بطن الذبابة، ثم لا تلبث هذه الخلايا أن تستطيل وتصبح خارج جسم الذبابة ومع تجمع بذور الفطر داخل الخلية يزداد الضغط الداخلي فيه فتنفجر وربما شوهد ذلك في ذبابة ميتة.

---

(1) إن نار جهنم موصوفة بالشهيق والزفير والفوران وبأنها حطمة أي تحطم ما فيها لشدة الضغط فيها، وكل ذلك من صفات نار الشمس، ومن ذلك نفهم أن نار جهنم من نوع نار الشمس، وقد كانت البشرية تجهل وجود نار لها هذه الصفات عندما تحدّث القرآن الكريم عنها.

ووجد عام 1945م الأستاذ الخبير بالفطريات (لانجيرون) أن في هذا الفطر أنزيمات قاتلة لحاملات المرض.

كما استخرج علماء آخرون من فصيلة الفطريات التي تعيش في الذبابة مواداً حيوية قاتلة للجراثيم مثل ما أسموه (جافاسين، وكلوتيزين، وأنياتين).

وذكر بعض الأطباء أن الذبابة تحمل ما يسمى (باكتريوفاج) أي مفترسة الجراثيم؛ كما يذكر السيد الجميلي أنه وجد عند دراسة ذباب الذراريح أنه يحمل في أجنحته مضادات للجراثيم.

ويظهر أنه عندما تسقط ذبابة في سائل فإن الخلايا الحاملة للفطريات المضادة للجراثيم تنتبج وتصبح معرضة للانفجار بأي ضغطة خفيفة، فمع غمس الذبابة يمكن أن تنفجر وتقتل الجراثيم، كما أن جسم الذبابة خشن وما يتفشى منه من جراثيم عند سقوطه في سائل يمكن أن يعود ويعلق به بأهدابه عند غمس الذبابة ونزعها.

من كل ذلك تجد أن الحديث النبوي يتوافق مع العلم ولا داع لاستنكاره.

جاء في حديث نبوي صحيح أنه إن عَلَتْ نطفة الرجل نطفة المرأة كان الشبه له، وإن عَلَتْ نطفتها نطفته كان الشبه لها.

هذا الأثر يظهر عند بعض الناس مخالفاً للعلم؛ وليس الأمر كذلك لأن لفظة علت تستخدم في اللغة بمعنى السيطرة والغلبة، وقد عرف علمياً أن لكل صفة وراثية مورثتان على الأقل، إحداهما تتأتى عن الذكر، والأخرى عن الأنثى، ولا تعملان معاً، وإنما تعلو وتسود إحداهما على الأخرى فتسمى سائدة أو قاهرة، وتسمى الأخرى متنحية أو مقهورة.

هذا المعروف علمياً متفق مع المعنى العام للحديث النبوي، ويجب أن يعلم أن الحديث النبوي لا يعتني بالتفصيلات ولا يستخدم الاصطلاحات الحادثة، وإنما يعطي معنًى عاماً مبسطاً قريباً من الأفهام لكنه صحيح.

جاء في الحديث النبوي الصحيح «العين حق» وهذا مما يستنكره كثير من الناس، ويعتبرونه من الخرافات فهل هو متفق مع العلم؟.

أقول هنالك فرق كبير بين ما أثبت العلم بطلانه وبين ما جهله العلم ولم

يحكم عليه بشيء، وقضية إصابة العائن غيره بضرر ما وإن لم يثبتها العلم لكنه أيضاً لم ينفها، وهي قضية ممكنة من حيث المعقول والعلم؛ لأنه ثبت علمياً أن الدماغ البشري يبث أمواجاً كهرطيسية، ويحدث تبادل تأثير بين دماغ وآخر عن بعد وإلى ذلك تعزى ظاهرة التخاطر (أو التلباثي)، التي ثبتت علمياً[1]، والعين تتكون شبكيتها من تفرعات العصب البصري الآتي من الدماغ، لذا يمكن اعتبارها جزءاً من الدماغ، ولا يمتنع أن يكون للعين أثر ما عند حالة نفسية معينة لدى بعض الأشخاص، وتبثه على شكل أمواج كهرطيسية أو غير ذلك، ويكون لذلك تأثير ضار على الجملة العصبية عند الآخر.

ويشار هنا إلى أن للدماغ البشري أسراراً كثيرة غريبة وغامضة، ويذكر العلماء أنه لم يعرف من أسراره أكثر من (5%). فما ينبغي للإنسان إذن أن يغتر بما وصل إليه من معارف وينكر كل شيء لم يعلمه حتى في المجال الغامض لديه.

جاء في حديث نبوي صحيح أن الشمس تسجد تحت العرش. وقد استغرب ذلك بعض الكتاب، أقول لا داع للاستغراب فكون الشمس تحت العرش فلأن سائر الأفلاك تحت العرش، وكونها تسجد أمر وراء الحقائق المحسوسة المعروفة عن الشمس، ولا يمنع العقل أن يسند إلى جماد تسبيح أو سجود؛ ألا ترى أنك إذا سمعت شريط تسجيل ـ وهو جماد ـ يذكر فيه تسبيحٌ تقول هذا تسبيح أو إنه يسبح مع كونه جماداً؟ فلا يمنع أن يكون بعض ما يجري في الجمادات يعني تسبيحاً أو سجوداً في علم الله تعالى. ثم إن السجود فعل به إظهار الخضوع والانقياد لأمر الله تعالى فربما أطلق من باب المجاز على ما هو خاضع منقاد لأمر الله تعالى، والشمس يصدق عليها ذلك[2].

---

(1) وقد أشار القرآن الكريم إلى ظاهرة التلباثي عندما قال في قصة يوسف: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾ [يوسف: 94]، فعير أبناء يعقوب عليه السلام فصلت في مصر آتية نحو فلسطين حيث كان يعقوب عليه السلام، وكانت تحمل في تلك الأثناء البشارة بالعثور على يوسف وأخيه وكأن يعقوب عليه السلام قد تحسس بذلك حتى قال: إني لأجد ريح يوسف، وإن ربط القرآن بين الأمرين يدل على وجود ربط حقيقي بينهما، وقد كشف عن مثل هذا الربط حديثاً بعد معرفة ظاهرة (التلباثي) أو التخاطر عن بعد.

(2) ربما كان المراد بسجود الشمس: سقوطها في رئي العين في المغيب، كسقوط الساجد=

وينبغي أن يعرف من يطالع الأحاديث النبوية أن هذه الأحاديث تقرب المفاهيم للناس في عصرهم الأول وتستخدم أحياناً المجاز لهذا الغرض، وهدفها الأول تثبيت عقيدة الإيمان وتركيزها في النفوس لا التحدث عن حقائق علمية، وإن تعرضت لذلك أحياناً.

نظرية التطور[1]

تذكر نظريات التطور أن صفات النوع الواحد من الكائنات الحية تتغير مع الزمن، حتى يتطور النوع إلى نوع آخر، ويذكرون أن الإنسان قد تطور من القردة، والقردة تطورت من غيرها، وسائر الحيوانات والنباتات قد انطلقت من أصل واحد.

هذه النظرية يظهر أنها تخالف في جزء منها ما ذكره القرآن الكريم من أن آدم وحواء أهبطا إلى الأرض كإنسانين كاملين، فهل ما أثبته القرآن الكريم يعتبر مخالفاً للعلم؟

أقول إن إمكانية تحور صفات الكائن الحي مع الزمن حتى لو ثبتت فهي لا تنفي أن آدم وحواء قد أهبطا إلى الأرض كإنسانين كاملين، ولا يملك أحد أي مستمسك يستطيع به أن ينفي ما أثبته القرآن الكريم.

ثم إن نظريات التطور فيها مآخذ وعيوب كثيرة ويرفضها كثير من أصحاب الاختصاص في علم الأحياء، وإن أكثر نظريات التطور رواجاً اليوم هي الداروينية الجديدة التي تعوّل على الطفرة التي يمكن أن تصيب الصبغيات[2] الجنسية في تفسير تغير صفات الكائن الحي، ويعمل الاصطفاء الطبيعي على إنجاح الصفات المفيدة الناتجة من الطفرات فيبقى نسلها، أما الصفات السيئة فتلغى لفشلها.

= للسجود، وإن ظهورها كذلك لم يتم إلا بانقيادها هي وسائر الكواكب لأمر الله كانقياد وخضوع الساجد لربه تعالى.

(1) هذه النظرية مرفوضة مسبقاً، وأول من رفضها أصحابها كتلامذة داروين نفسه. (الناشر)

(2) الطفرة: تغير جد نادر الحدوث قد يصيب المورثات التي تحملها الصبغيات فيؤدي إلى عدول في الخلقة عن الشكل المعروف، كما يظهر له ستة أصابع ويشار إلى أن معظم الصفات الوراثية لا تلاحظ فيها طفرات خلال الملايين ومئات الملايين من الأفراد.

إنَّ هذا التعليل وهذه النظرية يأتي عليهما اعتراضات كثيرة منها :

1 - الطفرة هي عامل سيء على الأحياء، ولم تلاحظ أي طفرة أعطت نوعاً من الحيوانات فائدة، ولو كانت الطفرات هي الدافع للتطور لوجب أن نلاحظ تطوراً مسرعاً عند زيادة نسبة الطفرات، وإن التعرض للإشعاعات الذرية يزيد نسبة الطفرات كثيراً، فهل يظهر من ذلك أدنى فائدة للكائن الحي؟ بل لا يظهر إلا الأذى والتشوهات وارتفاع نسبة الموت.

ثم إن نسبة حدوث الطفرة نادر جداً، ومورثات بعض الصفات لا يلاحظ فيها طفرة خلال ملايين وآلاف الملايين من الانقسامات الخلوية، وإن تغيير النوع يحتاج إلى تغيير كبير في المورثات وإلى اختلاف عدد الصبغيات الحاملة للمورثات غالباً، فلو ضربنا نسبة حدوث الطفرة بنسبة التقائها مع مورثة طافرة ثانية بثالثة وهكذا، وضربنا ذلك بنسبة كون الطفرة مفيدة ـ على فرض وجود طفرات مفيدة ـ لكانت نتيجة الحساب الرياضي تدعو إلى السخرية، وفوق ذلك قد اكتشف العلماء أنَّ أنواع الأحياء تمتلك نظام تصحيح لأي حيود في المورثات عن الشكل العام للنوع حيث تمنع المورثات الطافرة عن توريث صفتها وتتغلب عليها الصفات الأساسية(1)، وإنه لمن المستغرب أن تفشل الأفراد التي تمثل أصل النوع في كثرتها الكاثرة وتموت وتنجح فقط الأفراد الطافرة.

2 - إذا نحن قبلنا التفسير القائل: إنَّ الصفات الوراثية غير الملائمة تندثر بموت أفرادها بفعل الاصطفاء الطبيعي الذي يقول البقاء للأحسن وفسرنا بذلك تلون الحيوانات بلون بيئتها الذي يوفر لها تمويهاً وحمايةً من أعدائها.

فلا نستطيع أن نعمم هذه الكيفية على سائر التغييرات التي يـدَّعى أنها حصلت، فمثلاً يقولون إن الظفير في عين الإنسان هو من بقايا الجفن الثالث المشاهد عند الطيور، نقول بأي آلية حذفت هذه الصفة الوراثية؟ هل مجرد وجود جفن ثالث لأجداد الإنسان كاف لفشلها في الحياة وموت سائر نسلها الموصوف بذلك؟ والأنكى من ذلك أن هنالك صفات وراثية جيدة تحملها حيوانات غير

---

(1) كل صفة وراثية يتنازع على توريثها مورثتان إحداهما من الأم، والأخرى من الأب، فتسود إحداهما وتقهر الأخرى، وقد وجد أن المورثات الطافرة مقهورة.

موجودة عند الإنسان، ولو كان الإنسان نهاية سلم التطور نحو الأحسن كما يدّعي لتجمع فيه سائر الصفات الفُضلى، فلماذا لا نجد الإنسان يمتلك صفات حسنة موجودة عند حيوانات هي دونه كقوة الحواس والعضلات وامتلاك تحسس عن بعد بالأشياء ومناعات ضد الأمراض وغير ذلك.

وإن أقدم أنواع للأسماك كما تدل المستحاثات هي الأسماك المدرعة، ووجود الدرع صفة حسنة، فلِمَ حذفها الاصطفاء الطبيعي؟.

لماذا يحذف الاصطفاء الطبيعي الصفة السيئة ويبقى على الحسنة، وحذف هنا الصفات الحسنة وأبقى ما دونها؟..

3 - إن أعضاء الكائن الحي كالإنسان تشكل وحدة متكاملة متناسقة العمل ولا تعمل إلا معاً، فلو لم تكن كاملة من الأصل لما عملت، وإن لم تعمل لم تتطور.

كما أنَّ آلية التطور حسب قولهم تفسر ـ وعلى علاتها ـ حدوث تحورات في أجهزة الجسم المختلفة ولا تفسر نشوء أجهزة كاملة من اللاشيء.

4 - يمتلك الإنسان في دماغه حيزاً مخصصاً للكتابة كما يقول علماء الأحياء هذا القسم موجود حتى عند القبائل المتخلفة التي لم تعرف الكتابة قط، ولهذا فإنَّ الإنسان قابل لتعلم الكتابة بخلاف الحيوانات الأخرى، فهل الكتابة سابقة لوجود هذا الحيز وهي التي أوجدته أم هو الذي مهّد السبيل لظهورها؟ لاشك أن وجود ذلك في دماغ الإنسان سابق لوجود الكتابة، ولولا ذلك لم توجد الكتابة أبداً، وهذا يدلُّ بوضوح على أنَّ الإنسان مصمم من قبل إرادة عليا ليتلاءم مع هذه الحياة، وليست الظروف هي التي صممته، وصنعت أجهزته العجيبة.

وإن مما يشير إلى الإرادة الحكيمة في الكون أننا نجد صفات القوة تقابلها صفات ضعف في الكائن الواحد، فمثلاً الأُسُود بطيئة التوالد، وقد كان من الأفضل لنوعها وسيادته على الطبيعة أن تكون سريعة التوالد أو متوسطة على أقل تقدير، ولكنها جُعلت كذلك لئلا يؤدي زيادة أعدادها القوية إلى عدم توازن في الطبيعة.

ونجد مثلاً حيوان اللامينغ يتوالد بسرعة كبيرة، فإن زاد عددها كثيراً ونقصت موارد الغذاء أبقت في مكان وجودها أفراداً قلائل وذهبت جموعها في رحلة جماعية تنتهي بأن تلقي بنفسها في البحر.

لقد تصرفت غريزياً بذلك لتحافظ على التوازن البيئي الذي هو هدف الصالح العام، وليس هو الأفضل لنوعها حسب قانون تنازع البقاء.

من كل ما سبق نجد أن نظرية التطور لا يصح الاعتراض بها على الدين لعدم ثبوتها، وهي على كل حال لا تفسر لنا ظاهرة نشوء الحياة، ولا تعطي بديلاً عن فكرة وجود الخالق تعالى.

وسواء ثبت أم لم يثبت أمر تحور صفات الكائن الحي مع الزمن، فذلك أمر لا يتناقض مع أصل الإيمان، ولا يلزم عنه أن الإنسان لم يُهبط به على الأرض كإنسان كامل.

ولقد ثبت علمياً أن هنالك فصائل حية كثيرة موجودة مستحاثاتها منذ أقدم الأحقاب الجيولوجية وهي موجودة اليوم ولم تتغير عما كانت عليه قط، فلا عجب أن يكون الإنسان ـ وهو بعدها في الظهور ـ لم يتغير عما كان عليه وكان كاملاً من الأصل.

ونحن إن سألنا التطوريين عن دليلهم على ما يذهبون إليه لكانت حجتهم وجود تشابهات كثيرة في الكائنات الحية، ولكن هذا ليس بدليل كاف على أن أصلها جميعها واحد، فلماذا يفسر التشابه على أن أصلها واحد، ولا يفسر على أن خالقها ومبدعها واحد، وقد خلقها تعيش على أرض واحدة وفي ظروف متشابهة.

* * *

نظرات في التحليل التاريخي للأديان

تختلف النظريات التي تفسر ظاهرة الدين عند البشر، ومتى وكيف نشأت هذه الظاهرة، فهنالك نظريات تطورية تزعم أنَّ الإنسان بدأ بعبادات أولية ترقت إلى عبادة الله الواحد السامي، وتختلف هذه النظريات التطورية عن بعضها في تحديد الأصل الذي انبثق عنه التدين، فبعضهم يرى أنَّ عبادة الطوطم(1) هي أصل الديانات، وبعضهم يرى أنَّ عبادة الأرواح هي الأصل فقد كان الإنسان يفزع من الأحلام فيحيل تفسيرها إلى أرواح يعبدها ليتقي شرها.

وهنالك من يزعم أن عبادة مظاهر الطبيعة هي الأصل؛ لأن الإنسان خشي من الطبيعة القاهرة فأخذ يعبدها خشية كوارثها، ولأجل استنزال الأمطار والخيرات.

وكلٌّ من أصحاب هذه النظريات يوجه سهام النقد إلى النظريات الأخرى، فتُنتَقد الطوطمية بانتقادات كثيرة منها: أنها لم تعرف إلا في بيئات محددة؛ وتُنتَقد نظرية الأحلام التي توحي بالأرواح بأن الإنسان إن فسر الأحلام التي يرى فيها أشخاصاً هم موتى بالأرواح فماذا يفسر الأحلام التي يرى فيها أشخاصاً من زمنه؟ وما الذي يدفعه هذا الدافع القاهر لتفسير الأحلام بأنها أرواح يجب الخضوع لها؟ وتُنتَقد أيضاً بأن هنالك بدائيين كما في استرالية لا يعرفون شيئاً من ذلك.

وتُنتَقد النظرية القائلة بأن عبادة مظاهر الطبيعة هي الأصل؛ بأن الإنسان إذا خشي من الكوارث كالعواصف فعبدها فأصابته بعد بالضرر، فما الذي يدعوه إلى الاستمرار على هذا التوجه بعد أن اتضحت تفاهته وعدم جدواه؟ ثم ليس لهذه العبادة أثر عند قبائل همجية بدائية كأقزام إفريقية.

وهنالك نظريات مؤلهة تقول: بفطرية معرفة الله تعالى، وأنَّ عقيدة الإيمان بالله تعالى وجدت في البداية بحالة من الطهر والنقاء، كما يقول (لانج) تلا ذلك ظهور العنصر الأسطوري.

---

(1) هو حيوان كانت ترى بعض القبائل القديمة أنها منحدرة منه ويسري فيه دم أجدادها.

وقد قامت دراسات للقبائل البدائية ودراسات تاريخية لمعرفة أي العقيدتين هي السابقة للأخرى؛ عقيدة الإيمان بالإلـه السامي كما تقول النظرية الفطرية المؤلهة أم عقائد عبادة الطبيعة والوثنيات المختلفة كما تقول النظريات التطورية.

فدرس العلماء القبائل البدائية كقبائل الأقزام في إفريقية وهم أقدم الأجناس البشرية وأكثرهم بدائية، وهم يفوقون في البدائية القبائل الأسترالية. فوجد (شمت) وغيره أنَّ هؤلاء يؤمنون بإلـه سام بيده كل شيء ولا يوجد عندهم أثر لعبادة الطبيعة والأرواح، وإيمانهم بالسحر أقل من إيمان قبائل مجاورة لهم هم أكثر منهم تحضراً.

ووجدت نفس النتيجة عند باحثين آخرين فمن أثبت ذلك كما يذكرون: «(لانج) الذي أثبت عقيدة الإلـه الأعلى عند القبائل الهمجية في أسترالية وإفريقية وأمريكة، ومنهم شريدر الذي أثبتها عند الأجناس الآرية القديمة؛ وبروكلمان الذي وجدها عند الساميين قبل الإسلام، ولرواه وكاترفاج عند أقزام إفريقية، وشميدت عند الأقزام وعند سكان أسترالية الجنوبية الشرقية، وقد انتهى بحث شميدت هذا إلى أن فكرة الإلـه الأعظم توجد عند جميع الشعوب الذين يعدون من أقدم الأجناس الإنسانية»[1]، وأثبت كروبر في أبحاث نشرها عن هنود كاليفورنيا أنَّ هؤلاء القبائل هم أقدم القبائل في أمريكة الشمالية، وهؤلاء عرفوا فكرة الخلق بواسطة موجود سام بيده كل القوى وينسب إليه كل القدر. واكتشف نيو فنهوس عقيدة الإلـه الأسمى في أندونيسيا لدى السكان البدائيين، كذلك أثبت عقيدة الإلـه السامي عند الشعوب البدائية بريوس وشلنج وسوانتون وغيرهم[2]. ويقول ماكس موللر: «إياً كان العصر الذي تم فيه جمع الأناشيد المسطورة في الرجفيدا فقبل ذلك العصر كان بين الهنود مؤمنون بالإلـه الأحد الذي لا هو بذكر ولا أنثى ولا تحده أحوال التشخيص وقيود الطبيعة الإنسانية»[3].

إنَّ كل هذه الاكتشافات حققت تقدماً وانتصاراً للنظرية الفطرية المؤلهة على النظريات التطورية، وأضحى من المقرر في علوم الأديان أن فكرة الإلـه

---

(1) الدين، لمحمد عبد الله دراز، ص107 - 108.

(2) انظر: نشأة الدين، ص193، لعلي سامي النشار.

(3) عن كتاب الله، ص64، للعقاد.

السامي عميقة الجذور ولم تأت في مرحلة متأخرة كتطور لعقائد أخرى.

ونحن لا ننكر أنه يمكن أن يكون هنالك أثر للدواعي النفسية والاجتماعية في نشأة أو تعديل بعض الأديان، ولكن ننكر على من ينفي وجود فكرة إلـٰهية صحيحة وفطرية عند الإنسان ركزها فيه الإلـه الحق ودعا إليها رسل حقيقيون مرسلون من عند الله تعالى، ولم تكن من مفرزات التوهمات الخرافية.

ونقول لأولئك: إن تعميماتكم لا دليل عليها ولا تعتبر حجة على المؤمنين بـالله تعالى خصوصـاً أنكم مضطربـون متناقضـون فيما بينكم وخصوصـاً أن الاكتشافات والأبحاث الحديثة جاءت مناقضة لما تدعون.

وإن طرح أي تفسير لظاهرة معينة لا يعتبر دليلاً ما لم يخرج عن كونه افتراضاً وحدسـاً، وما لم يهدم كل تفسـير ممكن آخـر للظاهرة المدروسـة، ويسلم من الاعتراضات والقوادح. ونقول لهؤلاء التطوريين: إن كان ضعف الإنسان وحيرته هو ما ولد عنده فكرة الدين، فهل ظاهرة التفكر في الكون التي قادت المفكرين والمتأملين والفلاسفة نحو الإيمان بالله هي ظاهرة مرضية يتجلى فيها الضعف الإنساني؟.

بل هذه الظاهرة في غاية الصحة، ولقد كان دعاة الأديان والمبادئ أقوياء ليس فيهم يتجلى ضعف المجتمع وحيرته.

وإن كانت فكرة الألوهية مجرد فكرة بدائية وجدت لدوافع ضعف بشري في آونة معينة، فما الذي يجعل كثيراً من العلماء والفلاسفة ومعظم الناس يؤمنون بها؟ ولِمَ نجدها أكثر رسوخاً من فلسفات إلحادية نشأت حديثاً وادّعت العلمية ثم ما لبثت أن انتكست وأخذت تنهار وينحسر مدها كوجودية سارتر؟.

وما الذي يدفع مثل رائد الفضاء الروسي غاغارين إلى الإيمان بالله وهو في الفضاء مع كونه عُلِّم الإلحاد ودرج عليه من نعومة أظفاره؟ ومع كونه عالماً لا يحتاج إلى فكرة غيبية لتفسر له الظواهر أو تدفع عنه الأذى.

وليس صنيع غاغارين حادثة فردية، فكم نرى من عتاة في الإلحاد ومستهزئين بالأديان يؤمنون آخر حياتهم، أو عندما تطبق عليهم الشدائد، ويرفعون أيديهم إلى السماء مستغيثين لدى إحداق الخطر بهم كمشارفتهم على الغرق والهلاك.

فعقيدة الإيمان بـالله تعالى هي أعمق في النفـس الإنسانية من التفسيرات الضحلة التي يقول بها التطوريون ويردون ظاهرة الإيمان إليها.

هذا ويقول بعض الملحدين المحللين للدين واعتقاداته: «إنَّ اعتقاد الإنسان بالجنة والنار والحساب هو حلم إنساني جاء ليلبي توقان الإنسان إلى إقامة العدل والانتصاف من الظلمة، بعد أن عجز عن ذلك في الدنيا، ولتوقانه إلى حياة هانئة فاضلة لا تعب فيها ولا نصب».

ويقول بعضهم: «إنَّ الحياة التي يحياها الجنين ويتلقى فيها الغذاء بلا نصب تترك في اللاشعور الإنسان توقاناً إلى مثل هذه الحياة، فيعتقد بالجنة ليلبي هذا الاعتقاد، توقانه إلى حياته الأولى».

نعود ونذكر أن إبداء تفسـير لظاهرة معينـة لا يعتبر بحد ذاته دليلاً كافياً خصوصاً إن كان هنالك تفسيرات أخرى وتركت بلا مبرر ومجرد تحريك الظن لا يغني عن الحق شيئاً.

ومن يريد أن يحكم على حقيقة اعتقادات دين معين ويرى مكانها من الحق، عليه أن يناقش حجج هذا الدين ونصيبها من الصحة في قواعد المنطق السليم.

ونحن لا نقول إن عطشنا دليل على وجود الماء، ولكن نقول إن عطشنا وتوقاننا إلى الماء لا يعني أن الماء غير موجود إلا في أوهامنا، وهل هنالك دليل من المنطق أو العلم يفرض أن لا يكون الإلـه الذي خلق الكون متقناً سيقيم العدالة بإجراء الحساب للمخلوقات؟ وهل يتناقض مع المنطق أن يكون هذا الإلـه قد جعل الإنسان يتوق بفطرته ووجدانه إلى العدل الذي سيقيمه خالقه؟.

مادام هؤلاء المحللون ليس لهم دليل على صحة ما يدّعون إلا الافتراض فلا يعتبر ما يذكرونه مغمزاً في صحة الاعتقادات التي ذكرناها والتي لم نثبتها بمجرد إبداء تحليلات معينة لظاهرة التدين، بل أثبتناها بأدلية علمية ومنطقية شهدت بصحة الرسالة التي أخبرت بتلك الاعتقادات.

لنناقش الآن أولئك الذين يبدون تقابلات وتشابهات بين التوراة وبين عقائد وأسـاطير قديمة كملحمة جلجامـش، ثم يظهرون شيئاً من التوافق بين التوراة والقرآن الكريم، ليقرروا ان سائر الأديان نبعت من أصول أسطورية قديمة، وأنَّ القرآن جاء كحلقة متممة لتلك الأساطير.

أقول إنَّ من يريد أن يبحث ظاهرة التشابه هذه وأسبابها عليه أن يبحث بحثاً كاملاً محيطاً فيذكر وجوه التشابه ووجوه الاختلاف، وما مكان تقريرات كل كتاب مقدس بالنسبة للعلم، وما هو طريق انتقال العقائد إن قرره، وما هي التفسيرات الممكنة لظاهرة التشابه، فنحن لدينا تفسير آخر لظاهرة التشابه غير الذي يقررونه من تطور القرآن عما سبقه من الديانات، وهو أن التوراة قد استمدت من أصلين أصل إلـهي صحيح لكون موسى عليه السلام نبياً حقيقياً وكذلك الأنبياء الآخرون في بني إسرائيل، وأصل أسطوري تأثروا به من الأقوام التي عاشوا بينها خلال فترة السبي في بابل. وقد كتبت التوراة بعد ذلك ولهذا شابهت التوراة في بعض نصوصها الأساطير القديمة، واتفقت مع القرآن الكريم في بعض الأحيان.

وليس ثمة غضاضة أن يتفق القرآن الكريم مع التوراة في بعض النقاط؛ لأن في التوراة ماهو صحيح مصدره من عند الله تعالى وما يتأتى من عند إلـه واحد لا ينبغي أن يكون فيه اختلاف وتناقض.

على أننا نجد القرآن الكريم يخالف التوراة عندما تسف فتجانب العلم والعقل، أو عندما يعمل الخيال البشري فيبالغ في حقائق صحيحة الأصل ويزخرفها بما لا يعقل.

والباحث النزيه عليه أن يناقش هذا ويناقش التفسير الذي ذكرناه للتشابه. أما أن يبحث بحثاً مبتوراً كما صنع فراس سواح في كتابه (مغامرة العقل الأولى) فيكتفي بعدة تقابلات بين القرآن والتوراة، ويجعل جُلَّ كلامه عن التقابلات بين التوراة والأساطير القديمة، ثم يسحب حكم الأسطورة على القرآن فذلك قول فاسد مضلل لا يسلكه صاحبه إلا لأنه يعلم أنه إن بحث بحثاً كاملاً ولم يتجاهل أياً من الظواهر فستفضح أكاذيبه وأباطيله.

يتكلم فراس سواح عن قصة الخلق ويريد أن يثبت تطورها من الأساطير إلى التوراة إلى القرآن، لكن قصة الخلق بين القرآن والتوراة متباينة تبايناً شديداً، وما تكلم القرآن الكريم عن شيء خالف به العلم الصحيح؛ بل جاء العلم الصحيح مؤكداً لما تكلم عليه القرآن الكريم من قضايا علمية، وقد أوضحنا ذلك جلياً في بحث الإعجاز العلمي في القرآن. لكن المؤلف يتغافل عن كل ذلك ويزعم توافقاً بين نصوص التوراة والأساطير القديمة التي تذكر أن الأرض كانت في بداية الخلق مائية مع القرآن الكريم حيث يقول: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هود: 7]،

مع أن القرآن الكريم لم يتحدث هنا عن الأرض بل ولا عن أصل خلق العرش إنما وصف حال العرش في الوقت الذي كونت فيه الأرض والسماوات، أما عن الأرض فيقول: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ۝٣٠ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ۝٣١ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا﴾ [النازعات: 30 - 32]، هذه الآيات التي تتحدث عن إنشاء الأرض وتكوينها تذكر أن الماء أخرج منها، فهو ليس أصل خلق الأرض بل وجد عليها بعد مدة ولا يخالف هذا التقرير العلم قيد أنملة.

ويشير القرآن الكريم إلى أنَّ المادة الكونية الأولى التي تشكلت منها أجرام السماوات مادة غازية سديمية بقوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾ [فصلت: 11]، ويتوافق هذا مع العلم، ولا أثر له في التوراة. والقرآن لا يعطي الأرض مركز الصدارة في الكون ولا يصف النجوم بأنها قناديل معلقة بجلد السماء كالتوراة، وإنما يعطي الصدارة للسماوات وما فيها ويقول: ﴿وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: 40]. ويشير إلى توسع الكون المطرد بقوله: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: 47]، وقد أوضحنا ذلك سابقاً ولا أثر لكل ذلك في التوراة.

ولما يقول القرآن الكريم: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾ [الأنبياء: 30]، فلا يخالف العلم بشيء بل يتفق معه في تقرير أن الأجرام الكونية بما في ذلك الأرض كانت شيئاً واحداً تم الفصل بينهما، لكن فراس سواح يريد أن يصرف الآية الكريمة عنوة عن التفسير الموافق للعلم، ويفسرها على نحو يتفق مع الأساطير التي تقول: «إنَّ غطاء السماء كان منطبقاً على الأرض، ثم رفعتها الآلهة بيديها»، وهذا تفسير باطل سخيف يكفي لبطلانه أن القرآن اكلريم ذكر السماوات بصيغة الجمع لا المفرد، ولم يصف السماء بأنها جلد كالتوراة بل قال: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ﴾[الذاريات: 7][1]، أي ذات المسارات، ويسمي القرآن الكريم أيضاً السماوات طرائق وكل ذلك ينفي التفسير الخرافي المفترى للآية الكريمة.

---

(1) السماء في اللغة: مأخوذة من السمو، وهو الارتفاع والعلو، لذلك يسمى سقف المنزل سماء، وكل ما علاك فهو سماك، ويمكن أن يطلق القرآن الكريم هذا اللفظ على ما فوقنا من غلاف جوي أو ما فوقنا من أفلاك وأجرام، ويمكن أن يطلق على مساكن الملائكة.

ولماذا يتعامى فراس سواح وأمثاله عن الحقائق العلمية الواضحة للقرآن الكريم؟ إني أتحداه أن يذكر البحث الذي ذكرته في الإعجاز العلمي للقرآن ثم يعطينا التفسير لهذا التوافق حسب أصوله الكافرة. إني أقول ذلك وأنا أعلم تماماً أن سائر الملحدين أعجز وأجبن من أن يصنعوا ذلك، وهم إن لم يسعفوا باطلهم بقسط كبير من طمس الحقائق والخداع فستظهر آراؤهم بشكلها المزري الحقيقي الذي يزدريه كل الأحرار.

كم يختلف القرآن الكريم في قصة الخلق عن التوراة. فالتوراة تذكر أن الخلق تم في أيـام أرضية يتتالى فيها الصباح والمساء، ومن العجيب أن تذكر وجود النور والصباح والمساء من اليوم الأول بينما تذكر خلق الشمس والنجوم التي هي وسيلة الإنارة بعد ذلك في اليوم الرابع؛ كذلك تذكر أن النباتات والأشجاء مخلوقة ومتكاثرة بالبذار قبل وجود الشمس وهذا غير معقول.

أما القرآن الكريم فليس فيه شيء من هذه التخريفات، ولا يخالف العلم الصحيح الحديث قيد أنملة وهو بريء كل البراءة عن مظاهر عبث الخيال البشري.

ويخالف القرآن الكريم التوراة والأناجيل في مسائل أخرى كثيرة فالتوراة مثلاً تسمي حاكم مصر في عهد يوسف عليه السلام فرعون، بينما القرآن الكريم يسميه الملك، ولقد عرف تاريخياً أن يوسف عليه السلام عاصر في حياته حكم الرعاة (الهكسوس) في مصر ولم يكونوا من الفراعنة، ويذكر القرآن الكريم نجاة بدن فرعون ولا تشير التوراة إلى شيء من ذلك ثم تكتشف جثته المحنطة لتكون آية لمن خلفه كما ذكر القرآن؛ ويسمي القرآن الكريم والد سيدنا إبراهيم آزر مخالفاً الكتاب المقدس الذي سماه تارخ، وإن مما يشير إلى أن لتسمية القرآن أصلاً أن بعض النصوص القديمة ذكرت اسمه أتيرا كما ذكر عبد الأحد داود ـ الذي كان قسيساً ـ وهو اسم قريب من آزر؛ وهذا يدلُّ على أن القرآن لم ينقل من التوراة ولم تبتكر فيه الأسماء والقصص بشكل اعتباطي وليس وراء ذلك إلا أنه وحي إلـهي.

ويذكر القرآن الكريم قصصاً كاملة ليس لها ذكر في الكتب السابقة كقصة البقرة، وإنزال مائدة من السماء على سيدنا عيسى عليه السلام، وكإخبار المسيح عليه السلام الناس بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم؛ وكقصة الاقتراع على

كفالة مريم وغير ذلك. ولو كان القرآن ذا مصدر بشري لسعى كاتبه في التقليل من شأن الأنبياء السابقين ليبرز هو ولما ذكر معجزات لنبي سابق لم يسجلها أتباعه في كتبهم.

ثم كيف ينقل محمد عليه الصلاة والسلام من كتب السالفين وهو وليد الصحراء المقفرة ومن الأمة الأمية التي هي أبعد الأمم عن الانفتاح على الثقافات والأديان الأخرى. وكان هو أمياً كما هو ثابت بالنقل والعقل(1) لا يعرف القراءة في لغة قومه فضلاً عن القراءة في لغات أخرى كانت الكتب السابقة مكتوبة بها.

أخيراً: نذكر أن ما جاء به القرآن الكريم من ذكر للطوفان في عهد نوح عليه السلام لا يخالف العلم بشيء، ولم يذكر القرآن الكريم أنَّ هذا الطوفان عمَّ سائر الأرض؛ بل هو كان عقوبة لقوم نوح الذين كذَّبوه، وما كانوا ممتدين على سائر مساحة الأرض. ولم يذكر تفصيلات خيالية للقصة كما صنعت التوراة، ويبدو أن أزواج الحيوانات التي حملها هي الحيوانات الأليفة التي كانوا يربونها لا سائر الحيوانات حتى المتوحشة منها ولم ينص القرآن كالتوراة على حمل ذوات الأنفس الخبيثة.

فلا ينبغي القول: إنَّ القرآن قد ذكر الطوفان أخذاً من الأساطير القديمة التي ذكرته، فلماذا يُفترض أن هذا الطوفان الذي ذكرته ووصفته عشرات الرقم الفخارية في بلاد الرافدين، واحتفظت به ذاكرة الإنسانية عند أمم وشعوب كثيرة يظهر أنها انحدرت ممن نجا من قوم نوح، لماذا يفترض أن كل ذلك كذب لا يمتُّ إلى الحقيقة بصلة؟.

يذكر فراس سواح أن الدراسات الجيولوجية تنفي حدوث الطوفان. وهذا مجرد كذب وقد ذكرنا أنه لا يلزم أن يكون شاملاً لكل الأرض.

---

(1) أي المحاكمة العقلية تثبت أنه أمي لأنه جاء في القرآن الكريم: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾[العنكبوت: 48]، والكاذب لا يمكنه أن يأتي بآية مكذوبة من مثل ذلك لأنها تتخذ دليلاً صريحاً على كذبه، فالقراءة والكتابة ليستا من الأمور التي تتعلم في السر وتبقى مجهولة عن عشيرة الإنسان وأقربائه، والإنسان الذي يكابر في ادّعاء صحة أمور يعلم جميع الناس بطلانها؛ لا يمكن أن ينجح في دعوته ويصدقه كل الناس الذين حواليه في النهاية.

وفي سنة 1922م ترأس السير ليونارد وولي بعثة إلى الجزء الجنوبي من بلاد الرافدين لينقب هنالك عن الآثار القديمة، فوجد في المناطق العديدة التي نقب فيها طبقة من الطمي الجاف يقع تحتها قطع وأدوات حجرية، ورأى أن ذلك لا يفسره إلا حدوث الطوفان، وقد سجلت قصة الطوفان على اثنى عشر لوحاً كبيراً في مكتبة الإلـه نابو في نينوى وهنالك رقم فخارية غيرها ذكرت قصة الطوفان[1].

* * *

(1) عن كتاب سبعون برهاناً علمياً على وجود الذات الإلـهية، ص312، لابن خليفة عليوي.

قضايا أساسية ووصايا نبوية

أولاً - ليس في الدين حقائق خفية:

يزعم كثير من الناس أن لديهم علم الحقيقة، وأنه يخالف علم الشريعة الظاهر، وقد تسمع من بعضهم عبارات منكرة تصل إلى حد التكفير، وهم إنما يسوغونها أو تسوغ لدى مريديهم بالاعتقاد القائل: إنَّ في الدين حقائق خفية لا يعرفها إلا الخواص، فعسى أن يكون لتلك العبارات معاني صحيحة في الجانب الذي نجهله من الدين.

إنَّ هذا كله باطل وبدعة خطيرة تميع الحدود بين الكفر والإيمان، وتنقل الدين من مقامه الواضح الذي جعله الله فيه إلى مقام غامض يستطيع كلٌّ تفسيره حسب هواه.

وفي الرد على هؤلاء أقول: إنَّ الله تعالى قال: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: 38]، فلو كان هنالك أساسيات ولم يذكرها لكان مفرطاً وقال سبحانه: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: 3]، فلو كان جوهر الدين ولبه كما يقولون خفي عنا لما كان الدين الذي أنزله الله كاملاً.

ولكي لايقول قائل: إنَّ لديه هدًى إضافياً غير الهدى المنزل في الكتاب، قال سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ﴾ [البقرة: 120]، ولأجل أن لا يزعم زاعم أنَّ الرسول قد أوتي حقائق لم يذعها بين الناس أو أن القرآن الكريم قد احتوى على رموز وحقائق خفية لا يعرفها أهل التفسير والشريعة الذين يسميهم غلاة المتصوفة أهل الظاهر قال سبحانه: ﴿۞ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ [المائدة: 67].

وقال جلَّ شأنه: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: 44]، وقال سبحانه: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ [القيامة: 19]، فنصَّ سبحانه على أنَّ

الرسالة كلها قد بلّغت بأمر إلـهي وأمر سبحانه الرسول ببيانها وتكفل سبحانه ببيان القرآن وشريعته، فلم تخفَ أية حقائق في الدين، وقال جلَّ شأنه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران: 187]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ [البقرة: 159]، فليختر الجهلة الذين يزعمون أنَّ لديهم أسراراً خفية في الدين بين أن يكون ما عندهم ضلال أو ما عندهم حق وهم يكتمونه فيستحقون بذلك اللعنة من الله ومن الناس. وعليك أن تعلم ـ أخي القارئ ـ أنَّ الذين يزعمون أنَّ عند بعض الناس علوماً خفية لا ينشرونها لا يمدحونهم بهذا الزعم بل يلصقون بهم تهمة منكرة كاذبة يستحق من اتصف بها اللعنة من الله ومن الناس بنص القرآن.

ثانياً ـ كل عقيدة أضيفت بعد عهد الرسول ابتداع وضلال:

قال الله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ﴾ [المائدة: 3]، فالدين قد تم بعقائده وأحكامه وسائر جوانبه في آخر حياة الرسول الأكرم ﷺ وبوفاته انقطع الوحي من السماء، وثبتت معالم الدين على شكلها النهائي، ومن اقتصر على العقيدة التي كانت معروفة زمن الرسالة فعقيدته صحيحة وكاملة بنص القرآن العظيم.

لذلك فإنَّ من أضاف عقائد جديدة بعد عهد الرسول كالقول بإمامة إمام مختف هو المرجع الأعلى للمسلمين في أمور الدين والدنيا وكزعم أنَّ بعض الأشخاص الذين وجدوا بعد عهد الرسالة معصومين في أقوالهم وأفعالهم حتى عن الخطأ والنسيان، وأنهم يرون اللوح المحفوظ ويبلغون الناس ما فيه وأنَّ أقوالهم وأفعالهم تشريع، وأنَّ هذا الاعتقاد تجاههم جزء من العقيدة من لا يعتقده فعقيدته فاسدة.

إنَّ كل ذلك ابتداع في العقيدة، لأنه لم يكن معروفاً زمن الرسالة، ووجد بعد ذلك، والابتداع في العقيدة أخطر أنواع الابتداعات، وإنَّ قوله عليه السلام: «وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة»، يتناول أول ما يتناول مثل هذه الابتداعات.

ونعود ونذكّر بأن من رفض هذه الاعتقادات واقتصر على العقيدة التي كانت

معروفة زمن الرسول ﷺ فعقيدته سليمة وكاملة بنص القرآن، ومن زعم أنَّ عقيدته فاسدة فهو مناقض لصريح الكتاب العزيز، ونسأل أولئك المخالفين أيضاً فنقول: «إنَّ رسول الله الذي هو رسول الله لم يكن يحصل له خبر السماء إلا بوساطة نزول جبريل عليه السلام فإن كان لديكم أشخاص يستطيعون تجاوز الرسول وتجاوز جبريل والأخذ من اللوح المحفوظ مباشرة فمقامهم أفضل من مقام النبي؛ لأن الذي يتلقى الخبر دون واسطة أقرب من الذي يتلقى الخبر بواسطة؛ وأي معنى يبقى لتنصيص الكتاب والسنة على أنَّ محمداً خاتم النبيين إن كان سيعطي غيره بعده مزية تلقي خبر السماء.

ونقول لهم لقد كان الوحي مراقباً للنبي ﷺ ومصوباً لاجتهاداته كقوله تعالى معاتباً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ﴾ [التحريم: 1]، وقوله سبحانه في شأن زيد بن حارثة وزوجته زينب بنت جحش: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ [الأحزاب: 37].

إنَّ هذه الآيات ومثيلاتها تبيّن أنّ الرسول عليه السلام بحكم بشريته معرض لفعل خلاف الأصوب إن اجتهد برأيه، ونحن نجزم بأن كل ما وصلنا عنه من أقوال وأفعال حق لا يشوبه الخطأ؛ لأن الوحي كان مراقباً له، ومعنى سكوته على تصرفاته تقرير صحتها ولو كانت اجتهادية، ولهذا كانت أقواله وأفعاله تشريع.

فإن كان ثمة أشخاص يزعمون أنَّ أقوالهم وأفعالهم تشريع، فهل كان الوحي ينزل ليسدد تصرفاتهم كما كان يفعل مع رسول الله ﷺ؟ أم أنهم لا يحتاجون هذا الأمر الذي احتاجه رسول الله؟ هذان أمران مران أحلاهما مر.

ثالثاً ـ السنة النبوية محفوظة بحفظ الله:

قال الله سبحانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: 9]، فتكفل سبحانه بحفظ كتابه الكريم، ولا يبعد أن نرى أن السنة من الذكر أيضاً فهي محفوظة حسب الآية الكريمة؛ لأنها وحي من الله أيضاً كما قال سبحانه: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: 4]، على كل الأحوال فالسنة هي بيان القرآن الكريم قال سبحانه: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: 44]، وتعهد سبحانه بحفظ بيان القرآن قال سبحانه: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القيامة: 19]، وحفظ السنة

أيضاً هو من إتمام نور الدين الذي تكفل الله به حيث قال: ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [الصف: 8]. وقد هيأ الله لهذه الأمة رجال الحديث في مختلف العصور الذين وقفوا حياتهم وطافوا البلاد في سبيل جمع الحديث وتنقيحه، وتركوا لنا ثروة ضخمة في مختلف علوم الحديث، ككتب الجرح والتعديل، التي درس كل راوٍ فيها من قبل علماء كثر، وحتى هؤلاء الدارسين قد درس كل شخص منهم من قبل الآخرين، وككتب السنة الجامعة للأحاديث بأسانيدها، وكتب تخريج الأحاديث ودراسة الأسانيد، وكتب العلل وغير ذلك.

وإننا نجد في عصرنا أشخاصاً يطعنون في السنة النبوية ولا يأبهون لدراسة الأسانيد التي يقوم بها الحفاظ، ويزعمون أن الأمويين قاموا بتزوير الحديث الشريف، وهذا محض افتراء فكتب الحديث دونت بعد العصر الأموي، ولم يكن بمقدور أي خليفة أن يملي رغبته ضمن أي حديث؛ لأن طريقة تلقي الأحاديث بالأسانيد تعصم من ذلك، فمثلاً عندما يقول الإمام مالك حدثني نافع قال حدثني ابن عمر أنَّ الرسول ﷺ قال: كذا وكذا، فالمسؤولون عن الحديث مبينون في السند وهم مالك ونافع وابن عمر، فعندما يكونون ثقات جميعهم فالحديث صحيح بغض النظر عن الحاكم في ذلك الوقت هل كان صالحاً أم فاسقاً؟ وقد نقلت كتب الحديث عن الأئمة المصنفين بالأسانيد الكثيرة واستفاضت بين الأمة بحيث لا يستطيع أي فاسق أن يتسلل إلى رجال السند دون أن يعرف بأنه هو الراوي، ودون أن تسلط عليه سهام النقد.

هذا وقد بيّن لنا سبحانه في محكم كتابه السبيل الواجب علينا اقتفاءه إزاء صحابة رسول الله ﷺ فقال جلَّ شأنه: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: 10]، فالفتنة التي حدثت في عهد سيدنا علي بن أبي طالب يجب أن لا تجعلنا نحمل على عامة الصحابة ونرد رواياتهم؛ لأن الله تعالى أمرنا بمحبتهم والاستغفار لهم، والموقف تجاههم ليس موقفاً من أشخاص فحسب بل موقف من الدين لأنهم هم الذين نقلوا لنا الكتاب والسنة، والتشكيك في السنة بهذه الطريقة يقتضي التشكيك في الكتاب.

وإنَّ الذين يشككون في السنة ويرفضون طريقة التلقي بالأسانيد لا يقدمون لنا البديل بل المسلك الذي يرتضونه هو كل ما وافق رأيهم ومذهبهم هو صحيح

وما خالفه باطل، وذلك يقتضي أن يكون المذهب متكئاً على آثار تتكيء هي بدورها عليه وهذا كله باطل.

الوصية النبوية:

روى أبو داود والترمذي أنَّ الرسول ﷺ أوصى أصحابه فقال: «أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن عبداً حبشياً فإن من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة».

هذا حديثٌ نبويٌّ شريفٌ صحيحٌ وهامٌّ وقد أكّد العلماء أهميته؛ لأنه يرسم للمسلم السبيل الذي عليه أن يسير فيه، ويبيّن هذا الحديث أنَّ ثمة أمور ستحدث في واقع المسلمين لا ترضي الله سبحانه وتخالف ما كان عليه نهج النبي الكريم ﷺ، وهذا مقرر في قوله عليه السلام: «فإن من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً»، ويبيّن عليه السلام ميزاناً تعرف به المستحدثات السيئة فيقول: «كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة»؛ ويقول في حديث آخر رواه البخاري: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»، وهذا يعني أنّ الشرع كامل بأساسياته وقواعده ومنهجياته، وكل ما خرج عن هذه الخطوط العريضة فيه أي كل ما زِيدَ عليه أو أنقص منه فهو ضلال.

وينبغي أن نعلم أنَّ الأصل في التعبد التوقيف فلا مجال لابتكار الأساليب والمنهجيات الجديدة في التعبد، وكما أنَّ البدعة تكون في آحاد المسائل الفقهية فإنها تكون أيضاً في المنهجيات المتبعة في التعبد والذكر التي تخالف ما كان عليه النبي عليه الصلاة والسلام وأصحابه.

وإن المبتدع قد أقام نفسه مقام المستدرك على الشارع وكأنه يقول له: إنني أتيت بأكمل مما أتيت به.

قال الشاطبي في الاعتصام[1] قال ابن الماجشون: «سمعت مالكاً يقول من ابتدع في الإسلام بدعة يراها حسنة فقد زعم أنَّ محمداً ﷺ خان الرسالة لأن الله يقول: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: 3] فما لم يكن يومئذ ديناً فلا يكون اليوم ديناً».

---

(1) 1/47-48.

من كل ما سبق يتبيّن لك أخي القارئ أن سائر البدع ضلال، وعلى ذلك نص الحديث النبوي: «كل بدعة ضلالة»، وإن ادّعاء أن بعض البدع حسن يصادم الحديث النبوي ويفرغه عن الفائدة، وإنَّ صاحب الشريعة لم يرد عنه قط إلا ذم البدع؛ وإن كان بعض السلف قد سمى بعض المستحدثات بدعاً ومدحها فهذا على معناها اللغوي الذي يشمل كل جديد مستحدث وإن كان مندرجاً تحت الأصول المستحسنة في الشرع كاستحداث جمع القرآن الكريم في المصحف، وتناقل الأحاديث النبوية بالأسانيد، وواضح أن التعريف الشرعي للبدعة لا ينطبق على هذه المستحدثات.

والآن دعنا لنستمع إلى وصايا نبوية غالية تبين السبيل الذي سيكون عليه الناس والسبيل الذي ينبغي أن يسلكه المسلم في ذلك الواقع.

عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: «كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني فقلت: يا رسول الله إنا كنا في جاهلية وشرّ فجاءنا الله بهذا الخير فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: نعم، قلت: وهل بعد ذلك الشرِّ من خير؟ قال: نعم، وفيه دَخَنٌ، قلت: وما دَخَنُهُ؟ قال: قوم يستنون بغير سنتي، ويهدون بغير هديي تعرف منهم وتنكر، فقلت: فهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: نعم، دعاة على أبواب جهنم، من أجابهم إليها قذفوه فيها، فقلت: يا رسول الله صفهم لنا قال: نعم، من جِلدتنا ويتكلمون بألسنتنا، فقلت: يا رسول الله فما ترى - وفي رواية فما تأمرني - إن أدركني ذلك؟ قال: تلزم جماعة المسلمين وإمامهم، قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟قال: فاعتزل تلك الفِرق كلها، ولو أن تَعَضَّ بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك»[1].

يظهر أن الشر الذي يكون عقب خير عصر النبوة هو الاقتتال الذي حصل بين الصحابة بعد العهد الراشدي، والخير الذي سيكون بعد ذلك هو الخير الذي تجده عند عامة من يعلِّمون الدين، والدَخَن الذي فيه هو شوائب من البدع تكون عند كثير من هؤلاء إلا من رحم الله، وعلى المسلم أن يتبيّن هذه الشوائب بالاحتكام إلى الكتاب والسنة، وإلى ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه، وما ينبغي لأحد أن ينفي وجود مثل هذه الشوائب الدخيلة؛ لأن الرسول ﷺ أخبر بذلك.

---

(1) متفق عليه.

أما الشر والدعاة على أبواب جهنم، فيظهر أنه الدعاة إلى الإباحيات وتقليد أمم الكفر في مناهج الحياة.

ثم يأمرنا النبي عليه الصلاة والسلام باتباع الإمام الحق والتزام جماعة المسلمين، ويأمرنا باعتزال الفِرق التي لا تُعرف خفاياها ومدى التزامها بضوابط الشريعة.

جعلني الله وإياك ـ أخي القارئ ـ ممن يلتزم الحق صافياً كما جاء عن رسول الله ﷺ، وأن نجتنب البدع لكي نحظى بالشرب من نهر الكوثر من يد نبينا ﷺ، في وقت تطرد الملائكة أصحاب البدع عن الحوض وتمنعهم من الشرب منه[1].

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

* * *

(1) خبر طرد الملائكة لأصحاب البدع عن الحوض ثابت في الصحيح.

أهم المراجع

1 - القرآن الكريم وتفاسيره .

2 ـ كتب السنة النبوية .

3 - الاعتقاد على مذهب السلف ، أحمد بن الحسين البيهقي .

4 - الأسماء والصفات ، أحمد بن الحسين البيهقي .

5 - التمهيد ، أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني .

6 - شرح العقائد النسفية ، سعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني .

7 - العقيدة الطحاوية ، الإمام الطحاوي .

8 - شرح العقيدة الطحاوية ، ابن العز الحنفي .

9 - موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين ، مصطفى صبري .

10 - كبرى اليقينيات الكونية ، د. محمد سعيد رمضان البوطي .

11 - العقيدة الإسلامية وأسسها ، عبد الرحمن حبنكة الميداني .

12 - العقائد الإسلامية ، سيد سابق .

13 - مقالة في المعرفة ، د. عدنان زرزور .

14 - روح الدين الإسلامي ، عفيف عبد الفتاح طبارة .

15 - قصة الإيمان ، نديم الجسر .

16 - النبأ العظيم ، عبد الله دراز .

17 - محمد في الكتاب المقدس ، عبد الأحد داوود .

18 - محمد في التوراة والإنجيل والقرآن ، إبراهيم خليل أحمد .

19 - محمد رسول الله هكذا بشرت به الأناجيل، بشرى زخاري ميخائيل.

20 - البشارة بنبي الإسلام، د. أحمد حجازي السقا.

21 - انجيل برنابا، ترجمة خليل سعادة.

22 - عيسى يبشر بالإسلام، د. محمد عطاء الرحيم.

23 - مباحث في الإعجاز، د. مصطفى مسلم، دار القلم بدمشق.

24 - المعجزة القرآنية والإعجاز العلمي والديني، د. محمد حسن هيتو.

25 - بينات المعجزة الخالدة، د. حسن ضياء الدين عتر.

26 - الإعجاز العلمي في الإسلام ـ القرآن الكريم، محمد كامل عبد الصمد.

27 - الإعجاز العلمي في الإسلام ـ السنة النبوية، محمد كامل عبد الصمد.

28 - إعجاز القرآن العلمي، محمود مهدي استانبولي.

29 - الكون والإنسان بين العلم والقرآن، بسام دفضع.

30 - كشوف جديدة في إعجاز القرآن، عادل عبد الله القلقيلي.

31 - الإسلام والحقائق العلمية، محمود قاسم.

32 - التوحيد، عبد المجيد الزنداني.

33 - الإسلام يتحدى، وحيد الدين خان، طبعة المختار الإسلامي.

* * *

الفهرس

* * *